الأخلاق المتبولية

للعارف بالله

سيدى عبد الوهاب الشعرانى

تقديم وتحقيق وتعليق

دكتور منيع عبد الحليم محمود

الجزء الثانى

هذه الطبعة على نفقة
حضرة صاحب السمو ولى عهد أبى ظبى
مساهمة كريمة منه
فى نشر الثقافة الإسلامية الأصيلة

البابُ الخامسُ

في جملة أخرى من الأخلاق

فمن أخلاقهم : مبادرتهم ببادى الرأى إلى النظر فى حكمة المعاصى إذا
وقعت ولا يعترضون إلا بعد النظر فى حكمة الأفعال

عكس ماعليه غيرهم فيبادر أحدهم إلى الإنكار ولا يكاد يعذر العاصى مثلا إلا بعد تفكر وتأمل طويل .

وقد قال أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه :

خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لى أف قط ، ولا لشىء صنعته لم صنعته ، ولا لشىء تركته لم تركته .

أى لأنه وقع وانقضى ومابقى على الداعى إلا إقامة الحدود الشرعية ان كان فيها حدودا والتأديب مثلا .

فاعرض ياخى حكمة وقوع ذلك الفعل أدبا مع الله تعالى ليقل اعتراضك على المقادير الالهية ثم اعترض باعتراض الشرع والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم معاتبة أحد من اخوانهم

إذا دعوه إلى وليمة ولم يحضر أومرض فلم يعودوه أوعمل مهما ، فلم يساعدوه لا بأنفسهم ولا بمالهم إلا لغرض صحيح كتنبيههم على نقص فيهم فى ترك مساعدتهم إخوانهم ، وتفويتهم الخير على أنفسهم لأجله ، فإن من شرط الفقير أن يرفع كلفته عن الناس بحسب الطاقة .

وقد كان أخى الشيخ أفضل الدين رضى الله تعالى عنه إذا عمل مولدا أومرض يقول :

اللهم انس أصحابى ذلك ، حتى أفرغ من عمل المولد أو أشفى من المرض خوفا من كلفتهم لأجله .

ومن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يكتم الجوع عن أصحابه ، وكانوا لا يعرفون ذلك منه إلا بصفرة وجهه ﷺ ، وتعصيبه بطنه بعصابة فاعلم ذلك واعمل به والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : شهودهم فى نفوسهم أنهم دون مريديهم

لأن المريد شيخ شيخه بالحال [1] وغاية الشيخ انه شيخه بالقال ومعلوم أن الحال أبلغ من القال .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

من شرط الشيخ أن لايرى لنفسه مدخلا فى هداية الناس إلاعلي وجه الدلالة فقط .

قال : ومحل ذلك أن لايفرق بين كون ذلك المريد مريدا له أومريدا لغيره ؛ ومتى فرق بينهما ، فهو يدعوا الناس بحظ نفسه لامحبة فى ظهور شرع الله عز وجل ، فان الهداية حيث ماحصلت أو الثمار حيث ماحصل ، وتام ، فهو المقصود لكل داع بقطع النظر عن كون ذلك على يده أويد غيره ، وهذا الخلق يخل به كثير من الفقرا وربما ترافعوا إلى الحكام ، وطلب كل واحد منهم أن يختص بذلك المريد .

وقد قالوا : المريد لمن يربد .

فاعلم ذلك وامش على قواعد الأشياخ والحمد لله رب العالمين.

---

(١) يقول الإمام القشيرى فى تعريف الحال :

والحال عند القوم : معنى يرد على القلب ، من غير تعمد منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب لهم ، من طرب ، أوحزن ، أو بسط ، أوقبض ، أوشوق ، أوانزعاج أوهيبة ، أوإحتياج .

فالأحوال : مواهب ، والمقامات : مكاسب .

والأحوال تأتى من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود .

وصاحب المقام ممكن فى مقامه ، وصاحب الحال مترق عن حاله .

وأشار قوم إلى بقاء الأحوال ، ودوامها ، وقالوا : إنها إذا لم تدم ، ولم تتوال فهى لوائح وبواده ، ولم يصل صاحبها بعد إلى الأحوال ، فإذا دامت تلك الصفة فعند ذلك تسمى « حالا » .

ومن أخلاقهم محبة إقامة الفقرا عندهم فى الزاوية ليذكروهم بالله تعالى بقراتهم وذكرهم وعباداتهم لالغرض من الأغراض النفسانية

وفى ذلك اتباع السنة المحمدية ، فإن أهل الصفة كانوا عنده صلى الله عليه وسلم فى المسجد لايلوون على أهل ، ولامال إنما هم جالسون للعبادة فقط .

وكان إذا جاءه صلى الله عليه وسلم صدقة بعثها إليهم ، ولم يتناول منها شيئا ، وإذا جاءه هدية أرسلها إليهم وأصاب منها وسيأتى ذلك فى البـاب الحادى عشر إن شاء الله تعـالى .

ولايخفى أن الفقرا فى إقامة المجاورين عندهم على أقسام :

فمنهم من له حرفة أو رزقه فينفق على الفقرا منها .

ومنهم من كان على ما يفتح الله تعالى ، كسيدى يوسف العجمى ، وسيدى أبى الحسن الشاذلى ، فإنهما كانا يقولان :

لانربى أصحابنا على الاعتماد على الأسباب ، وإنما نربيهم على التوكل [1] ، وقد عرض

---

(١) يقول سهل بن عبد الله : علامة المتوكل ثلاث :
لا يسال ، ولا يرد ، ولا يحبس .
وقال رجل لحاتم الأصم :
من أين تأكل ؟
فقال : « ولله خزائن السموات والأرض ، ولـكن المنافقين لايفقهون » .
وقال حمدون : التوكل هو الإعتصام بالله تعالى .
وقال سهل بن عبد الله : أول مقام فى التوكل : أن يـكون العبد بين يدى الله عز وجل كالميت بين يدى الغاسل ، يقلبه كيف شاء ، لا يـكون له حركة ولا تدبير .
يقول الإمام القشيرى : واعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافى التوكل بالقلب ، بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى ، فإن تعسر شىء فبتقديره ، وإن اتفق فبتيسـيره .

الملوك عليهما الرزق والمرتبات ، فلم يجيبا إلى ذلك ، فكان سيدى أبو الحسن يشتغل هو وأصحابه بالعبادة ولا يسألون الناس شيئا .

وكان سيدى يوسف العجمى يسأل هو وأصحابه الناس ، فكان كل يوم على نقير ، وكان سيدى عثمان الحطاب يسأل الناس والأمراء ، ويطلع للسلطان قايتباى يسأل للفقرا القمح والأرز والثياب ، فقال له السلطان يوما :

أطلق هؤلاء الذين عندك تسترح منهم .

فقال له : فأطلق أنت الآخر هؤلاء المماليك تسترح منهم .

فقال : هؤلاء عسكر الإسلام .

فقال : وهؤلاء عسكر القرآن .

فتبسم السلطان ، وأعطاه ماطلب .

فحرر ياأخى النية الصالحة فى جمع الناس عندك ، ولا تطعمهم إلا حلالا بحسب رتبتهم فى كل عصر ، وماأرى التعفف عن السؤال لك ولهم إلا أفضل ولوكان مشهدك أن المعطى هو الله تعالى لاعباده ، فإنها هى الطريق التى درج عليها الشيخ الجنيد وأصحابه اللهم إلا أن يكون للفقير السائل حال يحميه عن ازدراء الناس له بالسؤال فهذا لابأس به وعليه حمل حال سيدى يوسف العجمى وغيره والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم شهودهم إطلاق إسم الفسق اللغوى عليهم فى جميع أحوالهم فلا يخرجون أنفسهم عن الفسق المذكور فى ساعة من ليل أو نهار لأن أحدهم لايخلوا من أمرين :

إما أن يكون فى فعل مكروه ، فالأمر ظاهر .

وما إن يكون فى فعل محمود ، فهو يشهد نقصه فيه عما أمر به .

وقد قالوا :

الفسق فى اللغة : هو الخروج يقال : فسقت النواة إذا خرجت من قشرتها ، ومن خرج عن السنة المحمدية قيدشبر مثلا فى ملبسه أو مأكله أو نومه أو عباداته أوغيرذلك من جميع أحواله الشرعية ، فقد انسحب عليه إسم الفسق اللغوى ، فأى عبد يدعى سلامته من هذا الفسق ، فإنه أعز من الكبريت الأحمر ، ولكن إذا كمل حال الفقير صار يشهد الكمال النسبي والنقص فى آن واحد بعين واحدة أو أعين كما يعرف ذلك من سلك الطريق والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم رضاهم عن الله تعالى إذا ناموا عن وردهم بالليل مثلا وشكرهم له حيث أنامهم فى عافية لأبدانهم

وذلك لأن لا تخلو أنفسهم من أدب العبودية فى وقت من الأوقات ، فلما فاتتهم أعمال العبودية من حيث التهجد مثلا تداركوها من حيث نعمة النوم عليهم ، فإنها من أعظم النعمة فكان شكرهم لله تعالى من هذه الحيثية كالجبر للثواب الذى فاتهم من جهة ترك التهجد مثلا ، فلذلك كانوا يستغفرون من النوم ، ويشكرون عليه من جهتين مختلفتين فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم التكدر ممن بلغهم عنه أنه ينفيهم عن طريق الصوفية

ويقول: إن هؤلاء نصابون كذابون بل يرون أن من شهد لهم أنهم من الصوفية كذاب ، ويتكدرون منه غيرة على القوم من أن يقال بأن أحدهم على مقام أحد منهم ، وكل صادق يرى مقامه بعيدا عن مقام الصوفية أبعد مما بين السماء والأرض .

وكان سيدى أفضل الدين رحمه الله تعالى إذا بلغه أن أحدا أخرجه عن طريق الفقرا يقول :

والله إن هذا قلبه نير الذى عرف خبث باطنى فأين خوفى من خوف القوم ، وأين الورع من الورع ، وأين الزهد من الزهد ، وأين العلم من العلم ، وأين العمل من العمل .

وقد تقدم فى هذا الكتاب عن سيدى عبد الله المنوفى صاحب الكرامات والتلامذة الأجلاء منهم الشيخ خليل صاحب المختصر ان ناظر خانقاه سعيد السعدا دعاه إلى الإقامة بها فأبى ، وقال :

إن وافقها شرط خلاويها وخبزها للصوفية ، وأنا لست بصوفى فانظر يلّخى إلى نظر العارفين وظنهم فى نفسهم واتبع طريقهم .

وقد رأيت من جمع له رسالة ملفقة من كلام الشيخ محي الدين ومن الإحياء للغزالى ، وكتب اسمه عليها وظن انه صار من الصوفية فقلت له :

إتخذلك شيخا يعرفك الطريق فعادانى سنين إلى وقتى هذا ، وقد سألته عن بعض مسائل فى مختصر أبى شجاع ؟ .

فقال : أنا ما قرأت فى الفقه .

فقلت له : الفقه أساس الطريق ، ولا يصح بناء على غير أساس انتهى .

وقد كان سيدى على المرصفى رحمه الله تعالى يقول :

كل من ادعى انه من أهل الطريق ، وهو يعجز عن استنباط شىء من الشريعة ،

وآداب القوم من الـكتاب والسنة ، فهو مدع كذاب .

وقد قال شخص من العلماء لأبى القاسم الجنيد رحمه الله تعالى : أى فايدة لقراءة حكاية أحوال القوم ؟ .

فقال : تثبت المريدين على محبة الطريق .

فقال له : العالم ماالدليل على ذلك من القرآن ؟ .

فقال فورا الدليل : على ذلك قوله تعالى : « وكلانقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك [1] » .

فقال له العالم : قد صلح تلقيبك بالاستاذ ، فاشتهر بتلقيبه بالاستاذ من ذلك اليوم فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة هود آية : ١٢٠

ومن أخلاقهم : تسليمهم لكل من ادعى أنه أعطى مقام الكشف[1]

ولكنه تنزه عنه وسأل الله فى إزالته ، حتى أزال ، ثم إن كان كاذبا ، فكذبه يرجع عليه ، وإن كان صادقا فقد صدقناه .

وكذلك نسلم لكل من ادعى مقام المراقبة ونحوه من مقامات الباطن .

---

(١) يقول الإمام القشيرى فى مقام الكشف :

المحاضرة : إبتداءاً ثم المكاشفة ، ثم المشاهدة .

فالمحاضرة : حضور القلب . وقد يكون بتواتر برهان ، وهو بعد وراء الستر وإن كان حاضراً باستيلاء سلطان الذكر .

ثم بعده : المكاشفة : وهو حضوره بنعت البيان . غير مفتقر فى هذه الحالة إلى تامل الدليل ، وتطلب السبيل ، ولا مستجير من دواعى الريب . ولا محجوب من نعت الغيب .

ثم : المشاهدة : وهى حضور الحق من غير بقاء تهمة .

فإذا أصحت سماء السر عن غيوم الستر ، فشمس الشهود مشرقة عن برج الشرف .

وحق المشاهدة ما قاله الجنيد ، رحمه الله : وجود الحق مع فقدانك .

ومن ذلك : اللوائح ، والطوالع ، واللوامع .

قال الأستاذ رضى الله عنه :

هذه الألفاظ متقاربة المعنى ، لا يكاد يحصل بينها كبير فرق . وهى من صفات أصحاب البدايات الصاعدين فى الترقى بالقلب ، فلم يدم لهم بعد ضياء شموس المعارف . لكن الحق سبحانه وتعالى ، يؤتى رزق قلوبهم فى كل حين ، كما قال : « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » ، فكلما أظلم عليهم سماء القلوب بسحاب الحظوظ سنح لهم فيها لوائح الكشف ، وتلألأ دامع القرب . وهم فى زمان سترهم يرقبون فجأة اللوائح .

فهم كما قال القائل :

يا أيها البرق الذى يلمع — من أى أكناف السما تسطع

فتكون أولا : لوائح ، ثم لوامع ، ثم طوالع .

فاللوائح كالبروق ، ماظهرت حتى استترت ، كما قال القائل :

افترقنا حولا فلما التقينا — كان تسليمه على وداعا

وسمعت أخى الشيخ فضل الدين رحمه الله يقول :

لاينبغى لفقير أن يدّعي مقام الكشف ، وأنه تنزه عنه ، وسأل الله تعالى الحجاب

وأنشدوا :

ياذا الذى زار وما زارا كأنه مقتبس نارا
مر بباب الدار مستعجلا ما ضره لو دخل الدارا

واللوامع : أظهر من اللوائح . وليس زوالها بتلك السرعة ، فقد تبقى اللوامع وقتين وثلاثة .

ولكن كما قالوا :

والعين باكية لم تشبع النظرا

وكما قالوا :

لم ترد ماء وجهه العين إلا شرقت قبل ريها برقيب

فإذا لمع قطعك عنك ، وجمعك به ، لكن لم يسفر نور نهاره حتى كر عليه عساكر الليل ، فهؤلاء بين روح ونوح ؛ لأنهم بين كشف وستر .

كما قالوا :

فالليل يشملنا بفاضل برده والصبح يلحفنا رداء مذهبا

والطوالع : أبقى وقتا ، وأقوى سلطانا ، وأدوم مكثا ، وأذهب للظلمة ، وأنفى للتهمة ، لكنها موقوفة على خطر الأفول ، ليست برفيعة الأوج ، ولا بدائمة المكث . ثم أوقات حصولها وشيكة الإرتحال ، وأحوال أفولها طويلة الأذيال .

وهذه المعانى ، التى هى : اللوائح واللوامع والطوالع ، تختلف فى القضايا ، فمنها ما إذا قات لم يبق عنها أثر كالشوارق إذا أفلت فكأن الليل كان دائما .

ومنها مايبقى عنه أثر ، فإن زال رقمه بقى ألمه ، وإن غربت أنواره بقيت آثاره . فصاحبه بعد سكون غلباته يعيش فى ضياء بركاته ، فإلى أن يلوح ثانيا يرجى وقته على انتظار عوده ، ويعيش بما وجد فى حين كونه .

ومن ذلك : البواده والهجوم .

البواده :

ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة ، إما موجب فرح ، وإما موجب ترح .

فيه إلا إن كان صادقا ، فإن النفس ربما تلبس على صاحبها فى أدعائها المقامات الباطنة .

ويقول : إن النـاس لا ينازعونك فى مثل ذلك لعدم اطلاعهم عليه ، وربمـا صار

والهجوم :

ما يرد على القلب بقوة الوقت ، من غير تصنع منك .

ويختلف فى الأنواع على حسب قوة الوارد وضعفه .

فمهم من تغيره البواده ، وتصرفه الهواجم .

ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالا وقوة . أولئك سادات الوقت . كما قيل :

لا تهتـدى نوب الزمان إليهم ولهم على الخطب الجليـل لجـام

ويشرح لنا الإمام الغزالى حالة الكشف فيقول :

شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى إكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد .

إعلم : أن من انكشف له شىء ، ولو الشىء اليسير ، بطريق الإلهام والوقوع فى القلب ، من حيث لا يدرى ، فقد صار عارفا بصحة الطريق ، ومن لم يدرك بنفسه قط ، فينبغى أن يؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جـداً . ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات . أما الشواهد فقوله تعـالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » فكل حكمة تظهر من القلب ، بالمواظبة على العبادة من غير تعلم ، فهى بطريق الكشف والإلهام.

وقال ﷺ :

« من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ، ومن لم يعمل بما يعلم ، تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار » .

وقال الله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » من الإشكالات والشبه « ويرزقه من حيث لا يحتسب » قيل : يعلمه من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة .

وقال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من الشبهات .

ولذلك كان ﷺ يكثر فى دعائه من سؤال النور . فقال عليه الصلاة والسلام :

« اللهم أعطنى نوراً ، وزدنى نوراً ، واجعل لى فى قلبى نوراً ، وفى قبرى نوراً ، وفى سمعى نورا ، وفى بصرى نورا » حتى قال « فى شعرى وفى بشرى ، وفى لحمى ، ودمى ، وعظامى » .

أحمد يقول لأصحابه إذا قالوا له فلان كاشف الباشاه يكذا ، وصح أن هذا أمر حصل لنا من أيام الطفولية ، وسألنا الله تعالى فى الحجاب عنه . فإنه من أحوال الناقصين

وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » : ما هذا الشرح ؟ فقال :

« هو التوسعة ، إن النور إذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح » .

وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التاويل » .

وقال على رضى الله عنه : ماعندنا شىء ، أسره النبي ﷺ ، إلينا أن يؤتى الله تعالى، عبدا فهما فى كتابه ، وليس هذا بالتعلم .

وقيل فى تفسير قوله تعالى : (يؤتى الحكمة من يشاء) إنه الفهم فى كتاب الله تعالى .

وقال تعالى : (ففهمناها سليمان) خص ما انكشف باسم الفهم .

وكان أبو الدرداء يقول : المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق ، والله إنه الحق يقذفه الله فى قلوبهم ويجريه على ألسنتهم .

وقال بعض السلف : ظن المؤمن كهانة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله تعالى » .

وإليه يشير قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » .

وقوله تعالى : « قد بينا الآيات لقوم يوقنون » .

وروى الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال : « العلم علمان فعلم باطن فى القلب فذلك هو العلم النافع » .

وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن : ما هو ؟ فقال : هو : سر من أسرار الله تعالى، يقذفه الله تعالى فى قلوب أحبابه ، لم يطلع عليه ملكا ولا بشراً .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن من أمتى محدثين ومعلمين ومكلمين ، وإن عمر منهم » .

وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى » ولا محدث : يعنى الصديقين .

والمحدث هو الملهم ، والملهم : هو الذى انكشف له فى باطن قلبه من جهة الداخل ، لا من جهة المحسات الخارجة .

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف ، وذلك علم من غير تعلم .

المبتدئين فى الطريق ، والحال أنه لم يعط مقام الكشف قط بل هو باق على ظلمة قلبه لأن ملكوت السموات لا يفتح بابه لمن بقي عليه من الدنيا شهوة واحدة حلال ، فكيف

وقال الله تعالى : « إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون » خصصها بهم .

وقال تعالى : (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) .

وكان أبو يزيد وغيره يقول : ليس العالم الذى يحفظ من كتاب ، فإذا نسى ماحفظه صار جاهلا ، وإنما العالم يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء ، بلا حفظ ولا درس ، وهذا هو العلم الربانى وإليه الإشارة بقوله تعالى : (وعلمناه من لدنا علما) مع أن كل علم من لدنه ، ولكن بعضه بوسائط تعليم الخلق ، فلا يسمى ذلك علما لدنيا ، بل اللدنى : الذى ينفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج . فهذه شواهد النقل .

ولو جمع كل ما ورد من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر .

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب ، فذلك أيضاً خارج عن الحصر ، وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

وقال أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها عند موته : إنما هما أخواك وأختاك ، وكانت زوجته حاملا فولدت بنتا فكأن قد عرف قبل الولادة أنها بنت . وقال عمر رضى الله عنه فى أثناء خطبته : ياسارية الجبل . إذ انكشف له : أن العدو ، قد أشرف عليه ، فحذره لمعرفته ذلك ، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلت على عثمان رضى الله عنه — وكنت قد لقيت إمرأة فى طريقى ، فنظرت إليها شزرا ، وتأملت محاسنها — فقال عثمان رضى الله عنه ، لما دخلت عليه : يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه !! أما علمت أن زنا العينين النظر ؟ لتتوبن أو لأعزرنك ، فقلت : أوحى بعد النبى ؟

فقال : لا ، ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة .

وعن أبى سعيد الخراز قال : دخلت المسجد الحرام ، فرأيت فقيراً عليه خرقتان ، فقلت فى نفسى : هذا وأشباهه كل على الناس ، فنادانى وقال : والله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ، فاستغفرت الله فى سرى ، فنادانى وقال : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده » ثم غاب عنى ولم أره .

يصح الكشف ممن يأكل من أطعمة الظلمة والمكاسين ، وطعام من لا يتورع فى مكسبه هذا أبعد من البعيد والحمد لله رب العالمين .

وقال زكريا بن داود : دخل أبو العباس بن مسروق على أبى الفضل الهاشمى وهو عليل، وكان ذا عيال ، ولم يعرف له سبب يعيش به ، قال : فلما قمت قلت فى نفسى : من يأكل هذا الرجل ؟ قال فصاح بى ، يا أبا العباس ، رد هذه الهمة الدنية . فإن لله تعالى ألطافا خفية .

النص الثالث : دليل الكشف :

والدليل القاطع (على الكشف) الذى لا يقدر على جحده أمران :

أحدها : عجاب الرؤيا الصادقة ، فإنه يتكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضاً فى اليقظة ، فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسات ، فكم من مستيقظ غائص ، لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه .

الثانى : إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيب وأمور فى المستقبل كما اشتمل عليه القرآن ، وإذا جاز ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، جاز لغيره إذ النبى : عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل بإصلاح الخلق ، فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل باصلاح الخلق ، وهذا لا يسمى نبيا ، بل يسمى وليا .

فمن آمن بالأنبياء ، وصــــدق بالرؤيا الصحيحة ، لزمه لامحالة ، أن يقر بأن القلب له بابان : باب إلى الخارج ، وهو الحواس ، وباب إلى الملكوت من داخل القلب : وهو باب الإلهام والنفث فى الروع ، والوحى .

فاذا أقر بهما جميعاً لم يمكنه أن يحصر العلوم فى التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلا إليه .

فهذا ماينبه على حقيقة ماذكرناه : من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت .

وأما السبب فى انكشاف الأمر فى المنام بالمثال المحوج إلى التعبير ، وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة ، فذلك أيضاً من أسرار عجائب القلب ، ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشفة ؛ فلنقتصر على ماذكرناه ، فانه كاف للاستحثاث على المجاهدة وطلب الكشف منها فقد قال بعض المكاشفين :

ظهر لى الملك ، فسألنى أن أملى عليه شيئاً من ذكرى الخفى عن مشاهدتى من التوحيد وقال : ما نكتب لك عملا ، ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به إلى الله عز وجل .

. . . . . .

فقلت : ألستما تكتبان الفرائض ؟

قالا : بلى .

قلت : فيكفيكما ذلك .

وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين ؛ لا يطلعون على أسرار القلب ، وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة .

النص الرابع : الفرق بين العلم النظرى والعلم الكشفى :

فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، رأى الأشياء فيه ، وتفجر إليه العلم منه ، فاستغنى عن الإقتباس من داخل الحواس ، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض ، ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسات كان ذلك حجابا له عن مطالعة اللوح المحفوظ ، كما أن الماء إذا اجتمع فى الأنهار منع ذلك من التفجر فى الأرض ؛ وكما أن من نظر إلى الماء الذى يحكى صورة الشمس لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس .

فاذن للقلب بابان :

باب مفتوح إلى عالم الملكوت ، وهو اللوح المحفوظ ، وعالم الملائكة .

وباب مفتوح إلى الحواس الخمس ، المتمسكة بعالم الملك والشهادة .

وعالم الشهادة والملك أيضاً ، يحاكى عالم الملكوت نوعا من المحاكاة .

فاما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس ، فلا يخفى عليك .

وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ، ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلمه علما يقينا : بالتأمل فى عجائب الرؤيا ، واطلاع القلب فى النوم على ما سيكون فى المستقبل ، أو كان فى الماضى ، من غير اقتباس من جهة الحواس .

وإنما ينفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى .

قال ﷺ : « سبق المفردون » .

قيل : ومن هم المفردون يارسول الله ؟

قال: (المتنزهون بذكر الله تعالى ، وضع الذكر عنهم أوزارهم ، فوردوا القيامة خفافا) .

ثم قال فى وصفهم إخباراً عن الله تعالى : « ثم أقبل بوجهى عليهم ، أترى من واجهته بوجهى يعلم أحد أى شىء أريد أن أعطيه ؟ »

. . . . . .

ثم قال تعالى: « ون ما أعطيهم : أن أقذف النور فى قلوبهم ، فيخبرون عنى كما أخبر عنهم » .
ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن .

فذن الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء وبين علوم العلماء الحكماء هذا ، وهو أن علومهم ، تأتى من داخل القلب ؛ من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت ، وعلم الحكمة يأتى من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك .

النص الخامس : الجود الإلهى :

معلومات الله سبحانه لا نهاية لها ، وأقصى الرتب رتبة النبى ، الذى تنكشف له الحقائق، من غير اكتساب ولا تكلف ، بل بكشف إلهى فى أسرع وقت .

وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكان والمسافة .

ومراقى هذه الدرجات : هى منازل السائرين إلى الله تعالى ، لا حصر لتلك المنازل ، وإنما يعرف كل سالك منزله الذى بلغه فى سلوكه ، فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل ، فأما ما بين يديه ، فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به إيمانا بالغيب كما أنا نؤمن بالنبوة والنبى ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبى .

وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ، ولا الطفل حال المميز ، وما يفتح له من العلوم الضرورية ، ولا المميز ، حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية ، فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته :

« ما يفتح الله للناس من رحمة ، فلا ممسك لها » .

وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضمون بها على أحد ، ولكن إنما تظهر فى القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى ، كما قال ﷺ :

« إن لربكم فى أيام دهركم لنفحات ، ألا فتعرضوا لها » .

والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة ، كما سيأتى بيانه . وإلى هذا الجود الإشارة بقوله ﷺ :

« ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول : هل من داع ، فأستجيب له ؟ »

وبقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه عز وجل :

« لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقا » .

وبقوله تعالى :

. . . .

(من تقرب إلى شبراً ، تقربت إليه ذراعا) .

كان ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب ، لبخل ومنع من جهة المنعم تعالى عن البخل والمنع علوا كبيرا . ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب ، فإن القلوب كالأوانى ، فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء ، فالقلوب المشغولة بغير الله ، لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى . وإليه الإشارة بقوله ﷺ :

(لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء) .

ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان : العلم والحكمة . وأشرف أنواع العلم ، هو العلم بالله وصفاته وأفعاله ، فيه كمال الإنسان ، وفيه كمال سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلالة والكمال .

ومن أخلاقهم : عدم إنكارهم على من عمل شيخا وصار ينزل بلاد الريف
ويأخذ العهد على الفلاحين بالوضوء والصلاة أسوة أمثالهم فقط من
غير أن يرقيهم إلى معرفة آداب الطريق كما عليه المطاوعة

لأنه عمل خيرا على كل حال ، وقد برز شخص من الفقرا على هذا القدم ، فلاث الناس عرضه ، وما كان يجوز لهم ذلك بل كان الواجب عليهم مدحه على ذلك ، لأنه قام بفرض كفاية عن الفقرا والفقها .

وكذلك لا يجوز حمله على أنه إنما يفعل ذلك ليصير المريدون يتفقدونه بالهدايا من القمح والكعك ، وغير ذلك ، فإن ذلك سوء ظن بالمسلمين ، وهو حرام بالإجماع فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا دخل عليهم إنسان وأحدهم يمزح مزحا مباحا أن يتموه ولا يقطعوه لأجل ذلك الداخل إلا بنية صالحة لأن خرق ناموسهم عند من يستحي منه أولى من ارتكابهم صفة النفاق .

وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول :

لو قيل لى إن أمير المؤمنين داخل عليك الساعة ، فسويت بيدى لدخوله لخفت أن أكتب فى جريدة المنافقين.

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

إذا دخل على أحدكم أمير ، وفى يده سبحة يسبح بها فلا يديمها فى يده إلا بنية صالحة وليحذر من أن يكون جالسا يضحك ، وهو غافل عن الله تعالى فيدخل عليه أمير ، فيأخذ السبحة بيده فيسبح بها إلا بنية صالحة هروبا من الوقوع فى الإثم .

وكان يقول : من إخلاص الفقير أن لا يزيد فى الإطراق والخشوع إذا دخل على أحد من الأكابر ومتى زاد عن ذلك فهو مرائى فعلى المريد خالص الحذر من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا ركبوا الحاجة أن لايدعوا أحدا من إخوانهم يمشى حولهم بحيث ينسب إليهم بالخدمة إلا لضرورة شرعية

وقد وقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب لحاجة فتبعه أبو هريرة فقال له اركب أبا هريرة معى فهم فأرمى النبى ﷺ .

فقال له : اركب أبا هريرة فهم فرماه ثانياً .

فقال : اركب ، فقال : ما كنت لأصرعك يارسول الله ثلاث مرات .

فقال له رسول الله ﷺ : إما أن تتقدم ، وإما أن تتأخر ، انتهى .

كل ذلك شفقة منه ﷺ أن يذل أصحابه بين يديه .

وقد درج السلف الصالح كلهم على كراه حب الظهور فى هذه الدار[1] .

وقد رأيت سيدى محمد بن عنان ، وسيدى على المرصفى ، وسيدى على الخواص رحمهم الله تعالى ، إذا خرج أحدهم لحاجة بعيدة تقصد المشى فى المواضع القليلة من الناس ، وليس مع أحد لهم إلا من يمسك حماره فقط .

فعلم أن من ركب ويمكن جماعته يمشون حوله كزفة الصبى فى الختان ، فهو ساذج أو طالب للظهور فى الغالب ، فليحذر الفقير من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) قيل لأبى يزيد : متى يكون الرجل متواضعاً ؟
فقال : إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا ، ولا يرى أن فى الخلق من هو شر منه .
وسئل الجنيد عن التواضع ؟
فقال : خفض الجناح للخلق ولين الجانب لهم .

ومن أخلاقهم : عدم محبتهم للبس ثياب مخصوصة دون غيرها
إلا بعد وصولهم إلى مقام يتساوى عندهم فيه
لبس المشاق ولبس المحررات

وما دام الترجيح موجودا فى نفوسهم لغير غرض شرعى فلبس ماتهواه نفوسهم مذموم شرعاً .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول :

من أدب الفقير أن لايتميز عن أبناء جنسه فى الملبس والهيئة بطريقه الشرعى

قال : ومن التميز فى هذا الزمان لبس الفرجيات الصوف الرفيعة وإرخاء العذبة ونشر الرداء على ظهره دون أن يلفه على عنقه ، فإن ذلك قد صار علامة المتمشيخين اللهم إلا أن يكون الرداء كبيرا فتقنع به فى الحر والبرد أو بنية كف البعض عن النظر ونحو ذلك فلا بأس وقد كان إبراهيم التيمى وسفيان الثورى يلبسان لبس الفتيان إذا خافا من الشهرة بالصلاح والعلم ، يدخلان فى غمار الناس فلا يعرفهم أحد إلا قليلا

وقد رأيت سيدى محمد بن عنان رحمه الله تعالى ، وهو يخرج إلى الجنائز وغيرها بثياب المهنة التى تكون عليه داخل الدار ويقول :

من أدب الفقير أن لايغير حاله فى اللبس إذا خرج من داره للناس لا بنية صالحة ، وأنا لم تحضرنى نية صالحة .

فقيل له : فما مثل النية الصالحة ؟ ؟

فقال : أن يدعى إلى صلاة الجمعة أو إلى لقاء الأكابر من مشايخ العرب ، ونحوهم ، فقد كان ﷺ إذا علم بدخول الوفود عليه يأمر أصحابه بلبس أحسن ثيابهم ، ويصلح طيات عمامته .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى فى الباب الخامس عشر والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : تحبيبهم لمن أراد أن يأخذ عن أحد من أقرانهم فى الأخذ عنه

حتى إن تلميذهم إذا أراد أن يتركهم ويتلمذ لغيرهم يرغبونه فيه حسب الطاقة ولا يتكدرون منه فى الباطن .

وأصل ذلك صحة مشهدهم فى نفوسهم أنهم دون جميع أقرانهم .

وتأمل المريد إذا رأى من يتلمذ يريد أن يتلمذ لأستاذه كيف يرغبه كل الترغيب ، وذلك لأنه يرى نفسه دون شيخه .

وكذلك حكم الكامل مع أقرانه يشهد نفسه معهم كالمريد .

وهذا خلق غريب لا يوجد اليوم إلا فى قليل من الفقراء ، فعلم أن كل من لم يرغب الناس فى غيره وعرض لهم أنهم يأخذون عنه فهو ساذج أو مدع[1] إلا أن يكون من أصحاب القدم الراسخة فى الطريق .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يرغب شخصاً قد تلمذ له فى شخص من مشايخ عصره .

ويقول له : يا أخى إن فلانا أعلم منى بالطريق ولو أننى أقدر على نشاط المريدين لتلمذت له ، انتهى .

وقد رأيت مريدا شاور شيخا فى أن يأخذ عن أحد من أقرانه فصار يقول له : أنت بحمد الله بخير ، وربما تكون أحسن حالا ممن تريد أن تأخذ عنه لأنك تصلى فرضك ، وتأكل من كسب يدك بخلافه هو ، فإنه يأكل أوساخ الناس ، فطال بهما المجلس .

---

(١) فإن أساس الخلق الصوفى هو التواضع وعدم حب الظهور كما جاء فى الخلق السابق .

فقال : مقصودى أن آخذ عنكم .

فقال : هذا واجب وإيش يضر الفقيه أن يكون صوفيا ، وصار يمدح الطريق ، وأهلها هذا شيء سمعته بأذنى .

فاحذر يا أخى أن تقع فى مثل ذلك فإنه نفاق وزور ، وامش على طريق سلفك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كراهتهم لدخول الأمراء والأكابر عليهم فى حال قراءة أورادهم وأحزابهم ومحافلهم

كما تقدم بسطه فى هذا الكتاب مرارا ، وذلك لأن دخول الأكابر عليهم فى حال اجتماع إخوانهم ، وفقرائهم يورث عند الأكابر تعظيما لهم ، وقيام ناموس ، فهم يخافون من نفوسهم أن تميل إلى دوام ذلك التعظيم ، فيهلك أحدهم ، ولا يشعر ، وربما دخل عليهم أمير كبير وهم فى حضرة الله تعالى يناجونه بكلامه فيصير أحدهم فى حيرة إن قطع مناجاة الحق تعالى لأجلهم ، فقد أساء الأدب ، وإن دام على المناجاة ، فربما استشعر تكدر ذلك الأمير الذى لا يعرف أدب الفقراء مع الله تعالى .

وقد رأيت بعض من يحب الظهور وقيل له: إن الأمير الفلانى عازم على زيارتك ، فجمع له الفقراء وذكروا رجاء أن يجىء وهم فى ذلك المجلس ، وطولوه فلم يج ، فلما تفرقوا جاءهم الأمير ، فوجد الشيخ ليس عنده أحد من الناس سوى العبد ، فصارت نفسه تنازعه فى أن يحكى للأمير ما كان عنده من الخلايق لا يحصون .

قال له : خاطركم علينا ، فإنا زهقنا من الخلائق ، وكان عندنا بكرة النهار خلايق لا يحصون ( )[٢] فقلت له فى أذنه سرا أنت مرائى ( )[٣] قد تبت إلى الله تعالى فقلت : الحمد لله رب العالمين .

(١ ، ٢) مطموس من الأصل .

ومن أخلاقهم : شدة خوفهم من المواظبة على ذكر الله تعالى .

والزهد فى الدنيا وكثرة الورع ، وكثرة الأوراد ، وغير ذلك أن يكون ذلك استدراجا إلى وقوعهم فى العجب ، فقل من يواظب على خير ، ويحمده الناس عليه إلا ويشق عليه ترك ذلك الخير محبة فى دوام الصيت لا محبة فى مجالسة الله عز وجل .

فليمتحن الفقير نفسه بما لو تغيرت أحواله وتحولت عنه تلك العبادات والخير فإن وجد فى نفسه وحشة من الناس فليعلم أن ذلك العمل كان كله رياء ونفاقا ، فيجب عليه التوبة والندم والاستغفار ؛ وإن رأى نفسه ليس عندها خجل ، ولا استيحاش من الناس فليشكر الله عز وجل ولا يأمن بعد ذلك .

وقد صلى بعض السلف أربعين سنة فى الصف الأول لم تفته تكبيرة الإحرام ، فاتفق له أنه تخلف عن الصف الأول يوما فوجد فى نفسه استيحاشا وحياء من الناس ، فأعاد صلاة أربعين سنة ، وقال : أرانى فى هذه المدة كلها كنت مرائيا ولا أشعر .

وكان الإمام الغزالى رحمه الله تعالى يقول :

ربما يجد بعضهم فى نفسه أنسا وتقريبا فى عبادته فيظن أن بها يغفر لجميع من حضره فضلا عنه ولو أن الله تعالى عامله مما يستحقه على سوء أدبه فيها لأهلكه ومن حوله انتهى .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله تعالى يقول :

لا ينبغى لفقير أن يجمع له جماعة ويعقدون مجلس ذكر فى زاوية مثلا إلا بعد إذن الأشياخ له فى ذلك بشرط ألا تكون دار أولئك الذاكرين بعيدة جدا عن مجلس الشيخ ، وإلا ، فمن الأدب للمريد إن لم يحضر مجلس شيخه أن لا يعقد له مجلسا غير مجلس شيخه انتهى .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين يقول : إن الفقير إذا حضر مجلس شيخه الذكر أن لا يستلذ فى نفسه رهبة المجلس ورائحة الخشوع والرعدة وضم الأكتاف واطراق الرأس ولو فى بعض الأوقات ، فإن ذلك من السموم القاتلة ، فليحذر الفقير من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم أخذهم أصحابهم معهم إلى وليمة دعاهم إليها من علموا بالقرائن أنه مكلف فى عمل طعامها ولو من حلال

فضلا عن الحرام والشبهات إلا بطريق شرعى ، وكل فقير أخذ جماعته معه إلى مثل ذلك ، فهو غاش لاخوانه .

وقد كان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله تعالى يقول : لايدع أحدا من اصحابه يخرج معه إلى وليمة لأحد من الأمراء ، ويقول : إنى عازم على أ كل السم فارجعوا ، وذهب مرة إلى وليمة فتسامع الناس ، وكثروا لأجل الشيخ ، فضاق عنهم الطعام ، فأمر الشيخ صاحب الطعام أن لايغرف منه لأحد إلا أن حضر ، فغرف الشيخ ، وكفاهم من ذلك الطعام ، وقال : لوكانوا مائة ألف لكفاهم ، فالفقير من فعل مثل ذلك ، وخفف عن صاحب الطعام كما مر تقريره مرارا والحمد لله رب العالمين .

ومن اخلاقهم التورع فى جميع أحوالهم

فلا يأكلون طعام من لا يتورع فى مكسب من الأمراء ، والتجار ، والماشرين ، والفقهاء كمن يأخذ البلص أو يبيع على الظلمة أو لا يسد فى وظائفه التى يأخذ معلومها ، ومتى لم يجد احدهم شيئا حلالا ، فمن أدبه أن يطوى ، ويجوع حتى يفتح الله تعالى عليه بشىء حلالا يأكله بعد حصول أوائل أمارات الاضطرار كما مر تقريره مرارا ، ومتى أكل شيئا من ذلك أو لبسه من غير ضرورة شرعية تلجئه إلى ذلك ، فهو مفتر كذاب مدع نصاب ليس له فى مقام الصالحين نصيب والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم العمل على معرفتهم برجحانهم فى الدين أو نقصانهم كل وقت فإن من لا يعرف زيادته ونقصه ، فهو جاهل ، والجاهل لا يكون من الصالحين .

وصورة معرفته بذلك أن ينظر إلى أحوال نفسه فإن رآها متبعة للكتاب والسنة متخلقة بأخلاق السلف الصالح من الورع ، والزهد ، وقيام الليل ، وكف الجوارح الظاهرة ، والباطنة عن شهوات الدنيا المكروهة فى الشرع فضلا عن المحرمة ، بحيث لا يكون للشرع عليه اعتراض بوجه من الوجوه فليعلم أنه رابح ، وهو على خير سنة وهدى .

وإن رأى نفسه راغبة فى الدنيا لا ورع عندها ولا جوع ولا سهر ولا قيام ليل ولا خشية من الله تعالى ، ولا بكاء فى الصلاة ، ولا غير ذلك ، فليعلم أنه خاسر ناقص الدين ليس له فى مقام الصالحين نصيب .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

كل من ادعى الزهد فى الدنيا ، وزاحم على شىء من وظائفها ومناصبها وأنظارها وسائر ما يؤول إليها أو احتاج إلى بذل مال فى تحصيل ما يطلب من مناصبها ، فهو محب للدنيا لا يصح له شىء من أعمال الآخرة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة نفرتهم ممن يدعوهم إلى شيء من شهوات الدنيا المذمومة وشدة نفرتهم ممن يطلب علم الكيمياء ، أو يدعى فتح المطالب لأنه نصاب قليل الدين ولذا كان من شأن الفقراء أن يزهدوا فى الذهب الخالص ، ويردونه ، ولا يقبلونه ، فكيف نظن بهم أنهم يتعبون أنفسهم فى عمل الكيميا التى غايتها الزغل أو ينهزوا أنفسهم فى حضور الكيميائى وشراء البخورات ويضيعوا أموالهم التى بها قوامهم فى حلاوة النصابين الكذابين .

فكل من رأيته يلحّ يدعى علم الكيميا أو فتح المطالب فابعد عنه ولا تجعل بينك وبينه محبة فإنه يتلف دينك ، ويذهب مالك ولو كان له عمامة صوف ، وسبحة وشعرة وعذبة فإنه شيطان فى صورة إنسان وهذا الأمر قد حدث فى بعض المدعين للطريق بغير حق ، فإنهم لما عجزوا عن جذب المتبعين للطريق لصحبتهم زين لهم أبليس أن يدعوا معرفة الكيميا ليتوجه المريد إليهم بذلك فكثرت أتباعهم بذلك ووقعوا فى النصب والتبليس وحولوا نفوسهم للنفى من بلادهم ولعمرى إذا كان الواجب على المريد فى بداية أمره أن يرمى ماعنده من الدنيا ، فكيف يأخذها الشيخ فى حال نهايته بل الشيخ من مقامه أن يكون أبعد الناس عن الدنيا .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله يقول :

كل شيخ سافر فى طلب الدنيا مع وجوده للرغيف وستر العورة فى بلده فهو دنياوى لم يشم للطريق رائحة لأن كل مايشغل على الله تعالى فهو مذموم اللهم إلا أن يكشف لعبد عن رزقه فى الروم مثلا ، وهو متوقف على حضوره فمثل هذا يسافر لرزقه ، ولا حرج عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تساوى الذهب والتراب يعنى فى الميل إليه فى حال بدايتهم ومتى رجح أحدهم الذهب على التراب فى المحبة ، فهو خارج عن طريق المريدين .

فليمتحن من يدعى أنه من المريدين الصادقين نفسه فإن وجدها ترجح الذهب على التراب ، فهو من أبناء الدنيا :

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول :

كان السيد عيسى عليه الصلاة والسلام لا يسمى العبد صالحا إلا إن تساوى عنده الذهب والتراب .

وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول :

من زعم أنه مؤمن بكلام الله تعالى ، فليمتحن نفسه بما لو فاته ألف دينار مثلا، وفاته قول لا إله إلا الله مرة واحدة ، فإن رأى نفسه تكدرت لفوات الألف دينار أكثر من فوات قول لا إله إلا الله ، فهو غير كامل الإيمان لقول الله عز وجل : « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا[1] » إذ لو كان كامل الإيمان بقول الله تعالى « إن ذلك خير » لتكدر لفوات تسبيحه أو تحميدة أو تكبيرة أو تهليلة أكثر ، وهذه ميزان يعرف بها العبد مرتبة نفسه فى الإيمان الكامل والناقص والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الكهف آية : ٤٦

ومن أخلاقهم إذا مروا على تلال الذهب والفضة من غير تزاحم عليها
في الدنيا ولا حساب عليها في ظنهم في الآخرة أن لا يطاطىء
أحدهم لأخذ شيء منها إلا بقدر الحاجه في ذلك اليوم
من أكل أوشرب أو وفاء دين ونحو ذلك

وإذا دخلت البغلة محملة ذهبا ليلا من مطالب أو غيره ، وليس معها أحد أغلقوها وأخرجوها . وأغلقوا بابهم ، ثم لا يرون لهم مقاما بذلك ، ومتى رجح احدهم اخراج البغلة المحملة ذهبا على اخراجه ريشه من داره ، فهو معظم الدنيا غير زاهد فيها فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الدنيا لا تزن عند الله تعالى جناح بعوضه(١) » أي ناموسه،

(١) قال الله تعالى : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون .

وقال تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » .

وقال تعالى : اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضو ن وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

وقال تعالى : زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضه والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب .

وقال تعالى : يأيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور .

وقال تعالى : ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم اليقين .

وماذا يخص العبد من جناح الناموسة إذا فرق على جميع هل الأرض ، حتى يرى له مقاما بتركه ، فكأن من يزهد فى الدنيا فيما لا يكاد يرى بالبصر لقلته .

وهذا الخلق قل من يتخلق به ، ولم أجده فاعلا من أقرانى سوى الشيخ على الحديدى

وقال تعالى : وماهذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون . والآيات فى الباب كثيرة مشهورة وأما الأحاديث فأكثر من أن تحصر فنبه بطرف منها على ماسواه : (عن) عمرو بن عوف الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه إلى البحرين يأتى بجزيتها فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيده فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال : أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين فقالوا : أجل يارسول الله فقال : أبشروا وأملوا مايسركم فوالله ماالفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم . متفق عليه .

(وعن) أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله فقال : إن مما أخاف عليكم من بعدى مايفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها . متفق عليه .

(وعنه) أن رسول الله ﷺ قال : الدنيا حلوه خضرة وأن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . رواه مسلم .

(و عن) أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة : مفتق عليه .

(وعنه) عن رسول الله ﷺ قال : يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله فيرجع إثنان ويبقى واحد يرجع أهله وماله ويبقى عمله . متفق عليه .

(وعنه) قال: قال رسول الله ﷺ : يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ فى النار صبغة ثم يقال يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط هل مر بك نعيم قط فيقول لا والله يارب ويؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا من اهل الجنة فيصبغ صبغة فى الجنة فيقال له يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط هل مر بك شدة قط فيقول لا والله مامر بى بؤس قط ولا رأيت شدة قط . رواه مسلم .

أحد أصحاب سيدى محمد بن عنان مر عند السحر على بغلة محملة من مطلب وليس معها أحد فتركها ، ولم يمكن رفيقه من أخذ شىء من الذهب الذى عليها ، ثم مر ، وتركها ، فرضى الله تعالى عنه ونفعنا به .

(وعن) المستورد بن شداد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم فلينظر بم ترجع . رواه مسلم .

(وعن) جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كنفتيه فمر بجدى أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم فقالوا : ما نحب أنه لنا بشىء وما نصنع به ثم قال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حيا كان عيبا أنه أسك فكيف وهو ميت فقال: فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم . رواه مسلم.

قوله كنفتيه أى : عن جانبيه والأسك : الصغير الأذن .

(وعن) أبى ذر رضى الله عنه قال : كنت أمشى مع النبى ﷺ فى حرة بالمدينة فاستقبلنا أحد فقال : يا أبا ذر . قلت : لبيك يارسول الله فقال : ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهبا تمضى على ثلاثة أيام وعندى منه دينار إلا شىء أرصده لدين إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله وعن خلفه ثم سار فقال : إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه وقليل ما هم ثم قال لى : مكانك لا تبرح حتى آتيك ثم انطلق فى سواد الليل حتى توارى فسمعت صوتاً قد ارتفع فتخوفت أن يكون أحد عرض للنبى فاردت أن آتيه فذكرت قوله لا تبرح حتى آتيك فلم أبرح حتى أتانى . فقلت : لقد سمعت صوتا تخوفت منه فذكرت له فقال : وهل سمعته قلت : نعم قال: ذاك جبريل أتانى فقال: من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قلت : وإن زنى وإن سرق قال : وإن زنى وإن سرق . متفق عليه . وهذا لفظ البخارى .

(وعن) أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : انظروا إلى من هو أسفل منكم ولاتنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم . متفق عليه .

وهذا لفظ مسلم . وفى رواية البخارى : إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

كل فقـير كتب له السلطان ألف دينار مثلا ، ولم يفرح إذا جاء إنسان وسعى فى منعه منهـا ولم يصر يحبه لأجل ذلك ، فهو لم يشم من طريق الفقراء رائحة لأن

(وعنه) : عن النبي ﷺ قال : تعس عبدالدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطى رضى وإن لم يعط لم يرض رواه البخارى .

(وعنه) رضى الله عنه قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة مامنهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء قد ربطو فى أعناقهم فنها مايبلغ نصف الساقين ومنها مايبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته رواه البخارى .

(وعنه) قال : قال رسول الله ﷺ : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر . رواه مسلم .

(وعن) ابن عمر رضى الله عنهما يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك . رواه البخارى .

قالوا فى شرح هذا الحديث معناه : لاتركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطناً ولاتحدث نفسك بطول البقاء فيها ولا بالاعتناء بها ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب فى غير وطنه ولا تشتغل فيها بما لايشتغل به الغريب الذى يريد الذهاب إلى أهله وبالله التوفيق .

(وعن) أبى العباس سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس فقال : ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس . حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره باسانيد حسنة .

(وعن) النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : ذكر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ماأصاب الناس من الدنيا فقال . لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يتلوى مايجد من الدقل مايملأ به بطنه . رواه مسلم الدقل : بفتح الدال المهملة والقاف : ردىء التمر .

(وعن) عائشة رضى الله عنها قالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فى بيتى من شىء يأ كله ذوكبد إلا شطر شعير فى دف لى فأ كلت منه حتى طال على فكلته ففنى . متفق عليه .

قولها شطر شعير أى شىء من شعير كذا . فسره الترمذى .

من شأن الفقير الصادق الذى يصلح للناس أن يتبركوا به أن ينقبض خاطره إذا دخلت عليه الدنيا ويكره كل من يسقطيها.

كما أن من شان الفقير الكاذب أن ينشرح خاطره، ويحب كل من أتاه بها انتهى.

(وعن) عمرو ابن الحارث أخو جويريه بنت الحارث أم المؤمنين رضى الله عنهما قال : ماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئاً ، إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة. رواه البخارى .

(وعن) خباب بن الأرت رضى الله عنه قال : هاجرنا مع رسول الله نلتمس وجه الله تعالى فوقع أجرنا على الله فمنا من مات ولم يأكل من أجره شيئا منهم مصعب بن عمير رضى الله عنه قتل يوم أحد وترك النمرة فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطينا بها رجليه بدا رأسه فامرنا رسول الله أن نغطى رأسه ونجعل على رجليه شيئا من الإذخر ، ومنامن أينعت له ثمرته فهو يهدبها . متفق عليه .

(النمرة) : كساء ملون من صوف وقوله أينعت ، أى نضجت وأدركت ، وقوله يهدبها هو بفتح الياء وضم الدال وكسرها لغتان أى يقطفها ويجتنيها وهذه استعارة لما فتح الله تعالى عليهم من الدنيا وتمكنوا فيها .

(وعن) سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى كافراً منها شربة ماء ، رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

(وعن) أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إلا أن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالماً ومتعلماً ، رواه الترمذى . وقال حديث حسن .

(وعن) عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتتخذوا الضيعة فترغبوا فى الدنيا ، رواه الترمذى وقال حديث حسن .

(وعن) عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصالنا فقال ماهذا ، فقلنا قد وهى فنحن نصلحه فقال : ماأرى

وكان سيدى ابراهيم المتبولى رضى الله عنه يقول :

من تغير على من سرق له شيئا من الدنيا ، ولو كان أردبا من شعير فهو من أبناء الدنيا .

فليمتحن من يدعى الفقر نفسه بمثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

الأمر إلا أعجل من ذلك ، رواه أبو داود والترمذى بإسناد البخارى ومسلم ، قال الترمذى حديث حسن صحيح .

(وعن) كعب بن عياض رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتى المال ، رواه الترمذى . وقال حديث حسن صحيح .

(وعن) أبى عمرو ويقال أبو عبد الله ويقال أبو ليلى عثمان ابن عفان رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وجلف الخبز والماء ، رواه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح .

قال الترمذى سمعت أبا داود سليمان بن سالم البلخى يقول : سمعت النضر بن شميل يقول : الجلف ، الخبز ليس معه إدام ، وقال غيره هو غليظ الخبز ، وقال الهروى المراد به هنا وعاء الخبز كالجوالق والخرج والله أعلم .

(وعن عبد الله بن الشخير بكسر الشين والخاء المشددة المعجمتين رضى الله عنه أنه قال . أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ ألهاكم التكاثر قال : يقول ابن آدم مالى ، مالى ، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت وتصدقت فأمضيت ، رواه مسلم .

(وعن) عبد الله بن مغفل رضى الله عنه قال : قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم : يارسول الله والله إنى لأحبك فقال : انظر ماذا تقول قال : والله إنى لأحبك ثلاث مرات. فقال : إن كنت تحبنى فأعد للفقر تجفافا فإن الفقر أسرع إلى من يحبنى من السيل إلى منتهاه . رواه الترمذى .

وقال حديث حسن . التجفاف بكسر التاء المثناه فوق وإسكان الجيم وبالفاء المكررة وهى شىء يلبسه الفرس ليتقى به الأذى وقد يلبسه الإنسان .

(وعن) كعب بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه . رواه الترمذى .

وقال حديث حسن صحيح .

• • • • •

(وعن) عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر فى جنبه قلنا يارسول الله : لو اتخذنا لك وطاء فقال مالى وللدنيا ماأنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها . رواه الترمذى . وقال حديث حسن صحيح

(وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام . رواه الترمذى . وقال حديث حسن صحيح .

(وعن) ابن عباس وعمران بن الحصين رضى الله عنهم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء. متفق عليه : من رواية ابن عباس رواة البخارى أيضاً من رواية عمران بن الحصين .

(وعن) أسامة بن زيد رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين وأصحاب الجد محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار . متفق عليه : والجد : الحظ والغنى وقد سبق بيان هذا الحديث فى باب فضل الضعفه .

(وعن) أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد . ألا كل شىء ما خلا الله باطل . متفق عليه .

ومن أخلاقهم : تورعهم عن الأكل من شيء من وقف الصوفية

لأن الصوفى هو من يكون على قدم الجنيد ، وغيره من المشايخ المذكورين فى رسالة القشيرى ، وحلية الحافظ أبى نعيم ، وأى فقير يدعى وصوله إلى مقام أحد من هؤلاء

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

الصوفى فى لسان السلف الصالح هو العالم العامل بما علم على وجه الإخلاص لا من لبس الصوف ، وتجلس بجلاس الفقراء ، وقبل هدايا العمال ، ومشايخ العرب ، والكشاف وأرسل قاصده إليهم يسأل قمحا أو عسلا أو أرزا وغير ذلك ، فإن هذا مخالف لطريق المشايخ الذين يزعم أنه خليفتهم أو على طريقهم

قال : وقد جاء فقيه مرة برغيفين من خبز الخانقاه سعيد السعدا إلى سيدى عبد الله المنوفى شيخ الشيخ خليل المالكى صاحب المختصر رضى الله عنهما ، وقال له : ياسيدى كل من هذين الرغيفين ، فإن وافقهما كان أميرا صالحاً .

فقال : صحيح ياولدى ، ولكن ذلك وقف على الصوفية وأنا لست بصوفى عند نفسى ، ولم يأكل منهما

فرضى الله تعالى عن أهل الورع ، وقد تقدم ذلك فى الكتاب مرارا والحمد لله رب العالمين

ومن أخلاقهم إذا وقف أحد ممن لايتورع على أحدهم شيئاً فيه حق للغير ولو جزءاً ضعيفاً أن لايقبل ذلك

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

من الواجب على الفقير إذا رأى فى الوقف عليه أو على ذريته أو زاويته شيئا للسلطان ولم يعلم بذلك أهل الديوان أن يرسل يعرفهم بذلك ، ويقول لهم :

بلغنى أن فى وقف زاويتى شيئاً لجهة مولانا السلطان ، والمسؤل أنكم تفتشوا مكاتبى وأصولها ، وتردوا إلى كل ذى حق حقه

ويقول لهم : لاتخافوا من دعاء الفقراء عليكم إذا أخرجتموها للسلطان ، فإن الفقراء هم السائلون فى ذلك خوفا أن يأكلوا حراما ، وأيضاً فإن الفقراء قد نبت لحمهم من ذلك ومن أكل حراما ولو فى نفس الأمر يوقف دعاؤه عن الإجابة مثل ماقال بعض العارفين وقالوا : إن الحرام كالسم فكما أن السم يمرض صاحبه ، ولو لم يعلم به ، فكذلك الحرام

فليحذر الفقير من أن يعلم فى وقفه ريبة ، ويسكت على ذلك ، أو يبرطل أصحاب الديوان على أنهم يبقونه فى يده ، فإنه يفسق بذلك ، ويخرج عن طريق الشرع والعرف

وقد أرسلت بحمد الله تعالى مكاتيب زاويتى أيام "باشاه خصرف ، لما بلغنى أن فيهم رزقة لا أصل لها فى الديوان ، فتعجب الباشاه وجماعته ، وقالوا : إن الإنسان يبرطل الدوله على أن يسكتوا عنه ، فكيف يرسل هذا مكاتيبه من غير سؤال ، ولا علم منا أن فى مكاتيبه ريبة ، واعتقدونى بسبب ذلك أشد الاعتقاد ، ولم يفعل ذلك أحد من أقرانى ، ولما جاء التفتيش ثانيا فى أيام على باشاه أرسلت المكاتيب كذلك وقلت : أخرج ماتراه لجهة السلطان ، ولو جميع الجهات ، ولاتخف من دعاء الفقراء ، فإن من يأكل الحرام لايقبل له دعاء ، فاعتقدونى غاية الاعتقاد ، وأرسل جماعة الديوان وقال لهم : قولوا له : قد حكمك الباشا فى هذه المسألة . فاحكم بين الفقراء ، وبين السلطان ، فرددت الأمر إليه ، فأفرج عن جميع الجهات من غير غرامة فلوس يأخذها فالحمد لله رب العالمين

ومن أخلاقهم أنهم يمرضون لمرض ولاة أمورهم ثم يخلصون من المرض
إذا شفى ولاتهم من مرضهم

ووقع لى ذلك مرات مع مولانا السلطان سليمان فمرضت لمرضه وشفيت لشفائه وأفطرت فى رمضان لأجل ذلك المرض عشرة أيام ، ثم جاء الخبر أن أيام فطرى كان السلطان فى أشد المرض ، وكذلك وقع لى مع داود باشا ، ومع على باشا ، وذلك لشدة ارتباط الفقراء بإمامهم

وكان على هذا القدم سيدى ابراهيم المتبولى وسيدى على الخواص رحمهما الله تعالى .

ولم أجد أحدا من أقرانى من تخلق بذلك الا قليلا والحمد لله رب العالمين

ومن أخلاقهم كثرة الشفقة على خلق الله عز وجل بطريقة الشرعى

حتى إنهم يحوطون كل يوم وليلة جميع الولاة الذين يظلمون الناس ؛ ويمسكون رؤسهم بين أيديهم ؛ ويضعون يدهم عليها ؛ ويتلون عليها الآيات ؛ والاخبار حتى لا يظلموا أحدا من رعيتهم

ويحوطون رعيتهم ليصيروا تحت حكم ولاتهم ، ولا ينقلقوا ، فإنهم مسلطون عليهم بحسب أعمالهم

وكذلك يحوطون زروعهم ، حتى لاتأكلها الدودة إن شاء الله تعالى فى تلك السنة وجسورهم حتى لاتقطعها العصاة قبل أوانها ، فتشرق البلاد

ويحوطون نهر النيل ؛ حتى تتم زيادته كالعادة

وكذلك يحوطون بيوت الناس وحوانيتهم ، إذا غابوا عنهم فى مثل يوم المحمل أو فى مولد الشيخ ، ونحو ذلك ، حتى لاتسرق اللصوص من أمتعتهم وهم غافلون

وكذلك يحوطون الغافلين عن الله تعالى كل يوم فى سائر : أقطار الأرض ، حتى لاينزل عليهم بلاء حال غفلتهم عن ربهم عز وجل ؛ وكذلك يحوطون زهر الفاكهة إذا حصل حر أو برد شديد يرمى الزهر ؛ فيضيع رأس مال كل من صاحب البستان ؛ ومن استأجره

وكانت هذه التحويطات من وظائف سيدى ابراهيم المتبولى ؛ وتلميذه سيدى على الخواص ولم أر بعدهما أحد تخلق بهذا المقام غيرى ، فلا أنام كل ليلة ، ولا أصبح ، حتى أحوط جميع المسلمين ، وأموالهم ، وما يجلب الأموال إليهم كل ذلك عملا بحديث الطبرانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم

فعلم أن كل فقيه قرب من زوجته أيام نزول البلاء بأحد من المسلمين ، أودخل الحمام أو لبس ثوبا ، مبخراً أو تفرج فى البساتين ، أو غرس شجرا ، أو بنى دارا ، ونحو ذلك

فما عنده من مقام الفقراء رائحة ، فإن حكم من يهتم لأمر المسلمين حكم من مات ولده العزيز الذى ليس له غيره مع وسع ماله ، وكثرة دوره ، وبساتينه ، وإقباله على الدنيا فهو لا يجد داعية تدعوه للضحك ، ولا للجماع ، ولا غير ذلك مما ذكرناه اللهم الا أن يكون ذلك الفقير من أهل التمكين كسيدى عبد القادر الجيلى . وسيدى أحمد بن الرفاعى ، واضرابهما ممن حزنه فى قلبه ، فيعطى كل ذى حق حقه فلا اعتراض عليه ، ولكن أين ذلك الفقير الذى على قدم هؤلاء فى التمكين والحمد لله رب العالمين

ومن أخلاقهم : أن لايحبوا شيئا الا إن بلغهم أن الله تعالى يحب منهم أن يحبوا ذلك الشيء

حتى إنهم لايحبون العفو عن سيآتهم الا لعلمهم بأن الله تعالى يحب العفو عن عباده ولو لا ذلك لما أحبوا العفو عنهم ، بل كانوا يتلذذون بالعقوبة

وهذا الخلق غريب فى الفقراء ، ولم أجد أحدا تخلق به من أقرانى الا قليلا كل ذلك من غلبة التفويض إلى الله تعالى والتسليم له ، وعدم التدبير لنفسهم لكون نفسهم ملكا لله تعالى ليس لهم فيها ملك (١) فالحمد لله رب العالمين

---

(١) يقول أبو نصر السراج الطوسى فى كتاب اللمع باب مقام التوكل : قال الشيخ رحمه الله : والتوكل مقام شريف ، وقد أمر الله تعالى بالتوكل وجعله مقروناً بالإيمان لقوله تعالى « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » .

وقال فى موضع آخر : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » فخص توكل المتوكلين من توكل المؤمنين ، ثم ذكر توكل خصوص الخصوص فقال : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » لم يردهم إلى شيء سواه كما قال لسيد المرسلين وإمام المتوكلين : « وتوكل على الحى الذى لايموت وكفى به » ، « وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم » الآية .

فهم على ثلاث طبقات :

فأما توكل المؤمنين فشرطه ماقال قال أبو تراب النخشبى رحمه الله حين سئل عن التوكل فقال :

التوكل : طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية ، فان اعطى شكر ، وإن منع صبر راضياً موافقاً للقدر .

وكما سئل ذو النون رحمه الله عن التوكل فقال : التوكل ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة .

وكما قال أبو بكر الزقاق رحمه الله : التوكل رد العيش إلى يوم واحد ، وإسقاط هم غد .

وسئل رويم رحمه الله عن التوكل فقال : الثقة بالوعد .

وسئل سهل بن عبدالله رحمه الله ، عن التوكل فقال : الإسترسال مع الله تعالى على مايريد .

وأما توكل أهل الخصوص فكما قال أبو العباس بن عطاء رحمه الله : من توكل

. . . . .

على الله لغير الله لم يتوكل على الله حتى يتوكل على الله بالله لله ، ويكون متوكلا على الله في توكله لا لسبب آخر ، أو كما قال أبو يعقوب النهرجورى رحمه الله ، وقد سئل عن التوكل فقال : موت النفس عند ذهاب حظوظها من أسباب الدنيا والآخرة .

وقد قال أيضاً أبو بكر الواسطى: أصل التوكل الفاقة والإفتقار وأن لايفارق التوكل في أمانيه ، ولا يلتفت بسره إلى توكله لحظة في عمره .

وسئل سهل بن عبد الله رحمه الله أيضاً عن التوكل ، فقال التوكل وجه كله وليس له قفا ، ولا يصح إلا لأهل المقابر .

فهؤلاء أشاروا إلى حقيقة توكل المتوكلين وهم الخصوص .

وأما توكل خصوص الخصوص فعلى ماقال الشبلى رحمه الله حين سئل عن التوكل فقال: أن تكون لله كما لم تكن ويكون الله تعالى لك كما لم يزل .

وكما قال بعضهم : حقيقة التوكل لا يقوم له أحد من خلقه على الكمال ، لأن الكمال بالكمال لايكون إلا لله ، جل جلاله . وسئل أبو عبد الله بن الجلاء عن التوكل فقال : الإيواء إلى الله وحده ، فى جميع الأحوال .

وسئل الجنيد رحمه الله عن التوكل فقال : اعتماد القلب على الله تعالى .

وقد حكى عن أبى سليمان الدارانى رحمه الله أنه قال لأحمد بن أبى الحوارى ،رحمه الله: ياأحمد ، إن طرق الآخرة كثيرة وشيخك عارف بكثير منها إلا هذا التوكل المبارك فإنى ماشممت منه رائحة ، وليس لى منه مشام الريح .

وقال بعضهم : من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبرا ويدفنها فيه ، وينس الدنيا وأهلها ، لأن حقيقة التوكل لايقوم له أحد من الخلق على كماله والتوكل يقتضى الرضا.

باب مقام الرضا وصفة أهله :

قال الشيخ رحمه الله : الرضا مقام شريف ، وقد ذكر الله عزوجل الرضا فى كتابه فقال : « رضى الله عنهم ورضوا عنه »وقال : « رضوان من الله أكبر » فذكر أن رضا الله عز وجل ، عن عباده أكرم وأقدم من رضاهم عنه .

والرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، وهو أن يكون قلب العبد ساكنا تحت حكم الله عز وجل .

وسئل الجنيد رحمه الله عن الرضا ، فقال : سكون القلب بمر القضاء .

. . . . .

وسئل ذو النون عن الرضا فقال : سرور القلب بمر القضاء . وقال ابن عطاء رحمه الله : الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله ، تعالى ، العبد ، لأن يعلم أنه اختار له الأفضل فيرضى به ويترك السخط .

وقال أبو بكر الواسطى ، رحمه الله استعمل الرضا جهدك ؛ ولا تدع الرضا يستعملك فتكون محجوبا بلذته ورؤية حقيقته : غير أن أهل الرضا فى الرضا على ثلاثة أحوال :

فنهم من عمل فى إسقاط الجزع حتى يكون قلبه مستويا لله عز وجل فيما يجرى عليه من حكم الله من المكاره والشدائد والراحات والمنع والعطاء :

ومنهم من ذهب عن رؤية رضائه عن الله عز وجل ، برؤية رضا الله عنه ، لقوله تعالى : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » فلا يثبت لنفسه قدم فى الرضا وإن استوى عند الشدة والرخاء والمنع والعطاء .

ومنهم من جاوز هذا وذهب عن رؤية الله عنه ورضاه عن الله لما سبق من الله تعالى لخلقه من الرضا ، كما قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : ليس أعمال الخلق بالذى يرضيه ولا بالذى يسخطه ، ولكنه رضى عن قوم فاستعملهم بعمل أهل الرضا ، وسخط على قوم فاستعملهم بعمل أهل السخط .

ومن أخلاقهم : عدم بداءة أحد من إخوانهم بالزيارة إذا علموا بقرائن الأحوال أنه يكافيهم ويأتى إليهم

وربما اشتاق أحدهم إلى أحد من المحبين له من أمير أو عالم أو صالح ، فلا يزوره خوفاً من تكليفه ، وربما أتاهم أمير زاير ، فزاروه بعد ذلك ألف مرة ، ولارأو أنهم كافئوه على زيارته لهم تلك المرة الواحدة

وما رأيت أحدا على هذا القدم بعد سيدى على الخواص الاقليلا

فعلم أن كل فقير تسبب فى زيارة أحد من الأكابر له . حتى زاره لغير غرض شرعى ثم لم يكافئه على ذلك . فهو لم يشم لتواضع الفقر رائحة بل هو نصاب الا أن يكون له عذر شرعى

وقد كان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى إذا علم من أمير أنه عازم على زيارته يذهب هو إليه ويقول :

أنا الفقير الذى عزمت على زيارتى ويقبل رجل الأمير ويسله الدعا وينصرف فقيل له كيف تقبل رجل الأمير وأنت فقير ؟

فقال : المنهى عنه إنما هو تقبيل الفقير رجل الغني لينال من ماله شيئا هو غير محتاج إليه ، وأنا والله لوعرض علي جميع ماله ماقبلت منه درهما واحدا ، وأيضاً فإن تقبيلنا رجل الأمير إنما هو أدب مع الله عز وجل الذى رفع قدره علينا فى هذه الدار ، وجعل أمثالنا تحت حكمه ، وربما كان فى الدار الآخرة أكبر منا أيضاً كما قال تعالى للآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا (١)

فاعلم ياأخى بهذا الخلق تنل بركته ، ولاتتسبب قط فى زيارة أحد من الأمراء لك بل إن كنت محتاجا إليه ، فإذهب له والا فما للأمير والفقير والحمد لله رب العالمين

---

(١) سورة الإسراء آية : ٢١

ومن أخلاقهم كثرة شكرهم لله تعالى إذا نزل بهم بلاء فى بدنهم أو مالهم

وكثرة توبتهم وأستغفارهم إذا نزل عليهم بلاء فى دينهم ولا يحتجون بالقضاء والقدر فيقولون : إن ذلك قدره الله علينا قبل أن نخلق فإن فى ذلك رائحة إقامة الحجة على الله تعالى ، ولايخفى مافيه من سوء الأدب إذ من شأن العبد إلقاؤه سلاحه ، وعدم تدبيره بين يدى مولاه ، وما كل شىء يعلم يقال بل فيه مايقال ، وفيه مالا يقال ومن تأمل بعين البصيرة وجد الحق تعالى يتعرف لعبده متعطفاً عليه بكل شىء وردمنه إليه ، فيعرفه مقدار الوصل تارة ومقدار الهجر تارة ويستغفر تارة ، وكذلك من تأمل أفعاله تعالى وجدها عين الحكمة ، وربما كان هو المبادر إليها أى إلى تلك الحكمة الا أن تكون معصية ، فإنه لايجوز المبادرة إليها والحمد لله رب العالمين

ومن أخلاقهم أنهم لايتداوون من مرض الا إن عجزوا عن تحمله

فإن اشتد عليهم الوجع بحيث يشغلهم ذلك عن كمال الإقبال فى الحضور مع الله تعالى وذلك لأخذهم بالعزائم دون الرخص والترفها

ومادام أحدهم يقدر على الحضور مع الله تعالى فى عبادته من غير التفات فلا يتداوون[1] وسيأتى فى الكتاب أنه لاينبغى الدعا للمريض، حتى يأخذ فى نقص المرض سواء كان كفارة أو عقوبه أو رفع درجه، وإن ذلك هو الأدب الا أن يسأل له الشفا من باب الفضل والمنة مع شهوده أن الله تعالى أرحم بعبده منه، وأنه تعالى عليم حكيم. فمثل هذا لابأس به والحمدلله رب العالمين

(١) بهامش الصحيفة فى موضع التداوى مانصه، كما أن سيدنا أيوب على نبينا وعليه الصلاة والسلام لما كان الصبر على البلاء حجابا له يشغله عن كمال الحضور مع الله قال: رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين، فافهم.

ومن أخلاقهم : كراهتهم لخطاب الله تعالى إذا كان على بدنهم نجاسة أو وقع من بعض أعضائهم معصيه ، ولم يتوبوا منها أوتابوا أو لم يظنوا قبولها ، وذلك كله أدبا مع الله تعالى ، وكلما استحضر أحدهم أنه بين يدى الله تعالى تعاطى أسباب الغفلة بتحديثه أحدا بأمور الدنيا أو نحو ذلك ، فلا يزال كذلك ، حتى يزول ذلك القذر الخفى ، أو المعنوى من شهوده

وكان سيدى ابراهيم المتبولى رضى الله تعالى عنه يقول :

من أدب العبد أن لا يخاطب ربه الا على أكمل حال طهارة الظاهر والباطن ، وكذلك فرش الأكابر السجادات فى مصلاهم تعظيما لحضرة الله تعالى ووضعوا عليها الطيب ، ونحوه ، وغالب الناس عن ذلك بمعزل ، وربما نسبوا فاعل ذلك إلى التكبر ، ونسوا حديث « إن الله تعالى فى قبلة أحدكم » فإنه أشار إلى أن العبد لنقصه وعجزه عن الإحاطة يجعل الحق تعالى متخيلا فى موضع السجادة دون غيره من الجهات ، وإن كان الحق تعالى لاتحويه الجهات فافهم

وقد وقع للشيخ أبى العباس السيارى رحمه الله تعالى أنه كان يذكر الله تعالى كل ليلة على سور بلد من العشاء إلى الصباح ، فترك الذكر ليلة فقالوا له فى ذلك

فقال . تذكرت كلمة قبيحة قلتها فى صغرى فلم أتجرأ أذكر الله تعالى بلسان تكلمت به تلك الكلمة انتهى فتذكر ذلك الخلق وأعمل عليه والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم : خضوعهم لله تعالى بقلوبهم إذا تناولوا شيئاً من شهوات النفوس من أكل وشرب وجماع ولبس ثوب نظيف ونحو ذلك عملا بحديث « إنما الأعمال بالنيات » فلذلك كانوا لايفعلون شيئاً من المباحات إلّا بنية صالحة

فينوى أحدهم بأكل تلك الشهوة المباحة التقوّى على العبادة مثلا ، أو مداواة النفس ، حتى تطيع صاحبها فى بعض الأوقات ، فإنها تقول لصاحبها : كن معى فى بعض أغراضى والاصرعتك

وهذا خلق غريب فى هذا الزمان فقل من يستحضر أنه بين يدى الله تعالى وقت أكل الحلوى والفاكهة والجماع أو أن ذلك من جملة نعمة الله تعالى عليه ، وأنه ناظر إليه حال الأكل ، أو الجماع إنما الغالب على الناس الغفلة عن الله تعالى فى مثل ذلك والحمدلله رب العالمين

---

(١) وتمام الحديث : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل إمرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه) متفق عليه .

ومن أخلاقهم : مراعاتهم اليتيم بالإحسان إليه والإكرام له أكثر مما كانوا يكرمونه أيام حياة والده

وذلك ليميزوا من كان صار فى كفالة الحق جل وعلا .

وكذلك توعد الله تعالى بالنار من يأكل مال اليتيم ، وأنه إنما يأكل فى بطنه نارا زجرا للناس ، وتنفيرا لهم عن أن يأكلوا أموال اليتامى ظلماً لكونهم فى كفالة الله عز وجل ، وليس لهم أب ولا أخ يراعونهم لأجله .

فعلم أن من لم يزد اليتيم إكراماً وإحساناً ، فما قام بواجب حق الله تعالى لكونه ساوى بينه تعالى ، وبين خلقه فى المراعاة ، ولم يزد فى إكرام من هو فى كفالة الحق تعالى .

وكذلك من أخلاقهم :

أن يزيدوا فى غض البصر من النظر إلى المرأة التى غاب عنها زوجها أكثر من غضهم عنها إذا كان زوجها حاضرا .

وذلك لأن الله تعالى خليفة للمسافر على أهله كما ورد فى الحديث من قوله ﷺ : « اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل »

ونظير ذلك النظر إلى الشريفة أو ابنة ولى من الأولياء ، فينبغى زيادة الغض فى النظر إليها لحاجة زيادة عن الغض عن غيرها أدبا مع سيدنا رسول الله ﷺ ، وأدبا مع ذلك الولى .

ومن ساوى فى الغض بين المذكورات وغيرهن ، فقد أساء الأدب مع الله تعالى ، ومع رسول الله ﷺ وأوليائه ، فإذا كان هذا فى عدم زيادة الغض عن جارية الإنسان إذا زوجها مع أنها معه كالمحارم فى النظر ، فكيف بمن ينظر عمداً أو يسارق النظر إلى زوجة جاره الغائب كالمتلصص نسأل الله العافية والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : نفرتهم من كثرة اعتقاد الناس فيهم إلا لغرض شرعى

لا سيما الأمراء والأكابر ، وإن وقع أن أحداً مدحهم عند ذلك الأمير ، ورفعهم فوق أقرانهم تكدروا لذلك ، ثم توجهوا إلى الله تعالى فى أن يحول اعتقاد ذلك الأمير فيهم ، ويرسل لهم عدوا من أعدائهم ينقصهم عنده ، ويسىء اعتقاده فيهم طلبا لراحة نفوسهم فإن كل فقير اعتقد فيه أمير لا بد أن يتبعه الناس فى الشفاعة عنده ، وأنه لا يسع الفقير من الله تعالى إلا أن يشفع ، ولا يمكن الأمير أن يجيب الفقير فى كل ما يشفع فيه كما تقدم بسطه .

ومن تأمل من الشافعين الآن فى نفسه وجد ضرره لذلك الأمير الذى يشفع عنده أكثر من نفعه لأنه يقيم عليه بشفاعته الحجة عند الله تعالى يوم القيامة فى كل شفاعة ردها فيهلكه ، وهو يحسب أنه ينفعه .

وقد قالوا من أدب الشفاعة أن يكون المحل قابلا لها ، وإلا صبر الشافع حتى يزول الغضب من الأمير مثلا ثم يشفع ، فيقبل إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا جلسوا للوعظ أن يأخذوا جميع معانى ما يعظون به الناس أولا فى حق نفوسهم ليتعظوا ثم بعد ذلك يعظون غيرهم

عملا بحديث : « الأقربون أولى بالمعروف » ولا أقرب للإنسان من نفسه ثم بعد ذلك أهليهم وجيرانهم الأقرب منهم فالأقرب .

لذلك كان الواعظون الصادقون بخجل يحصل لهم غاية الخجل من الله تعالى ثم من الأولياء ، الذين يطلعون على ما فى بطونهم من الحاضرين .

فقل مجلس يكون فيه خير إلا ويحضره أحد من أولياء الله تعالى من الإنس ، أو الجن ليحفظوا الواعظ ، وأهل مجلسه من الآفات ، ويسمون أولياء الرحمة ، وهذا الخلق قل من يتنبه له من مسلكي هذا الزمان ، وربما ينسى أحدهم نفسه حال الوعظ ، ويجعل الكلام لغيره جزما وما هكذا كان السلف الصالح رضى الله عنهم .

وقد كان الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه يعظ الناس ويقول لهم :

لولا حديث بلغنى أنه سيأتى على الناس زمان يكون واعظ القوم فيه أرذلهم ما وعظتكم .

وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول :

حكم من يعظ الناس ، وينسى نفسه حكم من وقف على شفا جرف هار أيام زيادة النيل وجعل ظهره للبحر ، ووجهه للناس ، وصار يقول للناس : إياكم أن ينهار بكم الجرف حتى وقع به هو الجرف ، فليتنبه الواعظ والخطيب عن مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن أحدهم لا يقول لمريده إذا قرب منك الشيطان فاصرخ عليه باسمي فإنه يهرب

إلا إذا علم أحدهم من الله تعالى أنه لم يجعل لإبليس على جماعته سبيلا تبعاً لشيخهم ، وأما إذا كان إبليس يلعب بالشيخ نفسه كالكرة في يد اللاعب ، فكيف يهرب ممن ذكر إسمه ووالله ما ظهرت الأشياخ المحققون حتى هددوا بالسلب إن لم يظهروا له وحتى لو انقلب لأحدهم النهر لبناه هناك يضرب الحق تعالى عليهم وعلى جماعتهم سرادقات الحفظ من سائر الشياطين والآفات .

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : آفة مسلكي هذا العصر أن أحدهم يقول لمريدك إذا قرب منك الشيطان فاصرخ عليه باسمي إلا أن ( )[1] بحكم الإرث للامام عمر رضي الله تعالى عنه فإن الشيطان كان يهرب من ظله رضي الله عنه انتهى .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول :

ليس السر الذي يطرد إبليس يكون من الشيخ ، وإنما السر في صحة ارتباط المريد بالشيخ واعتقاده فيه أن الله تعالى يطرد عنه إبليس ببركة شيخه ، وقد قال الله تعالى : « أنا عند ظن عبدي بي » انتهى .

وهو كلام نفيس ولكن من كمال الشيخ أن يكون على قدم الاستقامة ليس عنده ميل إلى معصية ، فإن الشيطان لا سبيل له على من لا يميل إلى المعاصي جملة من المعصومين والمحفوظين ، وأما غير المحفوظ ، فله عليه السبيل ، وإذا كان لإبليس على الشيخ سبيل قل النفع به ضرورة ، وذهبت خصوصيته التي صار بها شيخا .

وأما قول الأستاذ أبي القاسم الجنيد :

وكان أمر الله قدرا مقدورا لما قيل له أيزني العارف فهو في غاية التحقيق ، فإنه رضي الله تعالى عنه ترك باب عدم الحفظ الولي أدبا مع القدرة الإلهية مع أن ذلك نادر وقوعه جدا من أهل ولاية الاصطفا الذين منهم مشايخ القوم في كل عصر فافهم والحمد لله رب العالمين

---

(١) مطموس من الأصل .

ومن أخلاقهم : كثرة زجرهم لأصحابهم من الأمراء والمباشرين وغيرهم
إذا سمعوا أحدا منهم يجعلهم من الاولياء والصالحين

لأن ذلك من الغرور أو الجهل وإن كان ذلك مطلوبا من المريدين كما تقدم بسطه أوائل الـكتاب ، ومن أين يعرف أحد من الأمراء أو التجار أو المباشرين الولى والصالح ، وأحدهم لم يدخل دائرة الولاية قط ، ولا أشرف عليها .

وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول :

من أقر أحد من إخوانه على اعتقاد الولاية فيه جزما ومال إليه جره ذلك إلى المقت

وسمع مرة فقيها يدعوا عقب قراءة الختم يقوله :

اللهم ثواب ذلك فى صحائف شيخنا القطب الغوث سيدى أفضل الدين ، فصاح به صيحة كاد أن يشق قلبه.

وقال : لو لا أعرف أنك جاهل ما حصل لك منى خير ، فإن حكم أحدنا إذا نسب إلى الولاية حكم من يخرج فى بابه الخيال فى صفة قاضى أو أمير ، فيضحك الناس عليه ، ولو لا أن أولياء الله تعالى من أصحاب النوبه يجعلون هؤلاء المتمشيخين وأصحابهم كأهل بابه الخيال ، لأدبوهم ، ومقتوهم لأنهم لا يحملون إقامة ميزان الأدب عليهم أنتهى

فإياك يا أخى ثم إياك أن يبول الشيطان فى أذنك وتظن أنك صرت من أولياء الله تعالى ، فإن ذلك جهل وغرور فإن الجمهور كلهم أجمعوا على أنه لا يصح لو لى أن يعرف بولاية نفسه ، ولو علمها كان من الأدب أن لا يدعيها فى نفسه إلا أن يؤمر بذلك ، كسيدى عبد القادر الجيلى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم محبتهم لكل من أحب طائفة القوم وإن لم يلحق بهم

ويحبون جماعة أقرانهم ، ويودون لهم كل خير فى الوجود ، ويسألون الله تعالى لإخوانهم أن يرفع إسمهم ، ومقامهم فى الدنيا والآخرة على مقامهم وإسمهم ، وذلك من أكبر علامات صدقهم فى الطريق .

عكس ما عليه الكذابون الذين ظهروا فى هذا الزمان

فقل ما ترى أحدا من أصحاب شيخ يحب جماعة الشيخ الآخر بل ينظر أحدهم إلى أخيه شزرا كأنه فى دين غير دينه

وقد كان سيدى على المرصفى رحمه الله تعالى يقول :

من علامة انتفاع المريد بشيخه أن تذهب عنه رعونات نفسه ببركة صحبته ، ويصير هادى الطبقة كالملائكة ليس له لسان ، ولا يد ، ولا يقع فى نقيصة فى أحد بل يعتقد الكمال فى الناس كلهم وأما من خرج مقراضا من صحبة شيخ فى الناس من أهل الحرفة وغيرهم لا يعجبه أحد فذلك من علامة استحكام المقت فيه ولو كان شيخه حاضر التبرأ منه ومثل هذا لا ينتج على يد أحد ولو كان من أكمل الناس انتهى .

وقد ظفرت فى عمرى كله بثلاثة أنفس من أهل الصدق ، ممن لا يعتقد فى أحد من أقرانه سوءا وهم سيدنا ومولانا سليمان الخضيرى ، والشيخ شهاب الدين السبكى ، والشيخ إبراهيم الذاكر رضى الله عنهم ، فما سألتهم قط عن أحد من شرار الناس إلا قالوا : ونعم من فلان ، ثم يذكرون صفاته الحسنة عكس ما يذكره جميع الناس عن ذلك الشخص والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن يكتموا عن إخوانهم حوائجهم

حتى يخفون عنهم كون أحدهم يريد أن يشترى قمحا أو حطبا ، ونحو ذلك من سائر مايحتاجون إليه ، إذا علموا من أصحابهم أن أحدهم يبادر إلى شراء ذلك من مال نفسه ، أو يساعدهم فى ثمنه حملا للكلفة ، والمشقة عن أصحابهم ، وربمـــا تكلف أحدهم واشترى ذلك بدارهم فيها شبهة أو بغير نية صالحة ، فيؤذى الشيخ ، ويؤذى نفسه ، ويضيع ماله بغير طريق شرعى ، وفى الأثر : « أن الله تعالى لا يقبل من العبد إلا ما كان طيبا وابتغى به وجه الله تعالى » أنتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لا يفتح أحدهم على نفسه باب قبول
الرفق من الناس ثم يفرق ذلك على الناس ولا يأخذ منه شيئاً

فإن إبليس بالمرصاد لمثل ذلك ، فربما استدرجه إلى محبة نشر صيته بالزهد ، والورع ، والعفة ، فتميل نفسه إلى ذلك فيهلك ، ومحل ذلك أن يتكدر إذا بلغه عن أحد من أعدائه أنه يحمله على الرياء ، والنفاق ويقول : إنه لبق فى العبد ، وما كل أحد يعرف يصطاد الحرام والشبهات مثله ، فإن تكدره من مثل ذلك يدل على ريائه ، إذ الصادق هو من لا يبالى بذم الناس فيه .

فليمتحن من يدعى الصدق فى ذلك نفسه بهذه الميزان فإن رأى نفسه تتكدر من مثل ذلك فليستغفر الله تعالى وليتب من ذلك كما يتوب من الرياء بل أعظم .

وقد بسطنا الكلام على ذلك أواخر الباب الخامس عشر من كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لا يتعاطوا سبباً يميل إليهم أبناء الدنيا
إلا لغرض صحيح شرعى

لأن كل ما لا يبتغى به وجه الله تعالى ، فهو مضمحل .

فليحذر الفقير من أن يكثر من مجالسة أبناء الدنيا ، ويقرهم علي الكلام اللغو فإن ذلك ربما جرهم إلى الغيبة فى الناس ، وربما يقول لمن بعد له فى مثل ذلك إنما أسامحهم فى ذلك ليميلوا إلى ، حتى أسارقهم بالنصح والتربية ويستدل بأنه ﷺ كان يجالس أصحابه ، وكانوا إن تكلموا فى أمر الدنيا تكلم معهم ، وإن تكلموا فى أمر الآخرة تكلم معهم ، وكان لا يحزرهم إلا عن حرام لأننا نقول له : هات لنا جماعة مثل رسول الله ﷺ ومثل أصحابه ، وأين الشياطين من الملائكة ، وأين المعصوم أو المحفوظ مما يلعب به إبليس (١) .

وقد قال العلماء :

من شرط القياس أن يكون بين المقاس والمقاس عليه علة جامعة فافهم والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الإمام القشيرى : ومن شأن المريد : التباعد عن أبناء الدنيا ، فإن صحبتهم سم مجرب ! ! لأنهم ينتفعون به وهو ينتقص بهم ، قال الله تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » .

وأن الزهاد يخرجون المال عن الكيس تقربا إلى الله تعالى وأهل الصفاء يخرجون الخلق والمعارف من القلب تحققا بالله تعالى .

ومن أخلاقهم : إذا توسط أحد لهم فى شىء للفقراء من قمح أو عسل
أو رزقه أو جوالى أو غير ذلك أن يشركوه معهم فى ذلك
بشرط الحل فيه فإن ذلك من الإنصاف

وهذا الخلق قد يخل به كثير من الطاعين المتشبهين بالفقراء ، فينصب لهم شخص عند الأمراء وغيرهم ، ويوصل إليهم ذلك بتمامه ، وكماله ، ثم يحرمونه منه ، ولا يعطونه شيئاً لأولاده ، فيملأ الدنيا عليهم ، ويمزق أعراضهم .

وقد رأيت بعض الفقراء الملاح إذا أتاه شخص بشىء من نحو ذلك يقول له :

يا أخى هذا من كسبك وتعبك ، وأنا لم أتعب فيه ، فخذه ، ثم بعد ذلك إن سمحت نفسه وأعطاه شيئاً منه قبله ، وإلا أعرض عنه .

فكن يا أخى من أهل الإنصاف والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم فى حال كما لهم طلب جوائجهم من الله تعالى فى الدارين من باب الفضل والمنة

لا فى مقابلة (   )[1] خلقـكم وما تعملون ، فالفضـل للخالق الذى هدى إليه الخلق محلا لتصريفه فيهم بما أخبر عن نفسه بأنه يحبه منهم من التوبة والطهارة مثلا فى نحو قوله تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين[2] »

ومحك الصدق فى التخلق بهذا الخلق أن لا يحس بتقربيه بالطاعات زيادة على حاله عند فقدها بل يتساوى عنده الحالان ، ومتى وجـد أنسا وتقريبا فى الطاعات أو فقد ذلك بفقدها فهو لم يشم من مقام الـكمال ذرة .

ومن كلام ابن عطاء الله :

من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل انتهى .

فإذا بلغ العبد مقام الـكمال رجح الطاعات على المعاصى بترجيح الحق جـل وعلا لا بنفسه ، وإن كان الـكل خلقه تعالى فافهم.

وقد قدمنا أن من أخـلاق الفقراء أن يفتحوا العمل الصالح كله على اسم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث أن الثواب له بالإصالة ، فلا يرون العمل وثوابه لهم أصالة ، ثم يهدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يقع فيه كثير من الناس لأن ذلك يطرق صاحبه للمنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يخفى ما فى ذلك من سوء الأدب ، فعلى كل حال ليس للعبد أن يشهد له استحقاقاً لذلك الثواب بالعمل الواقع على يديه ، لأنه لا يخلو أن يشهد كونه خلقاً لله تعالى ، ولا ثواب له ، وبالأصالة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ثواب له أو كونه عبد الله فالعبد لا يستحق على سيده

---

(١) مطموس من الأصل .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٢٢

شيئاً وما بقى إلا أن يطلب ذلك الثواب من باب المنة والفضل لمرانه السابق آنفا لظهاراً للفقراء والفاقه .

ومن قال لا حاجه لى بثواب فهو كاذب مع اظهاره الغنى بذلك عن فضل الله تعالى ، ولا يخفى ما فى ذلك من سوء الأدب وقد قال تعالى : ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد[1] فافهم والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة فاطر آية : ١٥

ومن أخلاقهم محبة كل من زاد عليهم فى الطاعات من إخوانهم أ كثر من محبتهم لنفوسهم تبعا لله عز وجل

فإنه يفضل من بينهم من كان أ كثرهم طاعة له ، فكل من أحب نفسه أ كثر مع كونها أقل طاعة فقد خالف طريق القوم .

وهذا الخلق لا يصح التخلق به إلا لمن زال عنه حب الرياسة ، وإلا فمن لازمه غالباً التكدر ، ممن يزيد عليه فى الطاعات فضلا عن محبته له لكونه يطفئ نوره بين الناس ، ولا يصير له كبير طاعة يتميز بها .

فعلم مما قررناه أن من علم من نفسه يقينا أن طاعاته لله تعالى أ كثر من أخيه ، فلا حرج عليه فى محبته نفسه من حيث كونها أ كثر عبادة لربها من التجريد فى المعانى والبيان فشاباش[1] للفقراء الصادقين الذين يريدون وجه الله تعالى ويدورون مع كل شىء يحبه الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) نوع من التحية للفقراء الصادقين .

ومن أخلاقهم الفرح بالفتح على مريدهم إذا فارقهم بغير فتح عقب غضبهم عليه مثلا

ثم فتح عليه على يد أحد من أقرانهم ، يفرحون بالفتح لذلك للمريد على يد غيرهم أكثر من فرحهم به إذا أوقع الفتح على يدهم ، لأنه إذا وقع على يدهم لابد فى الغالب من شهود الفقير نسبة الفتح إليه ، ولو لحظة وإن ذلك إنما لحسن تربيته ، ومعرفته بطريق السلوك ، وفى ذلك رائحة من الشرك الخفى بالله عز وجل .

بخلاف ما إذا وقع الفتح على يد غيرهم لا يكاد أحد منهم ينسب إلى نفسه شيئاً من ذلك .

فليمتحن من يريد معرفة كونه صادقا نفسه بذلك ، فإن رآها تنشرح بحصول الفتح على يديها فليحكم على نفسه بالرياء،فإنه الصادق ليس مقصوده إلا حصول الهداية للخلق بأى وجه كان .

وهذاالخلق عزيز وجوده فى هذا الزمان اللهم إلا أن ينشرح بحصوله بفضل الله تعالى ، ورحمته عليه حيث جعله أهلا يفتح على يديه لأحد ، فهذا لاحرج عليه ولا يقدح فى إخلاصه إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن ينشرح صدر أحدهم إذا بلغه أن الناس يقولون عنه أنه
لم يرث من مقام شيخه إلا الدعاوى فقط وإن فلانا هو الذى
ورث حال الشيخ وسره

ومتى انقبض خاطر أحدهم ممن يفضل على أقرانه الذين أخذوا عن شيخه عليه ، فهو دليل على الرياء والنفاق .

فإن الصادق من شأنه أن يحب نسبته إلى الرياء ونسبة أقرانه إلى الإخلاص لأنه لا يرامى ، ولا يراقب إلا الله تعالى دون الخلق ، فكلما نسبوه إلى الرياء انشرح ، وكلما نسبوه إلى الإخلاص انقبض كل ذلك خوفاً على نفسه أن تميل إلى مراعاة الناس مع الله تعالى ، فيشرك به .

فليمتحن الصادق نفسه بما إذا سمع الناس يقولون عنه ، وعن جماعته أنهم شياطين أبالسة نصابون ، وأنه ما ورث شيخهم فى المقام إلا فلانا وجماعته .

فإن انشرح لذلك فهو صادق ، وإن انقبض ، فهو مدع كذاب .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

من علامة اخلاص الفقير إذا مات شيخه وبرز شخص من أقرانه بعده أن يتلمذ هو له ، وجماعته ويقول :

الحمد لله الذى كفانا هذا الأمر وحال بيننا وبين آفات التصدر والمشيخة بوجود أخينا فلان [1] انتهى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الإمام القشيرى :

ومن آفات المريد : ما يتداخل النفس من خفى الحسد للإخوان ، والتأثر بما يفرد الله عز وجل به أشكاله من هذه الطريقة ، وحرمانه إياه ذلك وليعلم أن الأمور قسم ، وإنما يتخلص العبد عن هذا بالاكتفائه بوجود الحق وتقدمه عن مقتضى جوده ونعمه .

. . . .

فكل ما رأيت أيها المريد قدم الحق سبحانه ، رتبته فاحمل أنت غاشيته ؛ فإن الظرفاء من القاصدين على ذلك استمرت سنتهم :

واعلم أن من حق المريد إذا اتفق وقوعه فى جميع إيثار الكل بالكل ، فيقدم الجائع والشبعان على نفسه ويتلمذ لكل من أظهر عليه التشبيخ ، وإن كان هو أعلم منه ، ولا يصل إلى ذلك إلا بتبريه عن حوله وقوته ، وتوصله إلى ذلك بطول الحق ومنته .

ومن أخلاقهم : عدم مبادرتهم للخروج مع الناس فى الاستسقا

فلا يخرج أحدهم حتى يفتش نفسه ، ويتوب ، ويندم على كل ذنب فعله طول عمره ، ثم يخرج ، وهو خجل من الله تعالى مستشعر أن سبب القحط والغلاء الواقع بالناس ، إنما هو ذنوبه فقط كما درج عليه السلف الصالح ، كمالك بن دينار ، والفضيل بن عياض ، وسفيان الثورى ، واضرابهم .

وقد تقدم أنهم طلبوا مالك بن دينار مرة ليخرج معهم للاستسقاء ، فأبى .

وقال : أخاف أن تمطر السماء نارا أو حجارة علي الناس بسبب خروجى معهم ، وأخرجوه مرة كرها ، فصاروا يستسقون ، فلا يسقون .

فقال : أنتم تستبطون المطر ، وأنا استبطى الحجر .

وكان سيفان النورى إذا أمطرت عليه سحابه ، وهو على الحديث يسكت .

ويقول : اصبروا حتى تمر هذه السحابه فإنى أخاف أن يكون فيها حجاره يرينا بها .

فإياك يا أخى أن تخرج إلى الاستسقاء فيمطر الناس ، فتظن أن ذلك ببركة دعائك ، فإن ذلك غرور ، فإن الدعاء لا يقبل إلا ممن كان الله تعالى عنه راض كما قال تعالى « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى[1] » .

وكل من عصى ربه تعالى استحق رد دعائه إلى أن يتوب ويقبل الله توبته ، ومن اين يعلم أن الله تعالى قبل توبته ؟ .

وقد تقدم بسط ذلك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٨

ومن أخلاقهم إجابتهم إلى الوليمة التى فيها أحد من أقرانهم وفرحهم
أكثر من انعدام دعوتهم بالحضور

لأن الصادقين يعدون الاجتماع بإخوانهم يوم عيد، ثم إذا دخل أحدهم، ورأى أحدا من أقرانه قد سبقه لا يجلس، حتى يقبل رجله أو ركبته، ويظهر الذل والمسكنة بين يديه، حتى يفهم الحاضرين أنه لا يصلح تلميذاً له، ثم يجلس بين يديه لا بجنبه، حتى يعزم هو عليه بذلك، ويجعل الحضرة كلها له.

وهذا الخلق لا يفعله إلا من تصفى من الرعونات كلها.

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى إذا دعى إلى وليمة، وقد حضر فيها أحد من مشايخ العصر لا يدخل، حتى يستأذن ذلك الشيخ، وتارة يؤثره على نفسه بالمشيخة فى تلك الوليمة، ثم يستأذن صاحب الوليمة، ويرجع منشرحا سائلا ربه عز وجل أن يستر ذلك الشيخ فى ذلك المحفل، وربما يظن بعض الناس أن بين الشيخين وقفة، حين رأوه رجع، وليس كذلك.

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: كل فقير لا يصلح أن يخرج مع الناس فى الاستسقاء تنكسر نفسه أن يتلمذ لأحد من أقرانه، فهو متكبر لا يصلح أن يخرج مع الناس فى الاستسقاء، ولا أن يعتقد فيه الصلاح، لأنهم ربما منعوا المطر بسببه، فليتب هذا الشيخ، ثم يخرج، وليحذر من ظنه أن الناس يسقون بدعائه فإن ذلك الفقير إذا مر بمكان مر قريبا.

وسمعته مرة يقول: من علامة المدعى بغير حق للطريق أن يرى نفسه هو الشيخ الحقيقى فى البلد مثلا، وغيره هو المدعى لها بغير حق انتهى.

وقد رأيت شيخا دعى إلى وليمة.

فقال لهم: من هناك من المشايخ.

فقالوا له: فلان.

فرجع وقال : مثلى لا تطلع له طالعة .

فقلت له : فلأى شىء تطلب أن تطلع لك طالعة لم لا جعلت نفسك من أتباعه . ؟

فقال : المؤمن لا ينبغى له أن يذل نفسه .

فقلت له : ليس فى مثل ذلك ذل إنما هو تواضع ، فلم يصغ إلى قولى ، ورجع ، فمثل هذا خارج عن الطريق من كل طريق ، فالله يغفر لنا وله والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم إظهارهم الوقفة بينهم للناس

ستراً للخرقة فإن إظهار ذلك فى غاية القبح لا سيما إذا دخل شيخ إلى وليمة ، فخرج الشيخ الذى كان دخل قبل ، فإن الناس يلوثون بهما ، ويقعون فى غيبتهما ، ويحصل لصاحب الوليمة غاية التشويش ، فعلى كل من الشيخين اللوم فى عدم رياضة نفسه إذ لو راض أحدهما نفسه لوسع الآخر ، فكان الذى سبق لا يخرج ، والذى دخل لم يدخل حتى صالح الآخر ، ثم دخل فدخوله عليه بلا تقدم مصالحة قلة سياسة .

وقد كان بين حسن بن صرحان والشريف بن هاشم وقفة فأنشد حسن :

أنا ونسيبي الشريف بن هاشم   محبين جهراً مبغضين السرايرة

فانظر يا أخى إلى أخلاق العرب كيف يظهر كل واحد منهما المحبة لأخيه بين الناس ، حتى لا يشمت به عدوه ، مع أنهم معدودون من جملة الجهلة ، فأهل العلم والصلاح بهذا الخلق أولى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن يحثوا أصحابهم على تنبيههم لهم كلما وقعوا فى شيء من الأحوال الناقصة ليتوبوا منه كما عليه السلف الصالح
من الصحابة والتابعين والعلماء

فعلم أن كل من قال لأصحابه احملونى على المحامل الحسنة فقد أغلق على نفسه باب النصح من إخوانه ، وذلك خلاف ما كان عليه السلف الصالح .

وقد كان الإمام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يذهب إلى دار حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه ، ويقول له :

يا حذيفة أنظر هل فى شيء من النفاق ، فإنك كنت تعرف المنافقين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فيقول له حذيفة : والله يا أمير المؤمنين لا أعلم فيك شيئا من النفاق .

فيقول الحمد لله ، ثم يرجع .

وقال يوما لأصحابه : ماذا تفعلون بى إذا اعوججت عن الطريق ؟

فقالوا : كنا نضرب هامتك بالسيف إن لم تستقم (١) .

---

(١) قال تعالى : (إنما المؤمنون إخوة)

وقال تعالى إخبارا عن نوح عليه السلام (وأنصح لكم) وعن هود عليه السلام (وأنا لكم ناصح أمين) وفى الحديث : عن أبى رقية تميم بن أوس الدارى رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الدين النصيحة .

قلنا : لمن ؟

قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) رواه مسلم وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : (بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم) متفق عليه .

وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) متفق عليه .

فقال : هكذا كونوا مع أصحابكم .

وتقدم عن سفيان الثورى أنه كان يقول لأصحابه : لاتقتدوا بى فى جميع أحوالى فإنى رجل مخلط فى دينى .

وأما ما نقل عن بعض أهل الطريق ، من أنهم حثوا أصحابهم على الاعتقاد فيهم ، وعلى حملهم على المحامل الحسنة ، فذلك ليخلصوا أصحابهم من سوء الظن بهم ، فلا يحصل لهم بعد ذلك نفع على يدهم ، أو ذلك فى حق من كان محفوظاً من الرذائل ، كالشيخ عبد القادر الجيلى وسيدى أحمد بن الرفاعى وأضرابهما ، فمن وصل إلى مقام هذين الشيخين ، فله أن يقول مثل ذلك لأصحابه .

وقد أخبرنى من أثق به أنه شهد شخصا من المدعين أنه يقبل المرأة الأجنبية ، ويقول لأصحابه : إياكم أن تنكروا علي ، فإن لى حالا مع الله تعالى خلاف ما ترون انتهى .

ومثل هذا من جملة حزب إبليس الداعين إلى الضلال ، ويجب على كل من بلغه خبره أن ينفر الناس عنه بقدر طاقته والحمد لله رب العالمين .

وعن أبى الوليد عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا وعلى أن لا تنازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله تعالى فيه برهان وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم) متفق عليه .

ومن أخلاقهم عدم اغترار أحدهم بكثرة أتباعه

بل يحزنون إذا كثر أتباعهم ، لإيمانهم بأنهم يسئلون عن حقوقهم يوم القيامة هل وفوا بها أم لا ؟ .

فمن شأنهم أن ينظروا للذى عليهم أولا دون الذى لهم أولا إلا على وجه الشكر لله تعالى فى تكبيره لأحدهم بين العباد من حيث جعله رأسا وله أتباع .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

من علامة المغترين أن يفرح أحدهم بجماعته إذا كثروا ، وينقبض خاطره إذا قلوا الالغرض شرعى .

وسمعته يقول أيضا : لو أن الشيخ بالغ فى نصح الفقراء الذين حوله لنفروا بأجمعهم عنه ولكنه غشهم ، فكثروا حوله ، وقد وقع لبعض أخواننا أنه نزل الريف يطوف البلاد على اسم أنه يرشد الناس للطريق ، فصار الناس يطبخون له الطعام الواسع ، ويتكلفون له فى بلاد الغربية ، فدعاه جماعة من بلاد الشرقيه أيام الشعير ، فصاروا يحمصون للشيخ الشعير ، والفريك فى الفرن ، ويطبخون له الفول الأخضر بالرب ،

فتفرق عنه أصحابه ، وكانوا نحو ثلاثمائه فبقى معه واحد اسمه أويس ، فغافله وهرب الآخر هكذا حكى لى هو ، فعلم أن جميع من كان حوله فى بلاد الغربيه إنما كان حوله لأجل بطونهم لاغير ، وإن دعواهم أنهم من المحبين للشيخ كذب محض .

وقد أجمع الأشياخ على أنه ماثم حالة للعبد اعلا من اشتغاله بالله وحده ، وإن اشتغال العبد بإرشاد الخلق ، وإن كان فيه خير ، ففيه رائحة اشتغال بالكون عن الله تعالى فثم مقام كامل ومقام اكمل ، ومن فهم معنى سورة : « إذا جاء نصر الله والفتح » علم ماقلناه يقينا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة البكاء والنوح على عدم البكاء عند تلاوة القرآن الكريم لاسيما فى الأسحار ، فإن ترك البكاء من قساوة القلب ، وذلك من أكبر علامات الشقاء .

وقد قل التخلق بهذا الخلق ، حتى لاصرت لاترى باكيا من الفقراء الاقليلا .

وقد بكى جماعة من الفقراء فى مجمع ، وهناك فقير لم يبك .

فقالوا له : لم لاتبكى مثل اخوانك .

فقال : هؤلاء أقوام ضعفاء الحال ، ونحن بحمد الله قوينا على تحمل مثل ذلك ، فينبغى التسليم لمثل هذا ، وهو أولى من تكذيبه بين الناس .

وقد كان فى وجه الإمام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه خطان أسودان ، وكذلك عثمان وعبد الله ابن عباس رضى الله تعالى عنهم .

وكان الرسول ﷺ إذا صلى فى الليل يسمع لصدره أزيز كأزيز القدر المغلى فيه الماء ، أو الرحى من شدة كتمه البكاء (١) .

وبكى السيد داود عليه الصلاة والسلام من خشية الله تعالى ، حتى نبت العشب من دموعه .

---

(١) عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ (إقرأ على القرآن) .
فقلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أنزل .
قال : إنى أحب أن أسمعه من غيرى .
فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) .
قال : حسبك الآن .
فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان) متفق عليه .

وكان الإمام عمر بن عبد العزيز إذا بكى ينثر دموعه حوله حتى يظن الداخل أن ذلك من ماء الوضوء ، وبكى مرة فوق سطح ، فجرى الماء من دموعه ، حتى نزل من الميزاب على وجه ضيف كان نائماً تحت الغرفه .

وقد بسطنا القول فى البكائين خوفا من الله تعالى فى كتاب هدى السلف الصالح فراجعه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إخراجهم للضيف مايجدونه ولو كسرة يابسة من جريش الشعير ولا يستحيون من اخراجها ، ولو لأكابر الأمراء .

وإذا كان الضيف ممن يعتقد الصالحين ، فإنه يجد فى تلك الكسرة لذة عظيمة لايعادلها لذة .

وقد أخبرنى الشيخ سليمان الخضيرى : أن جماعة من أكابر الدولة دخلوا على شيخه سيدى أحمد المرحومى بزاوية ، فأخرج لهم كسرا يابسة وقدّمها لهم فى طعام بايت ، فأبت نفوسهم أن يأكلوا من ذلك ، فلحقهم القولنج فى الطريق فنزلوا من على دوابهم ، واضطجعوا من شدة الوجع ، فأرسلوا قاصدهم للشيخ ، فأرسل لهم الطعام البايت ، وقال : كلوا منه تشفوا ، فأكلوا منه فشفوا لوقتهم ، فتابوا ، واستغفروا ، ومن ذلك اليوم ماقدم لهم فقير شيئا حلالا إلا وأكلوا منه فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة حثهم للفقراء المقيمين فى زاويتهم على
كثرة الذكر لله تعالى وتلاوة القرآن العظيم وقراءة
الحديث والفقه من حيث كونهم رعيتهم

ولا يمكنونهم من القراءة على غيرهم إلا لضرورة ، ويرسلونهم أن يكون من أهل العمل بما يعلم دون المجادلين بغير عمل فإن القراءة على مثل هؤلاء يزيدهم جدالا وعدم احتفال بالعمل بما يعلمون إذ الولد سر أبيه .

وكان الشيخ أبو العباس الغمرى يرسل جماعته للشيخ أحمد بن الأقطع البرلسى رضى الله عنهما يقرءون عليه ، لكونه كان رجلا صالحا يأكل من عمل يده من الحياكة ، وكانوا يقرؤن عليه فى فقه الأربع مذاهب ، وهو فى النول ينسج القطن ، والصوف ، وتارة يرسل وراءه إلى المحلة الكبرى ، فيقيم عنده الأشهر ، والناس يقرءون عليه ، وإنما كان سيدى أبو العباس لايقرىء جماعته لاشتغاله بمهمات الناس من المكروبين .

وأيضا فإن الشيخ إذا اشتهر صار أسيرا لأرباب الأحوال والحوائج ، والشفاعات ، فلا يصير له وقت فراغ لإقراء علم ، وإلا فقد قدمنا أول الكتاب أن من شرط الشيخ أن يكون عالما بالكتاب والسنه بحيث يكفى أصحابه فى العلوم الشرعية ، وإن من لم يكن عالما بهما فليس بشيخ ، ومالنا معه كلام والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم حثهم لأصحابهم على كثرة تلاوة القرآن الكريم احتسابا لله عز وجل

ولا يأخذون عليه عرضا من الدنيا إلا لحاجة شرعية خوفاً من نقص أجورهم ، فإن من قواعد طريقتهم أن يقصدوا بكل عبادة التقرب إلى الله تعالى دون الاغراض الدنيوية ومن يقرأ القرآن الكريم بالفلوس ربما نقص أجره .

وقد كثرت قراءة القرآن الكريم بعوض فى هذا الزمان ، حتى من شيخ الحضور فى الزاوية ، وذلك ينافى شهامة أهل الطريق ، وهو خلاف مادرج عليه مشايخ الطريق ، مشايخ
والذين أدركناهم فى النصف الأول من القرن العاشر فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم اعتمادهم على معلوم من رزقة أو جوالى أو هدية
من حلال أو نحو ذلك بل هم معتمدون على الله
تعالى دون الأسباب

وقالوا : إذا أقبل العبد على عبادة ربه خالصاً سخرت له الدنيا وأهلها وأخذ منها كفايته وإن شاء ردها وطوى الأيام المتوالية خوف الفتنة فإن الفقراء إنما يتركون الدنيا فى بدايتهم إختياراً لا اضطراراً وذلك لأن من تركها اضطراراً لا يسمى زاهداً فيها والزهد فيها أعظم أركان الطريق إذ لا يصح لعبد الكمال فى شىء من عمل الآخرة إلا بعد الزهد فيها وفى جاهها ، ورياستها .

فاعلم ذلك ياأخى واسلك طريق المتوكلين الذين لاتهمة عندهم لربهم فى رزقهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة حيائهم وخجلهم من سيدنا ومولانا رسول الله
صلى الله عليه وسلم إذا كان لهم ورد فى الصلاة عليه
فى وقت مخصوص وحصل لهم تعويق
عن فعله فى ذلك الوقت

من حيث أنه صلى الله عليه سلم ربما يصير منتظراً لذلك العمل بتقدير التفاته إليه وكثيراً ما يقع لى مثل ذلك ، فأصلي عليه أضعاف ما كنت أصلى عليه فى ذلك الوقت ، ولا أرى أنى وفيت بحقه صلى الله عليه وسلم من حيث استشعارى انتظاره صلى الله عليه وسلم لصلاتى عليه .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يكره توقيت الأذكار التى لم يعين الشارع لها وقتاً ، ويقول :

من الأدب : أن العبد يذكر الله تعالى كلما وجد عنده داعية ، وإلا فربما صار يذكر بحكم العادة من غير حضور فلا يحصل له به مقصود الذكر فاعلم ذلك يا أخى واعمل به والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لزوجاتهم وعدم الغفلة عن تعليمهن
أحكام دينهن من طهارة وصلاة وصوم

وقد قالوا يعرف قدر نفع الفقير لإخوانه من رؤية نفعه لزوجته ، وجيرانه الأقربين به بشرط نصحهم[1] قال الله تعالى : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين[2] » . فمن لم تنفعه الذكرى ، فإيمانه ضعيف ، وليس على المذكر إثم بعد أن ذكر من كان غافلا .

فذكر يا أخى زوجتك واذكر لها عقوبة ترك الصلاة إن لم تقبل ، وعقوبة جوارحها إن لم تكفها عن محارم الله تعالى .

وهذا الباب قد أغفله غالب الفقراء ، وطلبة العلم فتجد أحدهم يعانق زوجته ليلا ونهارا ، وهى جنب لا تغتسل ولا يخفى ما فى ذلك من ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والمنع من دخول الملائكة بيته ، واستحقاق العقوبات فى الآخرة والحمد لله رب العالمين .

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ : قال : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته والأمير راع والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية على بيت زوجها وولده فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) .

(٢) سورة الذاريات آية ٥٥

ومن أخلاقهم كثرة شكرهم لله تعالى إذا جعلهم خداماً للفقراء القاطنين عندهم

ولا يخطر ببالهم قط منة عليهم بل يرون المنة للفقراء عليهم الذين أهلوهم لخدمتهم من طبخ ، وغربلة قمح وطحين وخبز وعجن وغير ذلك .

وقد من الله تعالى على بهذا الخلق من نحو سبعة وثلاثين سنة إلى وقتى هذا ، فلا أرى لى بحمد الله تعالى فضلا على أحد منهم بل أرى استعماله تعالى لى فى ذلك غاية الفضل لأنه عنوان على محبة الله عز وجل كما أشار إليه خبر (الخلق عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله) فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم تخصيص أحدهم نفسه بغير طريق شرعي بشيء من الهدايا التي تأتي إلى الزاوية لا سراً ولا جهرا

وبذلك تدوم محبة الفقراء للإقامة عندهم ، فإنهم إذا رأوهم يتخصصون عنهم نفرت نفوسهم منهم ، ومن الإقامة عندهم ، وقل اعتقادهم فيهم ضرورة .

وقد تناظر كلب السوق ، وكلب الصيد .

فقال له كلب السوق : أنت كلب وأنا كلب فلأي شيء يطردوني إذا رأوني ، وأنت يجالسونك في مجالسهم ، وعلى فرشهم ، فما الفرق بيني وبينك .

قال : الفرق ظاهر فإني أصطاد لهم ، وأنت تصطاد لنفسك انتهى .

فالعاقل من اعتبر والحمد لله رب العالمين

ومن أخلاقهم : مساعدة الخادم والنقيب فى تنقية الطحين وعجنه وتقريصه ورصه وخبزه إذا رأوهم محتاجين إلى مثل ذلك

وكان على هذا القدم سيدى إبراهيم المتبولى وسيدى عثمان الحطاب وسيدى أبو الحسن الغمرى . وقد رأيته وأنا مجاور عنده يقرص العجين ويوقد تحت الفرن ويغسل الأوانى ويكنس البيت ويقطع اللحم بالسكين ويقول :

هكذا رأيت والدى رحمه الله يفعل وكذلك (   )[1] وسيدى أحمد الزاهد رضى الله عنهم أجمعين .

وفى ذلك فوائد منها :

مشاركة الخادم فى الأجر كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل .

ومنها رفع كلفتهم خدمتهم له .

ومنها تنشيط قلوب الفقراء للخدمة إذا رأوا الشيخ يخدم .

فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

---

(١) مطموس من الأصل .

ومن أخلاقهم محبتهم لمجاورة العميان والأيتام والعرجان والأرامل وكل عاجز عندهم

لأن أحدهم إن كان صادقا فى الطريق ، فهو يرى نفسه فى المقام تحتهم[1] لكون الحق تعالى عندهم كما قال الله تعالى : « أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » .

وإن كان غير صادق فى الطريق ، وإنما هو من النصابين كان هؤلاء العاجزون أعون له على النصب ، لأنهم له كالشبكة للصياد يصطاد بهم الدنيا من الصدقات ، والهدايا ، ويصير الناس يقولون : فلان له عائلة كثيرة ، ولا لهم شىء يقوم بهم ، وما فى زوايا البلد فقراء أكثر من فقراء زاوية فلان ، ومن هنـا كره بعض العارفين إقامة المجاورين عنده .

وقال : من لبس مرقعه ، فقد سأل ومن جلس فى زاوية بالفقر فقد سأل انتهى .

ولكن ينبغى أن يقال فى مثل ذلك : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى .

وتقدم أن دليل القوم فى إقامة المجاورين عندهم تقريره صلى الله عليه وسلم أهل الصفة على إقامتهم فى مسجده صلى الله عليه وسلم ، وسيأتى ذلك فى الباب الحادى عشر أيضا والحمد لله رب العالمين .

---

(١) عن حارثه بن وهب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر) (متفق عليه) والعتل الغليظ الجافى والجواظ بفتح الجيم وتشديد الواو وبالظاء المعجمة والجموع المنوع وقيل الضخم المختال فى مشيته .

ومن أخلاقهم : خزنهم قوت السنة فأكثر لأجل ضعفاء اليقين من الأرامل والعاجزين القاطنين عندهم

فإنهم لا تهدأ نفوسهم وتسكن من الاضطراب وتقبل على الاشتغال بالعبادة إلا بمثل ذلك .

وكان سيدى مدين وشيخه الشيخ أحمد الزاهد لا يخزنان شيئا من القوت وآلات الطعام ويقولان : إن الفقير إذا صار عنده قوته يصير الحق تعالى على باله أكثر مما لو احتاج إلى شيء وإذا خزن كل ما يحتاج إليه عنده ربما ينسى ربه عز وجل قال الله تعالى : « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعوا إليه من قبل[1] » .

وقال تعالى : « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه[2] » .

وقال تعالى : « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى[3] » .

ولا شك أن نسيان الله تعالى من أكبر الكبائر عند القوم ، ومن هنا استخار صلى الله عليه وسلم لأهله أن يكون رزقهم قوتا ، وفى رواية كفافا ، وذلك ليدوم توجههم إلى ربهم بالفاقة والحاجة ، فإن القوت الذى لا يفضل منه شيء فى غداء ولا عشاء ، والكفاف هو ما يكف أحدهم عن سؤال الناس ، ولكل مقام رجال والحمد لله رب العالمين .

---

(١) وتمام الآية : (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعوا إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) سورة الزمر آية : ٨

(٢) وتمام الآية : (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) سورة يونس آية : ١٢

(٣) سورة العلق آية : ٦

ومن أخلاقهم كثرة ترقيعهم الثياب والعمائم

إذا لم يجدوا شيئاً يلبسونه جديداً من وجه يرتضونه ، أو ترقيعها لأجل إيثار إخوانهم عليهم بلبس الجديد ، أو ليقتدى الناس بهم فى القناعة من الدنيا باليسير ونحو ذلك من الأغراض الصحيحة .

وكذلك من شأنهم الطى والجوع إذا لم يجدوا شيئا يناسبهم فى الأكل من حيث الحل لا سيما أواخر أعمارهم .

فإن الفقير إذا دخل فى معترك المنايا لا يصير كل طعام يناسبه أكله من حيث المزاج .

وكذلك ينبغى للفقير إذا طعن فى السن أن يزيد فى الورع ليأتيه الموت على ذلك .

وكل فقير لا يحصل له جوع ولاعرى ، فهو من أبناء الدنيا ليس له فى طريق الفقراء نصيب بل بعض الفقراء ربما كان أكثر أكلا وشربا وملابس من كثير من التجار والمباشرين .

ولما بلغ سيدى محمد الحنفى الشاذلى رضى الله تعالى عنه مابلغ من الملابس والمآكل وأتى الملوك إلى زيارته ، حتى كان الملوك عنده كآحاد الناس فكان تارة يأذن لهم فى الدخول ، وتارة لا يأذن لهم فسأل الله تعالى أن يميته على قوارع الطرق ، ومضاجعة الكلاب ، وأن لا يموت ، حتى يصير القمل يسبح فى ثيابه ، ورأسه ولحيته ، فأجاب الله تعالى سؤاله ، ومات على هذا الحال ، وكان ذلك من جملة عناية الحق تعالى به ، حتى لا ينقص له رأس مال والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم الأكل من وقف زاويتهم إذا كان فيه شبهة
كأن وقفه أحد من الأمراء الذين لايتورعون

ثم إن كان أحدهم ناظرا عليهم صرفه كله للمستحقين ، ولا يأخذ منه شيئا لنفسه إلا لضرورة شرعية .

وكان سيدى على الخواص يقول :

لاينبغى لشيخ الزاوية أن يخص نفسه بشىء عن الفقراء القاطنين فى الزاويه بل ، ولا يلحس منه لحسة .

وهذا الخلق قل من يعمل به فى هـذا الزمان بل يفرح أحدهم إذا وقف أحد من الظلمه على زاويته شيئا .

وقد وقع أن شخصا أخبرنى أن فى وقف زاويتنا شيئا أخذ من غير وجه شرعى ، فسألت الله تعالى أنا والفقراء أن يعطل تلك الجهة التى فيها شبهة ، فاستجاب الله تعالى دعانا وعطل من الوقف جهتين ، فلم يقدر أحد من الجباة يأخذ منهما شيئا إلى وقتنا هذا فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لإخوانهم القاصرين من أهل الزاوية حتى يصيروا يردوا مايأتيهم من هدايا الولاة بطيبة نفس لاحياء من الشيخ أو خوفا منه

وذلك بأن يمهد لهم قواعد السلف الصالح فى الورع ، ويذكرلهم ماأعده الله تعالى لمن تورع فى مطعمه وملبسه كما ورد من أن الله تعالى يجلهم ، ويستحى منهم يوم القيامة أن يوقفهم للحساب كل ذلك لكونهم كانوا يخافونه بالغيب فى الدنيا ، فلايجمع عليهم خوفين ويذكرلهم أيضا تعظيم الملوك لمن زهد فى الدنيا ، وتقبيلهم أرجلهم بخلاف الراغب فى الدنيا ، فإن الشيخ حكيم الزمان ، فيرغبهم فى الورع تارة بالحظوظ الدنيوية ، وتارة بالحظوظ الأخروية إلى أن يقوى إيمانهم ((١)) الله تعالى يتورع امتثالا لأمر الله تعالى لاغير واعلم أن هذا الخلق صار غريبا فى هذا الزمان فى غالب الأشياخ مع أنه من أخلاق المريدين .

وقد رأيت شخصا يلوم من لم يعطه من الزكاة كما أعطى غيره ،وذلك من أقبح مايكون لأن من شرط الشيخ أن يكون أعف الناس ، حتى لايقتدى أحد به فى شراهة النفس ، وإن قدر أن الشيخ قبل الدنيا ليفرقها على جماعته لمصلحة رآها ، فلا ينبغى له أن يأخذ من ذلك لنفسه ولالولده شيئا لئلا يصير فى دناءة الهمة كآحاد الناس ، فيخرج عن مرتبة المشايخ لذين يزعم أنه منهم والحمد لله رب العالمين .

(١) مطموس فى الأصل .

ومن أخلاقهم : عدم رضاهم بقراءة أخوانهم القرآن بالفلوس ليلة الجمعة في البيوت والقبور إلا بنية صالحة

فإن الفقير إذا رضع قلبه من محبة الدنيا عسر على الشيخ فطامه ، ولم يكن ذلك في جماعة الأشياخ الذين أدركناهم في النصف الأول من القرن العاشر إنما حدث ذلك فيمن بعدهم ، حتى أنك ترى غالب الزوايا الآن تخلوا ليلة الجمعة ، وصباحها من قارىء أو ذاكر الهم إلا أن لا يكون في الزاوية ما يقوم بأحدهم من اللقمة والخلقة كما أشرنا إليه بقولنا إلا بنية صالحة .

فمثل ذلك لا يقدح في الفقر الا سيما إن إبتلى أحدهم بعيال وأولاد . وقد أشار إلى نحو ذلك حديث : « أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله تعالى » فإنه نكر الأجر فيه ، فشمل الأجر الدنيوى والأخروى .

وإذا أراد الله تعالى عبداً لشيء هيأله أسبابه ولا سبيل إلى فطامه عنه وقد سألت الله تعالى لكل مجاور يقيم عندى بنية الدنيا أن يحرمه الأكل مما يجمع عقوبة له ، فإنه لا ينبغى أن يجمع الدنيا إلا من كان يتاجر فيها بالبيع والشراء ، وأما الفقير الذى يظهر التجرد من الدنيا والزهد فيها وطعامه وشرابه موجود في الزاوية شتاء وصيفا فماله وجمعها ولذلك قال ﷺ في فقير مات ووجدوا في داخل إزاره دينارين فقال : « كيتان من نار » أى لأنه جمعهما على نية إمسا كهما شحا على نفسه أو غيره ، ولو أنه أخذهما على نية إنفاقهما في مرضاة الله تعالى من غير تلبيس لما كانا عليه كيتين من نار والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم حسن سياستهم لمن شرد عنهم من أصحابهم واشتغل بالدنيا وتشرب قلبه حبها

وصار له زوجة جميلة ، وثياب حسنة ، وسبح فى الدنيا كسباحة فقراء الفقهاء ، وصار يجرى ليلا ونهارا[1] ، فلايقولون لمثل هذا إنك قدارتددت عن طريق الفقر وانسلخت من الخير ، وصار على وجهك ظلمة وإنما يقول أحدهم له :

يا أخى إنك أوحشتنا كثيرا وكلما أتأمل فى الجماعة وهم يقرؤن فى الحزب ولا أراك يحصل لى وحشة فإنى أحب أن يكون وردنا كل يوم فى صحائف جميع أصحابنا ونحو ذلك .

فليحذر الشيخ من أن يزجر من خرج عن طاعته من المجاورين ، واستغنى عن الأئمة والجبة التى كان يأخذها من وقف الزاوية ، فربما فجر على الشيخ ، وصار يحط عليه فى المجالس وما حذرتك إلا مما رأيته من بعض أصحابى ، فإنه لما خرج عن أحكام المجاورة وصار يغيب الأيام المتوالية ، ويفوت قراءة العلم والورد معنا ، ويقيم الحجة عليّ ويقول : لو طلبتمونى بالقلب لحضرت وكثيرا ما يأتينى ، فأصير اتكلف التبسم ، وأكلمه الكلام الحلو كما أفعل بالأجانب لعلمى بأنى لو كلمته كما أكلم المريد الذى هو تحت الطاعة لم يحمل ، والله تعالى يصلحه أو يبعده عن الزاوية لئلا يتلف بقية فقراء الزاوية فاعلم ذلك واعمل به والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الإمام القشيرى : وإن ابتلى مريد بجاه ، أو معلوم ، أو صحبة حدث ، أو ميل إلى إمرأة أو استنامة إلى معلوم ، وليس هناك شيخ يدله على حيلة يتخلص بها من ذلك ، فعند ذلك حل له السفر والتحول عن ذلك الموضع ، ليشوشن على نفسه تلك الحالة . ولا شيء أضر بقلوب المريدين من حصول الجاه لهم قبل خمود بشريتهم .

ومن أخلاقهم إلقاؤهم بالهم إلى الفقراء القاطنين عندهم

وتخولهم بالموعظة الحسنة ، وينبغى لهم أن لا يكلفوا الفقراء إلى ترتيب ورد زائد ، فإن النفس من شأنها الميل إلى الكسل ، والراحات ، والغش لصاحبها ، فلذلك كان الأشياخ هم الذين يرتبون لهم الأوراد التى تستغرق غالب الليل والنهار ، والشيطان للفقراء بالمرصاد ، فربما وسوس للشيخ وقال له :

لا تحثهم على الاشتغال بالكلية ينفروا منك فى هذا الزمان بل اجعل الأمر كرا وفرا ، فأصغى الشيخ إلى كلامه ، فأتلف جماعته ، وأهلكهم من كثرة الكسل ، حتى صار أحدهم يستثقل المكث فى مجلس الذكر عكس ما كان فى الزمن الماضى ، وإن جلس أحدهم فيه لا يجد للخير طعما .

فينبغى للشيخ شدة حث الفقراء على الخير ومعاتبتهم على كل خير فاتهم ، وهيهات أن يعملوا بقوله .

وقد من الله تعالى عليّ بجماعة فى الزاوية يقرؤن القرآن ، ويذكرون الله تعالى ليلا ونهارا على التواصل فلا يغفل أحد إلا ويذكر آخر ، ومما وقع لى أن ثلاثة من الملائكة دخلوا على الخلوة ليلا فى المنام ، وفيهم واحد طوله نحو سبعة أذرع وألوانهم كألوان الزعفران .

فقال الطويل للقصيرين :

قد طفتم الليلة جميع الأرض مشارقها ومغاربها فهل رأيتم أكثر اشتغالا من أهل هذه الزاوية ؟

فقالا : لا .

ثم قال لهما : ما تقولان فى حماية مجلس الذكر الذى عندهم إلى أين يبلغ من ناحية القبلة ؟

فقالا : يبلغ إلى حد باب جامع الحاكم الذى من ناحية باب النصر

فقال : ومن الشرق .

فقالا : إلى حد باب الشعرية الذى على يسار الخارج منه .

ثم استيقظت حامداً لله سبحانه شاكراً فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إذا عمر أحدهم زاوية أن يحرز النية الصالحة فى عمارتها ليدوم الخير فيها بعده

فقد قالوا : إن الخير يدوم فى مكان الفقير بقدر عزمه فى الخير ، ونيته الصالحة أى غالبا ، وإلا فقد يختار الشيخ عدم الشهرة فى مكانه وخلوته كحاله فى حال حياته كسيدى أحمد الزاهد وسيدى يوسف العجمى ولا أعلم الآن خارج مصر من قراها أكثر اشتغالا من زاوية سيدى أحمد البدوى وبعده زاوية شيخنا محمد الشناوى رضى الله تعالى عنه فى محلة روح وأما مصر فليس بعد جامع الأزهر فيها مكان أكثر خيراً ولا اشتغالا بالعلم والقرآن من جامع سيدى أبى العباس الغمرى ، فإنه عمره بإشارة سيدنا رسول الله ﷺ على لسان شخص من أولياء الله تعالى كان يبيع لبن المعز الحليب كما أخبرنى بذلك الشيخ أمين الدين الإمام به ، فقد أرسل سيدى محمد الغمرى خادمه إلى باب النصر وقال : قف بعد الصبح فإذا دخل إنسان معه معز يقول : يا لبن حليب فقل له : إن محمد الغمرى يسلم عليك ويقول لك : شاور لى رسول الله ﷺ فى عمارة جامع بحدرة السكتان قريبا من سوق أمير الجيوش فقال له : عاودنى غداً ، فعاوده فقال : قد أذن لك فعمر ، وتوكل على الله تعالى ، وإياك أن تبنى فيه طوبة فيها شبهة . انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن اخلاقهم منع مريدهم من زيارة غيرهم مصلحة له

إذ لا يطلب مريد زيارة غير شيخه إلا لعلة نفسانية ، وأصل ذلك عدم رؤيته فى شيخه الكمال أو اعجاب المريد بنفسه من جهة كثرة عبادته فى شهوده فتقول له نفسه : زر فلانا لينظر حالك ، ويشكرك بين جماعته ، فيزدادون نشاطاً ، فيخرج حينئذ للزيارة أنها بنية صالحة ، فيحصل له العكس ، والمقت ، ولو أنه غير معجب بنفسه لما اشتهت نفسه قط زيارة أحد بل كان يستحى أن يقابل الناس ، ويؤيده قوله ﷺ : « اعدوا لنساكم يلزمن قعور بيوتهن » . انتهى .

وسمعت سيدى محمد الشناوى رحمه الله تعالى يقول : قلت لشيخى سيدى محمد السروى يوما مرادى أزور فلانا ، فنظر إلي شذرا ، وقال : يا محمد إذا لم أكن أملأ عينك فلأى شىء جعلتنى شيخا لك .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

من حكم المريد الصادق أنه كلما ازداد عبادة كلما ازدادت نفسه تواضعا عنه عند نفسه ، حتى يصير كالذى كبسوه بفاحشة وجرسوه فى بلده ، وعلم به الخاص والعام . انتهى .

وقد سمعت أن فقيرا كان صاحب المطاوعة وترك المطاوعة طريقتهم ، فصار يتعبد بين الفقراء فلا يقيمون له وزنا ، فاشتهت أن يزور أحدا ممن يشكره ، ويحمده فخرج للزيارة فرجع مركوبا لابليس فنزع ثيابه وطلب أن يكون مجذوبا بنفسه من غير وارد إلهى ، فلولا حصلت فيه شفاعة لتمزق إلى الممات .

فلا تظن يا أخى أن أحدا من الفقراء الصادقين يمنع مريده من الزيارة لغرض نفسانى أبدا حاشاهم من ذلك كما مر بسطه مرارا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إذا عاتبوا مريدا أوائل صحبته لهم فلا يعاتبوه إلا بعد
تمهيدهم له بساطا بحيث يفهم منه محبة الشيخ له

فإن العتاب للمريد المذكور على غفلة ربما لا يحتمله ، فيصير يبحث عن نفسه ، فلا يحصل له بالعتاب فائدة .

وقد قالوا : كل مريد لا يعتقد فى شيخه أنه أشفق عليه من والديه ، ومن نفسه ، فبعيد عليه أن ينتفع بنصح شيخه أو بعتابه ، فياسعادة من قبل نصح مربيه ، وقلده ، ويا شقاوة من أجاب عن نفسه ، فإن مربيه قد خرق ببصره إلى الدار الآخرة ، وعرف ما يقبل من الأعمال ، وما يرد ، وما يفرح العبد يوم القيامة ، وما يحزنه ، والمريد محجوب عن ذلك .

فكل شيخ يود لمريده ما يفرحه يوم القيامة كما يود له خرق الحجاب الطبيعى ليريحه من التعب .

وقد قالوا : كل مريد لم ينخرق حجابه ، فياطول تعب شيخه فيه فاعلم ذلك أيها الأخ والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن يكون أحدهم متبحرا فى العلوم

بحيث يدرس فى المذاهب الأربعة حتى لا يحوج مريده إلى القراءة على غيره كما مر بسطه مرارا .

ومن لم يقدر على تدريس مريديه فى المذاهب الأربعة ، فهو ناقص ، وربما قال للمريد: تمذهب بمذهبى حتى أدرسك فيه فلا يرضى المريد أن يوافقه على ذلك فيحتاج المريد إلى القراءة على غيره فتختلف عليه المشارب ، فلا يحصل له العلم من الشيخ فيعتقد المريد بنفسه أنه أعلم بمذهبه من شيخه فتذهب حرمة شيخه من قلبه .

وقد درج السلف الصالح كلهم على الاشتغال بالعلم حتى يصير أحدهم يقطع العلماء فى مجالس المناظرة ، وذلك ليكتفى فى العلم من تلمذ له من أهل سائر المذاهب[1] .

وهذا الخلق قد صار غريباً فى هذا الزمان ، فعلم أن كل شيخ لم يكف مريده ، وتكدر منه إذا قرأ على غيره ، فهو صاحب رعونة لا يصلح أن يكون من أهل الطريق والحمد لله رب العالمين .

---

(١) والعلم الكسبى من أهم شروط التصوف بل إن حديث (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) يدل على ذلك فكيف يتأتى له العمل بما لا يعلم وهذا الحديث يعتبر من أساسيات المدخل إلى علم التصوف الإسلامى .

ومن أخلاقهم : حماية أصحابهم ممن يظلمهم

لأنهم ما استندوا إلى أحدهم غالباً إلا ليحميهم ممن يؤذيهم فى دار الدنيا لما رأوا الأمراء والأكابر يعتقدونهم ، ويترددون إليهم .

فمن لم يحم مريده ممن يؤذيه ، فهو ناقص الهم إلا أن يكون المريد له صبر على تحمل الظلم ، والأذى ، فمثل هذا لا ينبغى للشيخ أن يتوجه إلى الله تعالى فى حمايته ، لقوته وصبره .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله تعالى يقول :

لا ينبغى لفقير أن يظهر للناس كرامة فى هذا الزمان إلا بقدر حماية أصحابه بين الناس ، فإن من لا كرامة له لا يحمى له صاحب .

وقد وقع لسيدى إبراهيم الجعبرى أن جماعة الوزير حبسوا حمول صابون جماعته لأجل المكس فأرسل للسلطان أن يحميهم من المكس فأبى ، وقال : هذا مال العسكر، فتوجه سيدى إبراهيم إلى الله تعالى لحبس بول السلطان ، فاحتالوا على ادرار بوله بكل طبيب ، فما قدروا ، وصار السلطان يتلوى كالثعبان ، وهو صائح ، فقالوا له : اعف عن صابون أصحاب الشيخ فعفى عنه ، فبلغ الشيخ ذلك ، فأرسل له ابريقا من ماء وقال استنج منه ففعل ، فأطلق بوله فى الحال فمن ذلك اليوم لم يعارض أحد من جماعته فى شىء .

وكذلك وقع لسيدى محمد الحنفى أنه حبس بول السلطان ، حتى استغاث به ، فأرسل له رغيفا مبسوسا ، فأكل منه فبرىء من وقته فإن كان معك ياأخى حال وتصريف فى رفع الظلم والناس تستند إليك ، فاتخذلك أصحابا والافلا تصحب أحدا خيرا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : حمل تبعة زواياهم إذا كانوا نظارا عليه من تحكيم
الظلمة والمفتشين على جباته ومباشريه

وذلك إما بالحال أو بصرفه فى مصارفه الشرعية ، وعدم تخصيص أحدهم بشىء لنفسه أو ولده عن الفقراء ، فإن الناقد بصير .

وإيضاح ذلك أن الحماية الالهية لاتقع إلا لمن هو واقف فى مصالح العباد من الفقراء والمنقطعين أمامن وقفه فى شىء من أمور الدنيا لمصالح نفسه فقط ، فلايستحق من الله تعالى حماية .

وقد من الله تعالى علي بالحماية لوقف زاويتى بمشي فيه بنورالله تعالى أنا وناسى والحياة له وقدرأينا غيرنا معه مربعات السلاطين ، ومع ذلك ، فلايقدر على حماية وقفه من الظلمة ، لكونه يتخصص بغالبه ، ويتزوج منه ، ويلبس ، ويركب الخيول المسومة ، ويلون المطاعم .

وأخبرنى بعض جباته أن ثلث مال الوقف يخرج براطيل ومغارم للكشاف ، ومشايخ العرب ، والفلاحين ، حتى يصلوا إلى تخليصه ، وأنا أعلم وأتحقق أن لو تخصصت بشىء منه كغيرى لم يقدرنى الله على حماية شىء منه ، وكثيرا ما يزوّر فقراء الزوايا عنى المكاتبات للمكاسين ، ويمشون لهم على اسمى ، حتى قال اليهودى بمجلس المكس ببولاق للشيخ عمر نائبى فى النظر :

نحن نستكثر شيئا من القمح والعسل والسمن الذى يأتى زاويتكم لعلمنا بأن الشيخ لايتخصص عن الفقراء بشىء بخلاف غيرهم ، فإنهم يأخذونه على إسم الفقراء ، ويأكلونه ويبيعون مافضل عن حاجتهم ، فلذلك نأخذ منهم المكس لأن السلطان أولى بذلك ، فمن يتخصص ويحب الدنيا لا تصح حمايته منا انتهى .

فاعلم ذلك ياأخى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم توقف أحدهم فى وزن ماعليه من حقوق الناس ولايحوجون من له عليهم حق بأن يقف بهم على حاكم شرعى أوسياسى

بل لو نازعهم أحد فى دار بنوها وهى جديدة لأعطوها له من غير وقوف على حاكم فالدنيا فى عين أحدهم لاتساوى جناح بعوضة ، فما يخص أحدهم من جناح البعوضة إذا فرقت على جميع أهل الأرض ، حتى يقف لأجله على حاكم .

وقد بلغنا أن سيدى أحمد بن الرفاعى رضى الله تعالى عنه عمر له دارا ورواقا فى بلدة أم عبيدة ، فنازعه واحد فى أرضها يوم انتقاله إليها فأخرج الشيخ أمتعته ، وعياله منها فى الحال ، فلما رأى المدعي شدة عزمه على النقلة منها ؛

قال : ياسيدى ليس لى فيها حق وإنما امتحنتك لأعرف ميلك إلى الدنيا أو زهدك فيها ، ثم قال له : ياسيدى تخرج من دارك التى تعبت على عمارتها بمجرد دعواي من غير وقوف على حاكم .

فقال له : ياولدى الدنيا أهون عندنا من أن نقف من أجلها على حاكم انتهى :

وقد رأيت مرة شيخا مربوطا مع رسول القاضى ليدعى عليه بسبب عثمانى فى كل شهر أخذه بغير حق :

فقلت له : أف عليك بهدلت الطريق ، وكان له شعرة وعذبة ، فصار رسل القاضى يقولون له : فى سبيل الله شعرتك وعذبتك ، وأنت تحوج الناس إلى أن يشكوك من أجل عثمانى كل شهر ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، فقد رخصت والله الطريق وأهلها .

وقد سمع الشيخ نور الدين الحسنى من خلوته فى مدرسة السلطان حسن شخصا يقول: ياقفة شيوخ بعثمانى ، فأخذه من ذلك ماأخذ ، وترك تلقين الذكر من ذلك اليوم ، وكان مع الشخص خشبة الشيوخ التى يسرح بها اللساه الكتان ، فعلم أنه ينبغى لمن لم يقدر على شروط أهل الطريق أن لايتظاهر بلبس زيهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : معرفتهم باسم الله الأعظم

ولولا معرفتهم به ماصح لهم تصريف فى أحد من ولاية أو عزل أو غير ذلك وذلك دليل على اتصافهم بكتمان الأسرار .

ولولا علم الله تعالى بقدرتهم على الكتمان ماعلمهم اسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى فما دخل النار فى الدنيا من دخل من الأولياء ولاتضره النار إلا به ولامشى أحد على الماء إلابه ، وكذلك جميع الأفاعيل .

ولكن ما كل أحد يقدر على حفظ نفسه من التعريف به فى غير المحل المستحق له ولذلك يبخل به الأشياخ على أكثر مريديهم لخوفهم أن يتصرفوا به فى كل من أغضبهم، فيهلكوه افيمقتهم الله تعالى كما وقع لبلعام بن باعورا وقد خدم شخص ذا النون المصرى رحمه الله تعالى سنين ليعلمه اسم الله الأعظم ، فلم يفعل .

فقال له يوما : ياسيدى لى فى خدمتك سنين ، وأريد أن تعلمنى اسم الله الأعظم .

فقال : إن شاء الله تعالى .

ثم إن الشيخ دخل البيت ، ووضع له فارا فى طبق ، ووضع له مكبه ، وسد عليه بمنديل .

وقال له : أوصل هذه الهدية إلى صاحبنا بمصر العتيق .

فبينما هو على الجسر الذى كان بين الجيزه والروضة إذ أحس بخفة فى الطابق .

فقال : إن الشيخ يسخر بى وليس فى الطبق هديه .

فحل المنديل ورفع المكبة فجرى الفأر ، ودخل فى شق ، فرجع بالطبق .

فقال له الشيخ : إذا لم تؤتمن على فأر فكيف أعلمك اسم الله الاعظم ، وأخرجه من خدمته[1] .

---

(١) يروى سيدى أبو الحسن الشاذلى عن شيخه سيدى عبـــد السلام بن مشيش

وقال له شخص يوما : ياسيدى علمنى اسم الله الاعظم .

فقال : فأرنى الأصغر كان الشيخ يزجره عن مثل ذلك ويعلمه أن أسماء الله تعالى كلها عظيمة انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

اسم الله الأعظم هو كل شىء عرف العبد من أين صدر انتهى .

وأخبرنى الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمرى بأنه رأى البارى جل وعلا وشخص ليله أن يخلع عليه شيئا من قدرته .

فقال له البارى جل وعلا : لاتحمل القيام بحق ذلك فإنى حليم على من عصانى صبور على من آذانى وأنت لو اعطيتك ذلك لأخربت الوجود انتهى .

وقد من الله تعالى عليّ بمعرفة اسمه تعالى الأعظم ، ولكن لم أتصرف به قط إلا فى العفو والعافية والموت على الإسلام والحمد لله رب العالمين .

(ورأيت له خرق عادات كثيرة ـ يقصد الشيخ بن مشيش ـ فنها أنى كنت يوما جالسا بين يديه وفى حجره ابن صغير يلاعبه خطر ببالى أن أسأله عن إسم الله الأعظم ، قال : فقام إليّ الولد ، ورمى بيده فى طوقى ، وهزنى ، وقال : يا أبا الحسن ، أنت أردت تسأل الشيخ عن إسم الله الأعظم ، ليس الشأن أن تسأل عن إسم الله الأعظم ، إنما الشأن أن تكون أنت هو إسم الله الأعظم يعنى أن سر الله مودع فى قلبك .

قال : فتبسم الشيخ وقال لى : جاوبك عنى فلان .

ومن أخلاقهم كثرة كسوتهم لاخوانهم من غير توقف
ولو كان من أنفس ثيابهم

فالحلة التي تساوى ألف نصف عندهم كالثوب الخلق على حد سواء فلا تظن ياأخى أنه خلق عظيم عندهم كما سيأتى بسطه إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إقبالهم على المريد بقدر إقباله عليهم

بل دون إقباله عليهم اظهارا لعزة الطريق ، فربما كان المريد يستهين بالطريق ، وأهلها إذا أقبل الشيخ عليه وأظهر له المحبة لأنه محجوب عن مايريد الشيخ أن يدعوه إليه ، فليكن الشيخ حكيما يقبل عليه تارة ويدبر عنه أخرى بحسب مايرى من المصلحة للمريد .

وقد جربت أنا غالب أصحابى .

فرأيت بعضهم كلما قربته قل انتفاعه .

وبعضهم كلما أبعدته زاد انتفاعه .

وبعضهم أسالمه مخافة شره وأظهر له المحبة ، والحال أنه من أبغض الخلق إليّ فى الله تعالى لإعراضه عن الله وقد قال تعالى « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا[1] » .

فشمل الإعراض بالقلب والوجه معا ، وذلك فيمن حقت عليه الشقاوة .

وأعرف جماعة ممن ينتسبون إلى صحبتى يحضرون مجالسى فى الورد ، والعلم نفاقا خوفا من أن يلوث أصحابى بهم ، فيحضر أحدهم ، ليدفع عن نفسه ظن الناس أنه غير وبدل لامحبة فى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولامحبة فى .

وربما يحضر أحدهم منتقدا لى منكرا على بالباطن فيزداد مقتا إلى مقته .

وهذا أمر وقع فيه كثير ممن انسلخ عن المجاورة ، وخالط ابناء الدنيا وأحب النسبة إلى لغرض من الأغراض الدنيويه فقط .

وقد رأيت من يؤذى شيخه وأولاده بلسانه ويده ، ثم إذا احتاج إلى حاجه عند الولاه يكتب فى قصته أنه من جماعته ، وينتسب إليه ، حتى تقضى حاجته ، لعلمه أن

---

(١) سورة النجم آية ٢٩

الولاة إذا علموا أنه انسلخ من طاعة شيخه لا يقضون له حاجة .

وقد وقع مثل هذا لجماعة من المجاورين بالزاوية ، فمنهم من مات على مقته ، ومنهم من هو تابع فى الأثر ، وما كان هذا مرادى ، ولكن جرت سنة الله تعالى فى عباده الداعين إليه أن تنقسم أصحابهم بحكم الإرث للأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى شقى وسعيد بحسب القسمة الالهية ، فيجعل الله تعالى ذلك الداعى آلة لحصول المقت فى جماعته ، فلايقال لو أن الشيخ نظر إلى ذلك المريد باللطف ، والمحبة ، لكان أطاعه ، ولم يمقت لأنا نقول لا أحد أكمل شفقة ، ولا سياسة ، ولا رحمة من سيدنا رسول الله ﷺ ، ومع ذلك فقد طلب إسعاد عمه أبى طالب ، وجماعة من قومه ، فلم يجبه الحق سبحانه إلى ذلك .

فليكن المريد على حذر من مخالفة شيخه وليكن الشيخ على حذر من مقت جماعته بسببه ، ومن استجلابه لقول الناس إن الشيخ مقت فلانا فلم يفلح والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لايدخلوا فى صحبة أحد حتى يعرضوا على أنفسهم حقوقه فإن رأوها تقوم بحقوقه صحبوه ، وإلا سالموه ، وأحبوه محبة الإسلام العامة .

ومن أشد الأصحاب حقوقا وأصعبها على الفقير حقوق الظلمة ، وأعوانهم ، والولاة وأعوانهم ، والمتمشيخون بأنفسهم ، أو بالآباء والجدود أوالمتطفلون فى طريق القوم الذين هم المتصوفه لا الصوفيه .

فأما حقوق الظلمة واعوانهم والولاة فلايصح لفقير صحبتهم إلا مع مداومة النصح لهم ليلا ونهارا ، وردهم عن أفعالهم الخارجة عن قواعد الشريعة ليلا ونهارا ، ويحمل كل ماأخلوا به بعد النصح من عقوبة المعاصى ، ومظالم العباد أوالتوجه فيها إلى الله تعالى ، فيسأله تعالى أن يغفرها لهم ، أو يحولها إلى صحيفته ، وإذا أصابهم هم أو كدر بسبب تحويل نعمة عنهم من مال أو ولد أو ولاية لايهدأ ، ولاينام ، ولا يأكل ولايشرب ، إلا كالمضطر ، ولايجامع ، ولايضحك ، ولايعصى ربه ، ولايغفل عنه ليلا ولانهارا ، حتى ترجع عنه تلك البليه ، وترجع له النعمه ، ومن يطيق تحمل مثل هذه الأمور .

وأما حقوق المتمشيخين بأنفسهم أوبالآباء والجدود الذى تصوفوا بالدعوى ، ولم يصلوا إلى مقام الصدق فى الطريق ، ولايكاد من يصحبهم أن يقوم لهم عوجا ، ولا أن ينزلهم عن مقامهم الذى ادعوه ، ولا أن يتلمذواله ، فلاهم يعرفون الطريق بأنفسهم ، ولاهم يرجعون إلى من يرشدهم ، وربما تلقف أحدهم بعض كلمات من حكم القوم وحفظها وصار يطرزبها المجالس ، حتى يظن من لامعرفة له بالطريق من التجار والمباشرين أنه من محققى الصوفيه ، وهذا الأمر قد كثر وقوعه فى غالب فقراء هذا الزمان ، فلاتكاد تجد لأحدهم شيخا حقيقيا إنما يستندون إلى قولهم صحبنا الشيخ الفلانى ، والشيخ العلانى ، ويعينوا جماعة كانوا فى عصرهم والحال أنهم لم يأخذوا عنهم ، وأعرف منهم شخصا ادعى أنه صحب شيخا من مشايخنا ، فكذبه أصحاب شيخنا ، فانتمى إلى شيخ

آخر ، فكذبه أصحابه ، فادعى بعد ذلك أن سيدى عليا المرصفى أتاه فى المنام ، وقال له : ابرز للناس ، فأرشدهم ، وربما كان ذلك أبليس ، فإن سيدى عليا كان كالجبل الراسى فى مصر لايزلزله زعازع الرياح .

وقال لى مرة : أنالا آذن لأحد من جماعتى يتصدر للمشيخه إلا بعد وقوع الإذن لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقول هذا المدعى إن الشيخ أتاه فى المنام كذب ، وزور لمخالفة ذلك لحال الشيخ الذى كان عليه حال حياته من الاحتياط فى ذريته ، ومصداق ذلك نفرة الناس عنه بعد مدة قليلة ، فلم يبق حوله الآن أحد ، وانكشف حاله لهم لعدم من يعده من مشايخ السلسلة ، فإنه دعي لا أب له فيها ، ومعلوم أن الطريق ترفض غير أهلها بالخاصة فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم غفلتهم عن ارشاد هذه الأمة إلى طريق الرشاد

تارة بالوعظ على الكرسى وتارة بالتسليك لهم على طريق مشايخ الطريق عملا بقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين[١] » ولما قربت الساعة تأكد عدم الغفلة عن ارشاد الناس لكثرة الضلال وتزلزل قواعد الدين[٢] .

---

(١) سورة الذاريات آية : ٥٥ .

(٢) إذا كان لنا أن نأخذ صورة عن مجالس الصوفية فى تعليم الناس فإن أوضح صورة يمكن لنا أن نأخذ ها هى صورة الإمام أبى الحسن الشاذلى .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود : يقول سيدى عبد الوهاب الشعرانى : بلغنا أن الشيخ الكامل أبا الحسن الشاذلى لما فى اختياره مع الله مكث ستة أشهر لا يتحرى أن يسأل الله فى حصول شيء .

ثم نودى فى سره : إسألنا عبودية لا ترجيح فيها للعطاء عن المنع .

قال : فسألت الله ورجوته امتثالا لا تحجيراً عليه ، فإنه يخلق ما يشاء ويختار ، وليس معه اختيار » اهـ

لقد فنى اختيار أبى الحسن مع الله ، وهذه المرتبة لا يتأتى للانسان أن ينالها فى إبتداء حياته السائرة إلى الله . لابد أن يسبقها جهاد شاق كيف وصل أبوالحسن إلى أن يسترسل مع الله على ما يريد فنى إرادته فى إرادته . واختياره وأن يكون باللهإيراداً وإصداراً ؟

لقد كان الجانب العلمى من العناصر التى حددت شخصية الشاذلى .

لقد بدأ الدراسة والتحصيل صغيراً ، فتثقف كأحسن ما يكون المثقف .

لقد تثقف على الطريق العادى لحفظ القرآن ، ودرس الفقه ودرس العلوم الدينية :

وسائل وغايات « ولم يدخل فى علوم حتى كان يعد للمناظرة فى العلوم الظاهرة » .

وكان (ذا علوم جمة)

وهو صاحب العلوم الغزيرة » :

ولقد تدرج فى هذه العلوم سلما فسلما ، ثم أخذ يختار الكتب التى يدرسها ويشرحها ويتصحح بقراءتها ، ويحبب فى أصحابها ؛ وكان منها :

١ — كتاب ختم الأولياء للحكيم الترمذى ، وهو كتاب أقام الجو الثقافى وأقعده حين صدوره ، وكان سببا فى صعوبات كثيرة إعترضت المؤلف بسبب الآراء التى احتوى عليها .

وقد سمعت سيدى على الخوص رحمه الله يقول :

من نعم الله تعالى على عباده كونه تعالى لا يخلى الأرض من قائم له بحجة فى دينه رضيه

وهو كتاب أثار إهتمام الإمام الأكبر محي الدين بن عربى إثارة كبرى ، فأفرد له كتابا خاصا ، ثم أفرد له صفحات وصفحات من كتاب الفتوحات ، وحاول أن يجيب على ما ورد فيه من أسئلة ، ووضع نفسه أيضاً بهذا موضع التحدى وكأنه يقول : هاءنذا أجيبه على الأسئلة متحديا فى ما يتعلق بصحة الأجابة .

لقد كان الشاذلى يلقى دروسا فى شرح هذا الكتاب ، ولقد بلغ من روعة هـــذه الدروس أن كان أبو العباس المرسى يحرص كل الحرص على حضورها لما كان لهـــا فى نظره من الأهمية ؛ وحينما يكون على سفر فى شأن من شئون الدعوة فإنه يلتمس كل وسيلة تمكنه من حضورها .

ولقد كان كتاب ختم الأولياء مفقودا إلى عهد قريب ، ثم عثر الأستاذ عثمان يحيى عليه فطبعه فى بيروت طبعة محققة مع دراسة عن الترمذى .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه عن أبى العباس المرسى :

« وكان هو والشيخ أبو الحسن كل منهما يعظم الإمام الربانى محمد بن على الترمذى ، وكان لكلامه عندهما الحظوة التامة وكان يقولان أنه أحد الأوتاد الأربعة » اهـ .

وقبل أن نتحدث عن كتاب آخر نذكر هنا ما رواه ابن عطاء الله السكندرى قال : أخبرنى بعض أصحابنا قال :

قال الشيخ ، قيل لى :

ما على وجه الأرض مجلس فى الفقة أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ولا على وجه الأرض مجلس فى علم الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكى الدين عبد العظيم ، ولا على وجه الأرض مجلس فى علم الحقائق أبهى من مجلسك » .

٢ — وكتاب « المواقف والمخاطبات » من تأليف الشيخ محمد بن عبد الجبار النفرى وهو كتاب ليس بالسهل ، لأنه يعبر عن حالات روحية عالية لا يتأتى لغير أصحاب الأذواق العالية فهم الكثير منها ، وهو كتاب للخاصة ، وأراد أبو الحسن أن ييسره لكل من عنده استعداد ، وأن يفتح مغاليقه لكل من يستشرف عالم الحكمة .

يقول ابن عطاء الله عن الشيخ أبى الحسن :

لولايته ، واختاره لمعاملته يبين به دلالاته ، ويوضح به طرقاته فطوبى لمن كان كذلك في هذا الزمان الذى خفى فيه نور العلماء ، وقد أخذ الله تعالى الميثاق والعهد على العلماء

« كان يوما فى القاهرة فى دار الزكى السراج ، وكتاب المواقف للنفرى يقرأ عليه فقال:

« اين أبو العباس ؟ »

فلما حضر ، قال الشيخ » .

تكلم يا بنى ، تكلم بارك الله فيك ، تكلم ولن تسكت بعدها أبداً

قال أبو العباس :

فأعطيت لسان الشيخ من ذلك الوقت » اهـ .

ولقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة :

٣ — كتاب قوت القلوب لأبى طالب المكى .

٤ — كتاب الإحياء للإمام الغزالى .

وهذان الكتابان من واد واحد ، ولقد تأثر الإمام الغزالى فى كتاب الإحياء بأبى طالب المكى ، وذكر أنه قرأ كتاب قوت القلوب كوسيلة من الوسائل التى تعرفه بالتصوف ، وذلك قبل أن يأخذ من الجانب العملى والرياضة الصوفية .

لقد نصح الشاذلى بقراءتهما : فقال عن قوت القلوب : عليكم بالقوت فإنه قوت .

وقال عن الكتابين :

كتاب الإحياء يورثك العلم ، وكتاب القوت يورثك النور . ولقد كان الشيخ أبو الحسن يقول :

إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبى حامد .

٥ — ومن قبيل الكتابين السابقين كان الإمام الشاذلى يقرأ أيضاً الرسالة القشيرية ويشرحها ، وقد سبق شيء من الحديث فى ذلك وسيأتى أيضاً حديث عنه .

٦ — وكتاب الشفاء للقاضى عياض من الكتب المباركة التى نالت تقديراً كبيراً فى أوساط كثيرة ، وكان يقرؤه أبو الحسن وينصح بقراءته .

٧ — وكتاب أبى الحسن المفضل فى التفسير هو كتاب « المحرر الوجيز » لابن عطية وهو كتاب يشرحه عنوانه ، فهو محرر : كلماته منتقاه متخيره ، محررة وعباراته دقيقة ، وهو وجيز وإن لم يكن فى إيجاز تفسير الجلالين أو البيضاوى .

بتبين الحق وعدم كتمانه ومن قدر علي ذلك وتركه فهو عاص لله تعالى ولرسوله صلي الله عليه وسلم انتهى .

وقد بدأ طبعه الآن فى المغرب ، فطبع منه الجزءان : الأول والثانى .

هذه هى الكتب التى ورد ذكرها فيما كتب عن أبى الحسن فى المصادر القديمة ، وهى كتب مختارة فى غاية النفاسة ، تدل على مشرب عال فى التفسير والسيرة النبوية والتصوف .

وليس بغريب بعد ذلك أن ينقل الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى الطبقات عن شيخه على الخواص أنه قال :

« كانت القاعدة عند الشيخ ابى الحسن الشاذلى ، والشيخ ابى العباس تاج الدين بن عطاء الله ، والشيخ ياقوت العرشى ، فى قبول الطلاب : ألا يدخل أحد الطريق إلا بعد تبحر فى علوم الشريعة ، وألانها بحيث يقطع العلماء فى مجالس المناظرة بالحجج الواضحة .

فإذا لم يتبحر كذلك لا يأخذون عليه العهد » ا هـ .

إن العلم عنصر من عناصر شخصية الإمام الشاذلى وهو عنصر من عناصر طريقته أيضاً وصلى الله وسلم على من أمر أن يقول : (رب زدنى علماً) .

وسبحان القائل :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

وتقدس الذى يقول :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

ويصل أبو الحسن إلى الذروة حينما يعتبر الجهل والرضا به من الكبائر بل حينما يعتبره من أكبر الكبائر ويقول :

« لا كبيرة عندى أكبر من اثنين : حب الدنيا بالإيثار ، والمقام على الجهل بالرضا » .

لأن حب الدنيا أساس كل خطيئة .

والمقام على الجهل أصل كل معصية .

ولا يتأتى أن نجاوز الجانب العلمى دون نذكر مثال نبين به مدى ما وصل إليه أبو الحسن من عمق عميق ، ومن فهم دقيق فى المسائل العلمية .

ونحن كلما رأينا إشارات من علم أبى الحسن الذى ألبس فيه العلم الرسمى نسيم الأرواح وألبست فيه معارج الأرواح صورة العلم الرسمى .

فإياك يأخى أن تنكر على أحد يعظ الناس فى هذا الزمان ، أو تنكر عليه إكثاره من الوعظ فى المساجد المتعددة ، فإن ذلك منك غاية الجهل لأنه قايم عن العلماء التاركين

أقول كلما رأينا ذلك أسفنا كل الأسف على ما حصل من إهمال فى تقييد دروس أبى الحسن ومع ذلك فإن أباالحسن قد ربى رجالا بدلا أن يخرج كتبا ولقد سئل رضى الله عنه:

لم لا تضع الكتب فى الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم ؟ فقال رضى الله عنه :

كتبى أصحابى[1] .

ومع إيماننا بأنه ربى رجالا نشروا علمه ، وأذاعوا طريقته ، فقد كنا نتمنى أن لو اهتم أحد مريديه بتقييد نفائسه ودرره . والمثال الذى نذكره الآن مأخوذ من رسالة طويلة كتبها لأحد أصدقائه بتونس هو سيدى على بن مخلوف .

وهذا المثال عن الروح وقد ورد فى القرآن الكريم قوله تعالى « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » .

هذه الآية الكريمة كانت مثار خلاف شديد بين المفسرين من مختلف النزعات : وذلك أن كثيراً من المفسرين رأوا أن الآية إنما هى منهى عن البحث فى الروح ، بمعنى النفس الإنسانية ، لأنها من أمر الله سبحانه ، وهى من أمره ، هو وحده العالم بها .

وعارض هؤلاء كثيرون يرون أن الروح فى الآية الكريمة : إنما هو القرآن الكريم ، بدليل سياق الآيات السابقة واللاحقة ، فإنها كلها فى القرآن الكريم ، والقرآن يسمى روحاً كما أن جبريل عليه السلام روحاً .

هل الآية نهى عن البحث فى الروح أم أن الروح فى الآية شىء آخر غير النفس الإنسانية ؟ ولم يأخذ أبو الحسن بهذا الرأى أو بذاك ، وإنما أدلى برأى نشهد بأصالته وعمقه ودقته ، يقول رضى الله عنه :

« ومن ظن أن هذا العلم : أعنى علم الروح وغيره ، مما ذكر وما لم يذكر لم يحط به الخاصة العليا أهل البدء الأعلى فقد وقع فى عظيمين :

جهل أولياء الله إذ وصفهم بالقصور عن ذلك ، وظن بربه أنه منعهم : وكيف يجوز أن يظن على مخصوص ، وسرى به التكذيب إلى القدرة والشرع بقوله عن اليهود أو عن العرب كما تضمن الخلاف :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » .

لذلك بفرض كفاية ، وإياك أن تحمل الواعظ على أنه إنما قصد بذلك غير الله تعالى ،

فما الدليل لك منهما على جهل الصديقين وأهل خاصة الله العليا .

والكشف عن هذا أن السؤال يقع بأربعة أحرف : بهل ، وكيف ، ولم ، ومن ،

فهل يقع بها السؤال عن الشيء أموجود هو أو معدوم .

وكيف ، يقع بها السؤال عن حال الشيء .

ولم ، يقع السؤال بها عن العلة .

وليس فى الآية شيء من هذا . فإنك إن قلت فيها معنى هل ومعنى هل يقتضى هل الروح موجود أو معدوم وقد عرفوا وجوده من قبل ، ولو لا ذلك لما قال (ويسألونك عن الروح .) فثبت أنهم عرفوا وجوده فبطل هذا .

وليس فيها سؤال عن الحال كيف هو ، ولا سؤال عن العلة لم كذا وكذا ولو كان سؤالهم عن هذين لما قنعوا بقوله : « قل الروح من أمر ربى » ولشغبوا وترددوا إذ ذاك شغلهم وعادتهم وإرادتهم ، فثبت أن السؤال إنما كان عن الشيء من أين هو بدليل الجواب والبيان الظاهر الشافى بقوله :

« قل الروح من أمر ربى » إذ الرسول عالم بما سألوا عنه فأجاب عن الله بذلك كما تقول آدم تسألك عنه وفهم المسئول السؤال فقال : آدم من تراب ، فإذا رضى الجواب قنع وليس يرجع العدو إلا بفهم عظيم من الحصن العظيم الذى لا مرد له .

فكيف يزعم الزاعم أنه لا يعرف ولا يجوز أن يعرف .

فقد أوجب الله علينا معرفته ولا مثيل له ولو ، ضيعناها لكنا كفاراً أو عصاة ، فكيف بموجود مخلوق أمثاله كثيرة . هذا عين الجهل أن يقال لا يجوز أن يعرف من له المثال والنظير وهو الروح ، ويوجب معرفة من لا شبيه له ولا نظير . فنعوذ بالله من جهل الجاهلين وظلم الظالمين .

والذى أقول به إن لله أسراراً لا يسع فيها الرسم . ولا يليق بها الكتم . أن لا ترسم فى الدواوين لعمى البصائر وضعفاء النحائر . ولا يليق بها الكتم ، لوضوحها وشدة ظهورها . فلا تعبأن بهم مع كثرة حججهم وذل للحض ، واخضع له فيما هم فيه .

وأعرض عنهم فيما لا علم لهم به . وقد أمر الله سبحانه نبينا محمداً ﷺ بالإقتداء بإبراهيم وسائر الأنبياء عليهم السلام ، وهو الفاضل الذى لا يصل إليه أحد .

فإنه حرام عليك ، فإن الزمان كلما أظلم طولب العلماء بكثرة السرج العلمية ، ليضيئوا على الناس بها ، ولو فى حال سماعهم للوعظ فقط وما على الواعظ من نسيانهم للوعظ إذا

ويقول قد شاركتهم فى النبوة والرسالة والهداية والأمور الطارئة على النفوس والأبدان والقلوب والأرواح ، واقتد بهم فيما فيه الشركة وما خصصنا به : ففينا وإلينا ، كذلك أيضاً من فهم هذا السر بها وأن لله مع عامة المؤمنين ومع أوساطهم ومع الأعلين وفارقهم فيما هو خاص المخصوصين .

فإن تمكن منهم فازدد بعلمك وعملك فقرا إلى الله وتواضعا لعباده . واعطف بالرحمة على عامة المؤمنين وإن كانوا ظالمين إلا حيث أمرك الله بالغلظة . عليهم مع الدعاء الصالح والدفع عنهم » اهـ .

وأظن أنه لا غرابة بعد هذا فى أن يروى ابن كثير ـ كما يذكر صاحب المفاخر ـ أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يحضر مجلس الأستاذ أبى الحسن فيسمع تقريره للحقائق ويشاهد حسن إفصاحه عن العلم اللدنى فعند ذلك يحصل له وارد من جانب الحق ويركضه على قدميه طربا مع المريدين ، ويقول : (تأملوا هذا التقرير فإنه قريب من ربه)اهـ

ولقد لمس المؤرخون لأبى الحسن والشعراء المادحون له هـذا الجانب العلمى عنده ، ورأوا ما فيه من أصالة وعمق ، فأشاروا به . ومن هؤلاء الإمام البوصيرى صاحب البردة الذى يصفه فى قصيدة يمدحه بها بأنه : « بحر العلم » .

أما ابن المليق فيقول عن أبى الحسن :

لقد كان بحراً فى الشرائع راسخا ولا سيما علم الفرائض والسنن
ومن منهل التوحيد عب وارتوى فلله كم روى قلوبا بهـا محن
وحاز علوما ليس تحصى لكاتب وهل تحصر الكتاب ما حاز من فنن

وقد سبق أن ذكرنا ما قاله ابن عطاء الله السكندرى فى وصف هذا الجانب العلمى .
وما من شك فى أن أبا الحسن :

(كان عالما عارفا بالعلوم الظاهرة ، جامعا لدقائق فنونها ، ومفتضا لأبكار المعانى وعيونها من : حديث ، وتفسير ، وفقه ، وأصول ، ونحو صرف ولغة ومعقول وحكمة ، وآداب.

وأما علوم المعارف الإلاهية : فقطب رحاها ، وشمس ضحاها) ونختم هذا الجانب العلمى عند أبى الحسن بقول صاحب المفاخر العلية عنه : (وهو صاحب الإشارات العلية والعبارات السنية ، جاء فى طريق القوم بالأسلوب العجيب والمنهج الغريب الذى جمع بين

فارقوا مجلسه من شيء قال الله تعالى (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون [١]) .

وسمعت سيدى عبد القادر الدشطوطى رحمه الله تعالى يقول :

لا يجوز لمن أودعه الله علما وعقلا وفهما وبصيرة فى الدين أن يكتم ذلك عن الناس الحائرين إلا بعذر شرعى بل الواجب عليه دعوة الخلق إلى سلوك طريق الحق ، فيرشد الضال ، ويهدى الجاهل ، وينذر العالم ، ويحذر العارف انتهى .

قلت : قول الشيخ إلا بعذر يقع فيه بعض العلماء ، والجمهور على وجوب النصح والإرشاد ، وإن علم أن المحل غير قابل إما بالقرائن أو بالكشف قال تعالى « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر [٢] » ، وما ورد فى الآيات من الإعراض عن الكفار إن لم يجد الداعى إلى الله تعالى أمارات القبول ملسوخ والله سبحانه اعلم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

من قال : إن الوعظ بدعة فهو المبتدع ، فقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يذكر أصحابه ، ويخوفهم ، ويأمر بعضهم أن يقرأ عليه القرآن ، ويبكى فى مجلسه ، ويدعون له ، ويدعوا لهم ، ولم يزل العمل بهذه السنة فى المدينة والأمصار .

وسمعت أخى الشيخ افضل الدين رحمه الله تعالى يقول :

من قال إن الوعظ بدعة ، فمراده بذلك التسمية فيقول ذكرى ولا يقول وعظ لأنه لم

للعلم والحال ، أو الهمة والمقال و ونخرج بصحبته جماعة من الأكابر مثل أبى العباس المرسى وأبى العزائم ماضى وغيرهم وتلمذ له أعيان كثيرة من أعيان أهل الله تعالى) .

ويقول شارح القاموس المحيط ، السيد مرتضى الزبيدى صاحب تاج العروس : (وممن كان يحضر مجلسه العز بن عبد السلام وابن دقيق العيد وناهيك بهما والحافظ المنذرى ، وابن الحاجب ، وابن الصلاح ، وابن عصفور وغيرهم بالكاملية بالقاهرة) .

(١) سورة الأنعام آية : ٦٩ (٢) سورة الكهف آية : ٢٩ .

يرد ومن أنكر الذكرى فهو جاهل لأنها كانت على عهد رسول الله ﷺ ، وقد ورد أنه كان لعبدالله بن رواحه مجلس على عهد رسول الله ﷺ يذكر الناس فيه إذا انصرف النبي ﷺ ولم يزل الأمر على ذلك بين الخلفاء الراشدين إلى عصر سيدى أحمد الزاهد إلى عصرنا هذا لكن كان سيدى أحمد الزاهد يخص النساء بوعظه دون الرجال ، ويقول :

إنهن مخدرات فى البيوت لايجالسن الرجال فى دروس العلم ، ولايخالطن الرجال من طلبة العلم بخلاف الذكور انتهى .

وثبت أيضا أن عمر بن الخطاب أذن لتميم الدارى رضى الله عنهما أن يذكر الناس ، وكان عمر يجلس إليه فى مجلسه ذلك ، وأذن عثمان لكعب رضى الله عنهما أن يذكر الناس ، وبعث عمر بن الخطاب عبد الله بن مسعود إلى أهل الكوفه ليذكرهم ويعلمهم أحكام دينهم وكذلك بعث أباهريرة إلى البحرين ، والأنصار فى جماعة يكثر تعدادهم لكن ينبغى لكل واعظ وكل مذكر أن لايعظ أحدا ، ولايذكره إلا بعد عمله بماوعظ الناس به ، وذكرهم به ، وليتأمل فى قول خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (وماأريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح مااستطعت[1]) .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول :

ينبغى لكل داع إلى الله تعالى فى طريق الظاهر والباطن من المدرسين والمسلكين أن لايتصدر لذلك إلا بعد تضلعه من علوم الكتاب والسنة ، ومعرفة أقوال العلماء ، وآدابهم ومعرفة المعانى والإسناد وبعد عرضه نفسه بين الجنة والنار فى كل منطق وبعد علمه أنه مسئول عن كلامه ماذا أراد به ويستعد بالجواب عن ذلك يوم القيامة فلا يتكلم بكلمة إلا مع علمه بأنه بعين الله عزوجل فى كل همة وطرفه وسر وعلانية ويقبح على من يعظ الناس أن يكون مرتكبا أمرا يخالف مايدعوا إليه انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول :

---

(١) سورة هود آية : ٨٨ .

ينبغى للداعى إلى الله تعالى أن يكون حكيم زمانه ، فيدعوا كل صنف من الناس من طريقهم اللائق بهم .

فيدعوا للملوك والأغنياء ، وأهل الاغترار من طريق الخوف والانتقام .

ويدعوا الفقراء من طريق الصبر ، والرجا .

ويدعوا أهل العافية والسلامة من طريق الإيثار والشكر على النعم .

ويدعوا أهل البلايا والمحن من طريق الصبر وحسن الظن بالله تعالى .

ويدعوا العلماء من طريق خوف المكر والاستدراج .

ويدعوا الجهال من طريق فرض العلم والقيام بالواجبات .

ويدعوا المريدين من طريق المجاهدة للنفس ، وحفظ الجوارح من الآثام .

ويدعوا المتوسطين من طريق مخالفة الهوى ، والهروب من الحظوظ .

ويدعوا العارفين من طريق الحياء من الله تعالى .

ويدعوا الصديقين من طريق الإجلال والتعظيم ، فيذكر كل قاصد من طريقه ، ومخاطبة عقله من موضع عقله عملا بحديث « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » وهذا يقتضى أنه لا ينبغى أن يعظ الناس إلا أكابر الأولياء فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن يشهدوا فضل الفقير إذا قبل منهم صدقة ويروا له اليد العليا عليهم عكس مايشهده غيرهم ، فإنهم يشهدون ببادىء الرأى فضلهم على الفقير ، ويقولون: الحمد لله الذى جعلنا نعطى ولانحتاج إلى أحد.

وهذا المشهد وإن كان نفيسا فالأول أنفس منه .

وكذلك من أخلاقهم استقلال ماأعطوه ، وتعظيم ماأخذوه ، فإذا تصدقوا بألف دينار ، فهى عندهم ، كالحصاة ، وإذا أخذوا باقلة مسوسة كانت عندهم كالجبل العظيم .

وهذا الخلق غريب فى فقراء هذا الزمان بل ربما تصدق أحدهم بصدقة ، فتبعتها نفسه ، وصار يتحدث بها زمانا ، ولو أن أحدهم كان مخلصا لم يتكلم بمثل ذلك ، واكتفى بعلم الله عز وجل لأن المخلص لايعامل إلا الله عز وجل .

وقد قالوا الفقراء كالملوك لايستكثرون لهم عطاء .

ولذلك ورد مرفوعا فى أبى داود (لاتسألوا الناس شيئا وإن كان أحدكم ولابد سائلا فليسأل الصالحين أوذا سلطان) انتهى ، أى لأن الصالحين والملوك لا يمنون بما أعطوه، لشرف نفوسهم ، وحقارة الدنيا فى أعينهم .

فعلم أن الأجر والثواب مركب من وجود المعطي ، والآخذ ، ولكل منهما الفضل على صاحبه .

وقد بسطنا القول فى ذم السؤال وعلى فضل الإسرار بالصدقة فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم تشوف نفوسهم إلى مكافأتهم على هديتهم لإخوانهم إذا جاؤا من الحجاز أو الشام مثلا وأهدوا شيئا لإخوانهم

وإن علموا من أحد من أخوانهم المكافأة بعثوا يقولون له مع القاصد : قد حلف فلان أن لايقبل مكافأة من أحد من اخوانه فى هذه السفرة ، وذلك حتى يدخل على قلب أخيه الراحة ، ويريحه إن كان بخيلا من قوله : والله ما كان لى حاجة بما أهداه إلى فلان ، وأنا حائر ان أكافيه بماذا ؟.

وهذا الأمر قل من يتنبه له من المُهدي والمُهدَى إليه .

فعلم أن كل فقير تلتفت نفسه إلى مقابلة على هديه فهو مدع كذاب ، وهو دنياوى خالص ، ولو عامل الله تعالى لم يطلب عبادته هديته عوضا ، وقد قالوا : من شكر المسافر اهداؤه شيئا إذا رجع شكر السلامة ، فكيف يطلب مكافأة الناس له على ذلك ، ومنفعته راجعة إليه هو والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم قطع برهم وحسنتهم للناس إذا علموا الخير وكفروا بواسطتهم ولم يروالهم فضلا عليهم بل يزيدون فى برهم واحسانهم إليهم

لأنهم بكفرانهم واسطتهم قد وفروا لهم الأجر أوزاد وهم قربا من الله تعالى إن كانوا عبيد الله تعالى بخلاف من يشكرهم ، ويمدحهم فى المجالس ، فربما ذهب أجرهم بذلك المدح .

فليستفهم كل من يعامل الله تعالى البر والإحسان إلى من كفر نعمته بطريقه الشرعى، ثم إن المعين لهم على العمل بهذا الخلق كونهم لايرون لهم مع الله ملكا فى الدارين فلايرون لهم فضلا على أحد إعطاهم كالغلام الذى قال له سيده : اذهب بهذه الهديه إلى فلان ، والفضل للمُهدي لا للغلام .

وليتأمل الذى قطع بره وحسنته عن ولده أو تلميذه مثلا نفسه فى معاملة الحق تعالى له كيف الحق تعالى يطعمه ، ويسقيه ويكسوه ليلا ونهارا ، وهو يعطيه وإذا خالف أى أمر لايقطع عنه بره ولا احسانه بل ربما فرغ من المعصية فوجد العيال قدهيؤا له اللحم الضانى والدجاج وذوبوا له السكر فى الأوانى الصينى فالعاقل من يعامل عبيد الله تعالى كما يعامله الله تعالى من الصفح والعفو وقد شفع الحق فقال عن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فى مسطح لما وقع فى عائشه وخاض مع أهل الافك بقوله تعالى : « وليعفوا وليصفحوا [1] » .

(١) وتمام الآية (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) سورة النور آية : ٢٢ .

هذا وقد وردت قصة الإفك فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بما يدرأ أى قول سوء عن الرسول ﷺ والسيدة عائشة رضوان الله تعالى عليها يقول الله تعالى : إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل إمرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ، لو لا إذ سمعتموه ظن المؤمنون

فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : بلى أحب أن يغفر الله تعالى لى وأجرى على مسطح ما كان قطعه عنه من البر فافهم والحمد لله رب العالمين .

والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هـذا إفك مبين ، لولا جاءو عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولائك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عـذاب عظيم ، إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لـكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ، ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ، إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم ، يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولو لا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ، ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يوتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم .

وهذه الآيات نزلت فى السيدة عائشة دفاعا عنها وبيانا لكذب هـذا الحديث وصيانه لعرض الرسول صلى الله عليه وسلم .

يقول ابن كثير : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) أى جماعة منكم يعنى ما هو واحد ولا إثنان بل جماعه ، فكان المقدم فى هذه اللعنة عبد بن أبى سلول رأس المنافقين ، فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك فى أذهان بعض المسلمين فتكلموا به وجوزه آخرون منهم ، وبقى الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن .

أما بيان ما ورد فى الأحاديث من ذلك فيقول الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهرى قال : أخبرنى سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة زوج النبى ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله تعالى ، وكلهم قد حدثنى بطائفة من حديثها ، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصاً ، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذى حدثنى عن عائشة ، وبعض حديثهم يصدق بعضاً : ذكروا أن عائشة رضى الله عنها

. . . . .

زوج النبي ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه ، قالت عائشة رضي الله عنها : فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي ، وخرجت مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعد ما نزل الحجاب ، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذن بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي ، فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني إبتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني ، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيره الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه .

قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلقة من الطعام ؛ فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلي الذي كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إلي.

فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمت ، وكان صفوان ابن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش ، فأدلج فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتاني فعرفني حين رآني ، وقد كان رآني قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطىء على يدها فركبتها ، فانطلق يقودني الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك من هلك في شأني ؛ وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي سلول ، فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمناها شهرا والناس يفيضون في قول أهل الإفك ، ولا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبني في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين اشتكي ، إنما يدخل رسول ﷺ فيسلم ثم يقول (كيف تيكم) ؟

فذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعدما نقهت ، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل ؛ وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه في البرية وكنا نتأذى بالكنف أن

. . . .

تتخذها فى بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح وهى بنت أبى رهم ابن المطلب ابن عبدمناف ، وأمها ابنة صخر بن عامر خاله أبى بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب فأقبلت أنا وابنة أبى رهم أم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح .

فقلت لها : بئسما قلت ، تسبين رجلا شهد بدرا ؟

فقالت : أى هنتاه ألم تسمعى ما قال ؟

قلت : وماذا قال ؟

قالت : فأخبرتنى بقول أهل الإفك .

فازددت مرضا إلى مرض ، فلما رجعت إلى بيتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال : (كيف تيكم ؟) .

فقلت له : أتأذن لى أن آتى أبوى .

قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما .

فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أبوى .

فقلت لأمى : يا أمتاه ما يتحدث الناس به ؟

فقالت : أى بنية هونى عليك فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها .

قالت : فقلت : سبحان الله وقد تحدث الناس بها ؟

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكى ، قالت: فدعا رسول الله ﷺ على ابن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى ، يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله .

قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود فقال أسامة : يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً .

وأما على بن أبى طالب فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك .

قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : (أى بريرة هل رأيت من يريبك من عائشة) ؟

. . . . . .

فقالت له بريرة : والذى بعثك بالحق إن رأيت منها أمرا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله .

فقام رسول الله ﷺ من يومه ، فاستعذر من عبد الله بن أبى سلول .

قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : (يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى ، فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلى إلا معى) .

فقام سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله عنه فقال :

أنا أعذرك منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك .

قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية ، فقال لسعد بن معاذ :

كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل .

فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة :

كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافق .

فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ، وسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالت : وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى .

قالت : فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى إذ استأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها فجلست تبكى معى ، فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس .

قالت : ولم يجلس عندى منذ قيل ماقيل ، وقد لبثت شهرا لا يوحى إليه فى شأنى شىء .

قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : (أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه) .

قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة .

فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله .

. . . . . .

فقال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقلت لأمى : أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالت : فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن :

والله لقد علمت لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم أنى بريئة والله يعلم أنى بريئة لا تصدقوننى ، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى ، فو الله ما أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف : (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) .

قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراش ، قالت : وأنا والله أعلم حينئذ أنى بريئة ، وأن الله تعالى مبرئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها .

قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد ، حتى أنزل الله تعالى على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق ، وهو فى يوم شات من ثقل القول الذى أنزل عليه .

قالت : فسرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : (أبشرى يا عائشة ، أما الله عز وجل فقد برأك) .

قالت : فقالت لى أمى : قومى إليه .

فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل هو الذى أنزل براءتى .

وأنزل الله عز وجل : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) العشر آيات الأولى كلها : فلما أنزل الله هذا فى براءتى قال أبو بكر رضى الله عنه ، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله تعالى : (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى — إلى قوله — ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) .

. . . . .

فقال أبو بكر : بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبدا .

قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمرى فقال : (يا زينب ماذا علمت أو رأيت ؟) .

فقالت : يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت إلا خيراً .

قالت عائشة : وهى التى كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله تعالى بالورع ، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها فهلكت فيمن هلك .

قال ابن شهاب : فهذا ما أنتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط ، أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما من حديث الزهرى .

ومن أخلاقهم الرحمة والشفقه على من كان على التقوى من أصحابهم ثم
بدل وغير وصار فاسقا شريرا يستعيذ الناس من شره

فإن أحوج مايكون إليك أخوك إذا عثرت دابته .

فإذا الأحوج أولى بالرحمة منك من المستقيم لعدم حاجة المستقيم إلى من يأخذ بيده .

وهذا الخلق من أعظم أخلاق الفقراء الصادقين .

وأما الكاذبون ، فربما مقتوا من غير وبدل ، ونفروه منهم ، ومن أصحابهم كل التنفير ، حتى صار يحط فى الشيخ ، وفى أصحابه عند كل من سأله عن سبب مفارقته لهم ويقول : لو رأينا منهم خيرا مافارقناهم ، فيهلك نفسه بالتزكية لنفسه ، والتنقيص لشيخه وأصحابه ثم يرجع إثم ذلك على الشيخ وأصحابه لقلة سياستهم .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم طيب نفوسهم بإعطاء القط أو الكلب ورك الدجاجة
أو قطعة اللحم إذا وقف ينظر إليهم وهم يأكلون

لاسيما إن كان للهرة أو الكلبة أولادا صغار ، فإنها تحتاج إلى ما يكثر لبنها لأجل كفاية أولادها وفي الحديث : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » .

وكذلك من أخلاقهم أن لا يتبعوا الهرة أو الكلب إذا خطف الأوزة أو الدجاجة المحمرة ، ويرون أن تلك الدجاجة إذا أرهبوا الهرة أو الكلبة مثلا لا تجيء كفارة لإرعابها ثم إنهم يرجعون بعد ذلك على أنفسهم باللوم ويقولون لها لولا معرفة الهرة بخالك وعدم افتقادها كلما وقفت بين يديك وأنت تأكلين ماخطفت شيئا فاللوم عليك لا على الهرة .

فعليك يا أخي الإحسان إلى الحيوان حتى النمل بالطريق الشرعي ، فإنه ما أقام عندك الا يرجو إحسانك وعطفك إليه .

فارم للهرة أو الكلب شيئا منه ، وخل لها على العظام بعض لحم وحقق ظنها فيك الخير .

ثم إن أولى الناس بالعمل بهذا الخلق الفقراء ، وحملة القرآن لأنهم قدوة للناس[1] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول رسول الله ﷺ : (إنما أنا رحمة من مهداة) ولهذا تعتبر الرحمة من أهم أهداف الرسالة الإسلامية ، وقد تمثلت في سيدنا رسول الله ﷺ تمثلا كاملا ، وما كان قول الله سبحانه وتعالى عنه بدعا من القول عندما خاطبه قائلا : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

لقد شملت رحمة رسول الله ﷺ كل العوالم التي خلقها الله سبحانه وتعالى ، ولم تقتصر على الأهل والأصدقاء كما هو المعتاد بل لم تقتصر على بني الإنسان فحسب بل تعدت رحمته إلى الحيوان كذلك .

والله سبحانه وتعالى الذي يصف نفسه بالرحمة في كل شيء كما ترى ذلك في مفتتح كل سورة (بسم الله الرحمن الرحيم) بل وفي مفتتح كل شيء (بسم الله الرحمن الرحيم) .

. . . .

يقول عنه : (وكان بالمؤمنين رحيما) .

والله : (خير الراحمين) .

وهو سبحانه (خير الغافرين) .

والله سبحانه وتعالى : (كتب على نفسه الرحمة) ويطلب الله سبحانه وتعالى ألا نقنط من رحمته : (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله) .

أما إذا قنط الإنسان من رحمة ربه فإنه يكون من الضالين :

قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون .

إن الله سبحانه يصف نفسه بالرحمة فى أكمل معانيها فكان رسوله الذى اختاره هداية العالمين ممثلا لهذه الرحمة فى أكمل معانيها أيضا .

يقول رسول الله ﷺ وسلم مخبرا عن نفسه (إنما أنا رحمة مهداة) .

ويروى الإمام مسلم فى صحيحه : قيل يا رسول الله أدع على المشركين ، قال : (إنى لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة) .

والواقع أن الذى يمثل هذه الصفة فى سيدنا رسول الله ﷺ أصدق تمثيل قول السيدة خديجة رضوان الله عليها لسيدنا رسول الله ﷺ ـ فيما رواه البخارى : (إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق) .

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه رحيما بالصغار :

(رأى أحد الأعراب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل أحد أحفاده فقال باستغراب : أتقبلون أبناءكم ؟ إن لى عشرة من الأولاد ماقبلت واحدا منهم قط .

فأفهمه صلى الله عليه وسلم باستهجان أن الله قد نزع الرحمة من قلبه) .

وكان صلوات الله وسلامه عليه رحمة بالحيوان :

(مر رسول الله ﷺ على بستان رجل من الأنصار فدخل فإذا جمل يئن وتذرف عيناه فأتاه النبى صلى الله عليه وسلم ، فمسح عليه فسكت ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رب هذا الجمل ؟ .

فجاء فتى من الأنصار فقال : هذا لى يارسول الله .

. . . . . .

فقال له : ألا تتقى الله عز وجل فى هذه البهيمة التى ملكك الله ؟ إنك تجيعه وتؤديه .
فخجل الأنصارى .

على أنه إذا كانت هذه صفات سيدنا رسول الله ﷺ بالنسبة للرحمة فى شخصه فإن رسول ﷺ كان رحمة مهداة للعالمين ، كان يحث على الرحمة ويدعو إليها وما كان قول الله تعالى عنه : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ؛ فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) جزافا من القول ، فإن هديه ﷺ بالنسبة للرحمة كان مستمرا فى كل وقت وفى كل حين .

فى بعض المرات كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث القوم عن الرحمة ويحث عليها فقال له بعض أصحابه إننا نرحم أزواجنا وأولادنا وأهلينا .

ولكن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى أن هذا الفهم قاصر عن الصورة التى يريدها فعقب عليهم بقوله :

ماهذا أريد إنما أريد الرحمة العامة .

إنه يريد أن تتغلغل الرحمة فى كيانهم حتى تصبح طبيعتهم فى حذلتها .

ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى فى حديث قدسى : « اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي فإنى جعلت فيهم رحمتى ولاتطلبوه من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سخطى» .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه : لاتنزع الرحمة إلا من شقى » .

ويقول : الراحمون يرحمهم الرحمن .

ومن أخلاقهم حضورهم بقلوبهم مع الله تعالى حال أكلهم وشربهم وشهودهم أن ذلك من جملة فضل الله تعالى عليهم ، وأنهم لا يستحقون شيئا من ذلك ذرة بل لايقومون بواجب حقه تعالى لو سفوا الرماد .

ثم إن وقع أن أحدا منهم أكل أو شرب غافلا استغفر الله تعالى .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

ما أسبغ الله تعالى علينا النعم بالأصالة الا ليجمع قلوبنا عليه ، ونراه هو المحسن الحقيقى ، فلا نعول على أحد من خلقه ، فمن لم يحضر مع الله تعالى بقلبه ، فقد أخطأ الطريق ، وربما حول الله تعالى عنه النعمة ، وأنزل به ما يسوءه ، ليرجع إليه قال الله تعالى (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) (١)

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله أيضا يقول :

الطعام كالصلاة فى حضور القلب مع الله تعالى ، وكفى بالمرء كفرانا أن لايحضر بقلبه بين يدى من أحسن إليه .

وسمعته أيضا يقول : ماواظب أحد على الحضور فى أكله وشربه إلا أعز له ذلك القناعة والرضا من الله فى الدنيا .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٦٨ .

ومن أخلاقهم عدم تكدرهم ممن ذهبوا إلى زيارته فلم يأذن لهم فى الدخول عملا بقوله تعالى « وإن قيل لكم إرجعوا فارجعوا هو أزكى لكم (١)

فشىء جعله الحق تعالى أزكى لهم كيف يليق بمؤمن أن يتكدر منه .

وهذا الخلق لايكون إلا لمن كملت رياضة نفسه ، حتى لم يصر يرى أحدا دونه فى قلة

---

(١) وتمام الآيات : « ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحدا فلاتدخلوها حتى يؤذن لكم . إن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ماتبدون وما تكتمون» الآيات ٢٧ — ٢٨ — ٢٩ من سورة النور .

يقول الإمام ابن كثير فى تفسير هذه الآيات : هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين ، وذلك فى استئذان أمرهم أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأنسوا أى يستأذنوا . قبل الدخول ويسلموا بعده ، وينبغى أن يستأذن ثلاث مرات ، فإن أذن له وإلا انصرف كما ثبت فى الصحيح . أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثا ، فلم يؤذن له انصرف ، ثم قال عمر : ألم تسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن ائذنوا له .

فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ماأرجعك ؟ قال : إنى استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى ، وإنى سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فلينصرف » .

فقال عمر : لتأتينى على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضربا ، فذهب إلى ملأ من الأنصار فذكر لهم ماقال عمر ، فقالوا : لايشهد لك إلا أصغرنا ، فقام معه أبو سعيد الخدرى فأخبر عمر بذلك ، فقال : ألهانى عنه الصفق بالأسواق .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبدالرزاق ، أخبر عمر عن ثابت عن أنس أو غيره أن النبى صلى الله عليه وسلم استاذن على سعد بن عبادة فقال : « السلام عليكم ورحمة الله » .

فقال سعد : وعليك السلام ورحمة الله ، ولم يسمع النبي صلى الله عليه وسلم حتى سلم ثلاثا ورد عليه سعد ثلاثا ولم يسمعه فرجع النبي صلى الله عليه وسلم ، فاتبعه سعد فقال :

الدين ، وأما من لم يرض نفسه فمن لازمه غالبا التكدير ، ولا يكاد يتذكر قول الله تعالى أن ذلك أزكى له أبدا .

وربما رجع يهجوا صاحب الدار ويقول : أنا الظالم الذى أمشى إلى مثل فلان .

وكل ذلك جهل كما وضحناه فى كتاب المنن الوسطى والحمد لله العالمين .

يارسول الله بابى أنت وأمى ماسلمت تسليمة إلا وهى بإذنى ؛ ولقد رددت عليك السلام ولم أسمعك ، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة ، ثم أدخله البيت فقرب إليه زبيباً فأكل نبى الله فلما فرغ قال « أكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة وأفطر عندكم الصائمون » .

ومن أخلاقهم عدم دق الباب على أخيهم الا لضرورة شرعية

عملا بقوله تعالى : (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم)(١)
وهو وإن ورد فى رفع الصوت من وراء الحجرات فدق الباب مثله .

بل وربما كان المقصود بالزيارة فى حضور قلب مع الله تعالى فى حضرة خشعت فيها الأصوات ، فيكون دق الباب على ذلك الفقير أشد من ضربه بالسيف كما جربنا ذلك .

وكثيرا ما يضيق وقت الفقير عليه ، فلا يصير يقدر على لقاء أحد من الخلق إلا

---

(١) وتمام الآيات : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ، إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم) الآيات : ٢-٣-٤-٥من سورة الحجرات
قوله تعالى : (لا ترفعوا أصواتكم) فى سبب نزولها قولان .

القول الأول : أن أبا بكر وعمر رفعا أصواتهما فنزلت وهذا قول ابن أبي مليكة .

وقد روى البخارى فى صحيحه ٨/٤٥٢ باب (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي.) الآية من حديث نافع عن ابن أبي مليكة قال : كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بنى تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخى بن مجاشع وأشار الآخر برجل ، آخر ، قال نافع : لا أحفظ إسمه ، فقال أبو بكر لعمر ما أردت إلا خلافى ، قال : ما أردت خلافك ، فارتفعت أصواتهما فى ذلك ، فأنزل الله : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم ...) الآية قال ابن الزبير : فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه ، ولم يذكر ذلك عن أبيه ، يعنى أبا بكر . اهـ .

وفى رواية للترمذى : وما ذكر ابن الزبير جده وفى رواية الطبرى . وما ذكر ابن الزبير جده يعنى أبا بكر . اهـ .

والحديث أورده السيوطى فى الدر ٦/٨٤ وزاد نسبته لابن المنذر ، والطبرانى عن ابن أبي مليكة .

القول الثانى : أنها نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس ، وكان جهورى الصوت ، فربما كان إذا تكلم تأذى رسول الله ﷺ بصوته) قاله مقاتل .

بتكلف زائد ، فإن أقبل على الخلق وأعطاهم حظهم من الإقبال ضر نفسه ، وفرق جمعيته وإن لم يقبل عليهم فربما مزقوا عرضه ، فمزق الله تعالى أديانهم بل نفس تمزيق عرض أخيهم تمزيق لأديانهم .

فينبغى للإنسان أن يحمل من لم يجبه من داخل الدار على أحسن المحامل ، فربما كان له ضرورة لايقدر على إفشائها .

ثم من علامته أن له ضرورة عدم خروجه إلى صلاة الجماعة أو الورد مثلا والحمد لله رب العالمين .

ورواه الواحدى فى (أسباب النزول) ٢١٨ بغير سند ، ولم يعزه لأحد . وحديث ثابت بن قيس بن شماس رواه البخارى فى (صحيحه) ٨/ ٤٥ من حديث موسى بن أنس ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبي ﷺ افتقد ثابت ابن قيس ، فقال رجل : يا رسول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده جالسا فى بيته منكسا رأسه ، فقال له : ما شأنك فقال : شر ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله وهو من أهل النار ، فاتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا ، فقال موسى (يعنى بن أنس) فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة ، فقال : « إذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة » ورواه مسلم من رواية حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وأورده السيوطى فى الدر ٨٤/٦ وزاد نسبته لأحمد ، وأبى يعلى فى معجم الصحابة وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

وسبب نزول « إن الذين يغضون أصواتهم » أنه لما نزل « يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » قال أبو بكر الصديق : يارسول الله آليت ألا أكلمك إلا كأخى السرار حتى ألقى الله .

قال الحافظ بن حجر فى تخريج الكشاف وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق طارق بن شهاب عن أبى بكر قال. وروى الرواية السابقة .

قال : وأخرجه الحاكم والبيهقى فى المدخل من حديث أبى هريرة قال : لما نزلت « الذين يغضون ... » الآية قال أبو بكر : والذى أنزل عليك الكتاب يارسول الله لا أكلمك إلا كأخى السرار حتى ألقى الله عز وجل ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

ومن أخلاقهم : صحة توجههم إلى الله تعالى فى دفع الدنيا عنهم كلما أقبلت المعتقد عليهم من الأمراء ، والأكابر وخدموهم ، وأهدوا لهم الهدايا ، والتحف ، وذلك خوفا أن يكون ذلك حظهم من الأعمال الصالحة .

وقد دخل بعض الصحابة على سيدى رسول الله ﷺ فرأوه يدفع شيئا عن نفسه ولا يرى أحدا

فقال : يارسول الله ما هذا ؟

فقال : الدنيا تطاولت لى فقلت لها : إليك عنى رواه البيهقى انتهى .

وهذا خلق غريب فى هذا الزمان وربما أدعاه أحـــد بغير حق ، فليمتحن الناصح لنفسه نفسه بما لو أوصى له شخص بألف دينار مثلا ، فجاء شخص من أعدائه وقال للوصى هذا شخص فاسق لا يستحق شيئا من ذلك ، ومحى اسمه ، وأعطى الألف لأحد من أقرانه فإن انشرح صدره لذلك ، فهو صادق فى الزهد فى الدنيا ، وإن تـكدرت منه شعرة ، فهو كاذب .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

كل من لم يزدد محبة فيمن صد عنه الدنيا وأهلها فهو نصاب شيطان انتهى .

وقد وقع لأخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى إن شخصا أوصى له بثمانية دنانير وكتب اسمه فى الوصية .

فقال لى : إن رددتها أورثنى ذلك التعظيم فى الدنيا وإن قبلتها صار على حسابهـا ولكن قل معى يا الله اجعل صاحبها يحولها عنى من ذات نفسه ويعطيها لغيرى فبعد ساعة جاء شخص وقال له : إن صاحب الوصية حولها إلى غيرك فقال أخى : الحمد لله على ذلك لو كان أخى المذكور منفعلا فى الزهد ما قدر على توجه قلبه إلى محبة تحويل الدنيا عنه أبدا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تنبيه الحق تعـــالى مايأكلونه من الحرام بعلامات
يعرفهـــم اياها

فيأخذوا فى القيء إن أمكنهم والا أخذوا فى التوبة والاستغفار .

ومن العلامات أن يكون للشرع على ذلك الطعام إعتراض من حيث وضع اليد عليه
ومنها وجود الظلمة فى قلوبهم ، والثقل فى طبيعتهم ، حتى كأن أحدهم أكل رصاصا .
ومنها أن يقوم أحدهم من النوم ، فيمكث ساعة حتى يستيقظ كما يقع لمن يأكل الربا
ومنها أن تتعب نفوسهم من أكله فيتقيؤه قهرا عليهم من غير معالجة ، ويقع لى ذلك
كثيرا لما آكل من طعام المباشرين فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة الخوف من أكل الحرام والشبهات

خلاف ماعليه طائفة من مشايخ هذا الزمان فقد رأيت شخصا منهم يفطر عند مكاس في رمضان وهذا لايليق بمن جعله الله تعالى قدوة للناس فى هذا الزمان ولمّا حدثته في ذلك فكان من جوابه البحر لايكدره الدلاء ولا ينجسه بول حمار فعلمت أنه بحاله هذا مفتون ولو أنه كان شم رائحة طريق أهل الله تعالى لم ينطق بمثل ذلك .

وقد كان سيدى ابراهيم المتبولى رحمه تعالى يقول : للقمة الحرام أو الشربة أثر عظيم فى قلوب الآكلين بحسب مراتبهم .

فأثرها فى قلوب العوام وقوعهم فى أعمال مذمومة لم يكن لهم عادة بفعلها .

وأثرها فى طلبة العلم ، والمريدين قسوة فى القلب ، وثقل فى الطبيعة .

وأثرها فى المتوسطين غفلتهم عما يعود عليهم نفعه من مصالح الدارين .

وأثرها فى الكاملين كثرة الخواطر التى لامنفعة فيها لهم .

وأثرها فى الكملين منهم من دخول حضرة الله تعالى بقلوبهم بصلاة أو غيرها .

وأثرها فى القطب والامامين ، والأوتاد ، والأبدال أمور يذوقونها ، ويستغفرون الله تعالى منها

فإياك يا أخى ، وترك التورع ، ثم إياك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن يقولوا بتوجه تام كلما قدم لهم طعام يخافون أن يكون فيه شبهة

اللهم احمنا من الأكل من هذا الطعام ، فإن لم تحمنا فلا تجعله يقيم فى بطوننا ، وإن جعلته يقيم فى بطوننا ، فاحمنا من الوقوع فى المعاصى التى تنشأ من أكل الحرام عادة ، فإن لم تحمنا من المعاصى ، فاقبل استغفارنا ، وتب علينا من ذلك ، وأرض عنا : أصحاب التبعات التى فى هذا الطعام فى نفس الأمر ، فإن لم ترضهم عنا ، فاعف عنا ، فإن لم تعف عنا ، فصبرنا على العذاب يا أرحم الراحمين والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم اطعامهم الضيف شيئا فيه شبهة

فإن الله تعالى لم يكلف أحدا أن يضيف الا من الحلال .

ولو قدر أن الضيف طلب الضيافة من الشبهات لايجيبونه إلى ذلك كما لايجيب الولى الطفل إلى كل مادعت إليه نفسه مما يضر بدنه أو دينه .

فعلم أنه لاينبغى العتب على فقير فى هذا الزمان من جهة عدم اطعامه الطعام للواردين عليه ، فربما كان لايرضى ذلك الطعام للواردين عليه .

ثم إن هذا الخلق لايقدر على العمل به إلا من خرج عن الحياء الطبيعى وإلا فمن لازمه غالبا إطعام الناس الحرام والشبهات كهدايا مشايخ العرب والكشاف لذلك الفقير لاعتقادهم فيه الصلاح ، ونحو ذلك .

وقد كان سيدى على الخواص كثيرا مايقدم للضيف الإبريق ويقول له :

إن شئت فاشرب فإنى لم أجد لك الآن شيئا حلالا أطعمك منه ، وربما أعطى الضيف لقمة يابسة ، أو تمرة فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم التفاخر بكثرة اطعامهم الطعام حبـا فى نشر الصيت بذلك

كما يقع فيه من يتمشيخ بغير شيخ ، فإن كثرة طعام الفقير تدل على قلة ورعه .

وقد رسمت مرة النقيب حين جاءنا قصع كبار وقال لى :

مقصودنا علامة عليها لتعرف إذا سرقت .

فقلت له : أكتب عليها بالنار كبر القصع من قلة الورع ، فكتبها فلم تزل تلك الكتابة عليها ، حتى تكسرت ، فكنت أتذكر فيها قلة ورعى كلما رأيتها ملآنة من الطعام والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تقليل الطعام جداً فى رمضان للضيف إرشاداً له إلى الخير ، ولو تكدر هو من ذلك ، ودمنا فى المجالس لانلتفت إليه ، وذلك لأن سر الصوم ونوره فى الجوع .

وكل من قدم لضيفه فى رمضان قدر مايقدم له أيام الفطر ، فقد أساء فى حقه ، وهو يحسب أنه يحسن صنعا .

فاشفق يا أخى على دين ضيفك ، ولا تكن سببا فى نقصان أجره ، فإنه ولو ذمك فى الدنيا سوف يمدحك فى الآخرة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم تكلفهم للضيف

وذلك بأن يقدموا إليه مالا تتبعه نفوسهم مما دخل تحت يدهم ، فلا يذبحون دجاجة زوجتهم ، ولاعناق خادمهم مثلا ، ويقولون : نعوض عليكم ، فإن ذلك من التهور في الدين

وقد وقع أن سيدى عبد العزيز الديرينى ذبح دجاجة زوجته لمـــا زاره سيدى على المليجى (١) فلما استوت وقدمها إليه سمع سيدى على زوجة سيدى عبد العزيز تقول ما كان لنا حاجة بهذا الذى أكل الدجاجة التى كانت تبيض الاولاد فتوجه سيدى على إلى الله تعالى وقال للدجاجة قومى بإذن الله تعالى فقامت حية وأخذ المرق ففت فيه الخبز وأكتفى به وقال لسيدى عبد العزيز الديرينى ألا تطعم فقير إلا مما ليس فيه شبهة تبعه انتهى .

واعلم يا أخى أن من (   )(٢) يكره لقاءه وهرب ولو على طول .

ثم إن قدر أن نفس صاحب الدار طيبة بذلك ، فالعيال لايطيقون المداومة على الطبخ والعجين والخبيز ، فيصير يُكره زوجته مثلا على طبخ الطعام ، وهى داعية ساخطة فلا يبارك الآكل منه .

ثم إن أكثر مايقع فى مثل ذلك شيوخ البلاد وأولاد الفقراء الذين يطلبون الصيت لأغراض دنيويه .

وقد بسطنا على ذلك فى كتاب العهود والحمد لله رب العالمين .

---

(١) هو سيدى على المليجى رضى الله عنه : كان من أصحاب الشيخ أبو الفتح الواسطى الذى كان من أصحاب سيدى أحمد الرفاعى فأشار إليه بالسفر إلى الإسكندرية فكان له بها كثير من المريدين وكان سيدى على المليجى معاصرا السيدى أحمد البدوى رضى الله عنه وكان سيدى أحمد البدوى إذا أرسل سيدى عبد العال فى حاجة له يقول له : إذا وصلت إلى جزور فاخلع نعالك فإن هناك خيام المليجى وذلك من عظم مقامه رضى الله عنه .

(٢) مطموس من الأصل .

ومن أخلاقهم عدم الصلاة فى ثوب اشتغل الخياط عن الصلاة بخياطته مهما كان ذلك لأجل استعجاله له أو كان من عادته ترك الصلاة .

وكذلك لا يصلون فى ثوب بلغهم أن الخياط استعمله فى حرام .

وقد وقع لى أن شخصا خاط لى جبة (   ) [1] وخطتها عند غيره ثانيا احتياطا للصلاة فيها .

ولم أر لهذا الخلق فاعلا من أقرانى إلا قليلا فالحمد لله رب العالمين .

(١) مطموس من الأصل .

ومن أخلاقهم هدم أعلامهم المعارف بما يريدون أن يعملوه من الولايم فلا يعلموهم الا بعد طبخهم الطعام وذلك خوفا أن يتكلف أحد من معارفهم ، ويساعدهم بغير نية صالحة ، فيصير لهم المنة عليهم ، ولا يحصل المساعد شيء من الأجر وإن خافوا أن أحدا من النقباء يعلم بذلك المعارف أو صره بالسكوت عن ذلك ، وهذا مادرج عليه السلف الصالح الذين أدركناهم خلاف ماعليه متصوفة هذا الزمان فإذا أراد أحدهم أن يزوج ولده أو يختنه أو يعمل عقيقة أعلم بذلك سائر المعارف والأمراء والتجار ومعلوم أن أعلام مثل هؤلاء سؤال فى المساعدة عند كل عاقل ، فربما تكلف أحدهم ، وأرسل بقرة ، أو خروفا ، أو عسلا ، أو أرزا ، أو سمنا ، أو حطبا ، وصار طعاما مجمعا من حرام وحلال ، ثم يصير سيدى الشيخ يطعم الناس من ذلك وعليه حسابه يوم القيامه ، وربما يرى لنفسه المنة بعد ذلك على من أكل مع أنه أتلف أديانهم وسود باطنهم بذلك الطعام .

وكان سيدى على الخواص لايحضر وليمة عملها فقير لايكلفها ويقول :

إن هذا يأكل بدينه هذا إذا فعل الطعام من غير سؤال الناس لايفوته المباشرين ومشايخ العرب والكشاف بل رأيت من يبلص فى عمل مولده من حمزة المشاعلى .

فالحمد لله الذى حمانا من مثل ذلك ، وقد علم مما قررناه أن كل من عمل له مولدا وأخذ كلفته من الناس ، فهو نصاب شيطان مغتر كذاب لم يشم من طريق القوم رائحة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم شهامة النفس واليقظة لكل مايدخل جوفهم من طعام للمريدين

ولا يأكلون إلا من طعام من يتورع منهم فى كسبه ولو أنه غضب منهم لا يلتفتون إليه ولا لقوله كسر تم خاطرنا فإنه جاهل بمقام الأشياخ وهذا الخلق قل من يتمسك به من مشايخ هذا العصر بل رأيت من يأكل من طعام مريده المكاس وإذا سئل فى ذلك قال : خفت أن أكسر خاطره ، وماعبد الحق تعالى بشىء أفضل من جبر الخواطر انتهى .

وهذا من الجهل بقواعد الشريعة ولافرق حينئذ بينه وبين من عزم عليه شخص بأن يشرب معه الخمر فلو قال : إنما شربت جبرا لخاطره حددناه ، ولم نقبل له عذرا ، وحكمنا بفسقه فالعاقل من وزن فعاله بالشريعة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم التداوى بإشارة كافر

خوفا أن يوافق ماوصفه الشفا ، فيحصل لهم الميل إليه ، فلا يصير أحدهم يقدر على عداوته كما أمر الله تعالى وهذه نكتة تخفى على كثير من الفقراء الساذجين .

وكانوا إذا لم يجد أحدهم طبيبا من المسلمين صبر واحتسب هذا مادرج عليه السلف الصالح .

وسمعت سيدى أبا السعود الجارحى رحمه الله يقول :

من كان يوفى بالعهود فلا يستطب باليهود .

فإياك ياأخى أن تستطب بكافر ، فتقع فى الميل إليه قهرا عليك والحمد لله رب العالمين

ومن أخلاقهم الرضى بالبلاء والنظر فى عاقبته

وفى الحكمة (   )(١) الحق تعالى فيه لأنه لايخلوا إما أن يكون .
عاقبة لذنب فيكون البلاء تكفيرا له .
وإما رفع درجات .
فلا يخلوا البلاء عن واحدة منهن ولكل واحدة علامة .
فعلامة الابتلاء عقوبةً على ذنب أن يشعر المذاب بالهم والقلق والسخط .
وعلامة الابتلاء تكفيراً للذنب أن يصحبه الصبر .
وعلامة الابتلاء لرفع الدرجات أن يصحبه الرضى وانشراح الصدر حتى يتمنى دوامه
ثم إن هذه العلامات الثلاث تتوارد على الفقراء إذا لم يحفظوا من المعاصى فإن حفظوا
منها توارد عليهم العلامتان الباقيتان ماعدا الأولى والحمد لله رب العالمين .

(١) مطموس من الأصل .

ومن أخلاقهم إذا دخلوا علي مريض يعودونه أن يتحملوا عنه المرض
أو شيئا منه من باب تعلق السبب على المسبب

والا فلا يصح لأحد أن يتحمل عن أحد ماقدره الحق تعالى عليه أبدا ، ويحمله العايد للمريض حقيقه ليس هو عين مرض المريض ، وإنما هو نظيره ، ومع ذلك فيؤجرون عليه بالنية الحسنة ، كما يؤجر من عزم على فعل خير ، ثم لم يتمم له ، فيعطيه الله تعالى أجر نيته لحديث « إنما الأعمال بالنيات[1] » فإنه قال فيه « وإنما لكل امرىء مانوى » وماقال وإنما لكل امرىء ماعمل .

وهذا مادرج عليه السلف الصالح خلاف ماعليه غالب فقراء هذا الزمان ، فيدخلون على المريض ، ثم يخرجون من عنده ، ومرضه على حاله مانقص منه شيء .

وممن أدركته من أهل هذا الخلق سيدى على الخواص ، وسيدى محمد بن عنان ، والشيخ محمد العدل ، والشيخ عبد الحليم بن مصلح ، فكانوا إذا لم يقدروا على التحمل يدعون له ، ولا يدخلون عليه[2] .

---

(١) وتمام الحديث : عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه » رواه البخارى ومسلم .

(٢) قد يستغرب القارىء العزيز هذا الخلق بالنسبة لسادتنا الصوفية ولكننا نعتقد أن هذا الإستغراب سيزول فى الحال بقراءة متأنية للتعليق الذى اخترناه من كتاب المختار من الأنوار فى صحبة الأخيار » للإمام عبد الوهاب الشعرانى وتحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة والأستاذ طلعت غنام حيث يبين لنا هذا الكتاب فضل الصحبة فى الله وأسانيد الصوفية لها من الكتاب والسنة وحقوق هذه الصحبة وشروطها بأبلغ بيان .

يقول الإمام الشعرانى :

اعلم وفقنى الله وإياك إلى مايحب ـ : أن الصحبة فى الله تعالى من أوثق عرى الإسلام ، ومن أكبر أبواب الخير ، وقد رغب العلماء فيها سلفا وخلفا .

وقد تقدم قريبا أنه لاينبغى المبادرة إلى الدعاء للمريض برفع المرض عنه إلا بعد انتهائه سواء أكان عقوبة أو كفارة أو رفع درجات لكن هذا خاص بأهل الكشف

وأمامن حذر منها وقال : إن العزلة أقرب إلى السلامة من الآفات ، وأبعد من تحمل الحقوق فى المخالطات وأجزأ للإشتغال بالطاعات ، فإن ذلك فى حق المريد مادام قاصرا ، فإذا انتهى سلوكه وكمل حاله كان الأفضل فى حقه « الخلطة » بل ـ « الخلطة » فى حق مثل هذا واجبة كما قال بعضهم .

فعلم أنه لايقال : العزلة أفضل مطلقا .

ثم لايخفى أن صحبة الأدنى للأعلى ليست بصحبة فى الحقيقة وإنما هى تعليم وخدمة ، إذا صاحب الإنسان من هو يشرب من بحره ويحيط بمقامه .

فإطلاق الصحبة بين المريد والشيخ والصحابى والرسول عليه السلام ، إطلاق مجازى لاحقيقى .

إذا علمت ذلك ، فنورد عليك شيئا من الأخبار الواردة فى فضل المتحابين فى الله تعالى لأن القلب يقوى بالاطلاع على الدليل :

روى الشيخان فى صحيحيهما : « سبعة يظلهم الله فى ظله ، يوم لاظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق فى المساجد .

ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه .

ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ! ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » .

وروى مسلم : « والذى نفسى بيده ! لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا .. ولن تؤمنوا حتى تحابوا .

أولا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم .

وروى أيضا : « أن رجلا زار أخا له فى قرية أخرى ، فأرصد الله على مدرجته ملكا، فلما أتى عليه قال : أين تريد .. ؟ .

قال : أريد أخا لى فى هذه القرية .

قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال : لاغير أنى أحبه فى الله .

قال : فإنى رسول الله إليك ، إن الله أحبك كما أحببته فيه .

التام ، وأما من لا كشف عنده ، فيدعوا ، ويرجوا من الله تعالى الإجابة والحمد لله رب العالمين .

وروى ابن عساكر وغيره : « سبعة فى ظل العرش » يوم لاظل إلا ظله :
رجل ذكر الله ففاضت عيناه .
ورجل يحب عبد لايحبه إلا لله .
ورجل قلبه معلق بالمساجد من شدة حبه إياه : ورجل يعطى الصدقة بيمينه فيكاد يخفيها عن شماله ، وإمام مقسط فى رعيته ، ورجل عرضت عليه امرأة نفسها فتركها لجلال الله ، ورجل كان فى سرية مع قوم فلقوا العدو ، فانكشفوا ، فحمى آثارهم فى حتى نجوا ونجا أو استشهد.
وروى البيهقى فى الأسماء : (سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لاظل إلا ظله .
رجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله .
ورجلان تحابا فى الله .
ورجل غض عينيه عن محارم الله ، وعين حرست فى سبيل الله وعين بكت من خشية الله)
وروى أيضا فى شعب الإيمان : « رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس !
وأهل التودد فى الدنيا لهم درجة فى الجنة !
ومن كانت له درجة فى الجنة فهو فى الجنة) .
وروى أيضاً: رأس العقل بعد الايمان التحبب إلى الناس واصطناع الخير إلى كل بر وفاجره
وروى الدارقطنى : (المؤمن يألف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف) .
(وخير الناس أنفعهم للناس) .
وروى أبوداود : (من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الايمان) .
وروى أيضاً : (أفضل الايمان أن تحب لله وتبغض لله . وتستعمل لسانك فى ذكر الله .
وأن تحب للناس ماتحب لنفسك ، وتكره لهم ماتكره لنفسك . وأن تقول خيراً أو تصمت) .
وروى الامام أحمد : (أن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون لجلالى : ؟ اليوم . أظلهم فى ظلى) .

. . . . . .

وروى أيضاً : (المؤمن الذى يخالط الناس ، ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم) .

وروى أيضاً : (إن أوثق عرى الاسلام أن تحب فى الله وتبغض فى الله) .

وروى أيضاً بسند صحيح : (إن المتحابين فى الله لترى غرفهم فى الجنة كالكوكب الطالع الشرقى أو الغربى .

فيقال : من هؤلاء ..؟ فيقال : هؤلاء المتحابون فى الله) .

وروى أيضاً : (أحب الأعمال إلى الله الحب فى الله ، والبغض فى الله) .

وروى أيضاً : (من سره أن يجد حلاوة الايمان فليحب المرء لايحبه إلا لله) .

وروى الطبرانى : (رأس العقل بعد الايمان بالله التحبب إلى الناس) .

وروى أيضاً : (إن المتحابين فى الله فى ظل العرش) .

وروى أيضاً : (المتحابون فى الله فى ظل العرش يوم لاظل إلا ظله) .

وروى أيضاً قول الله تعالى فى الحديث القدسى (وجبت محبتى للمتحابين فى ، والمتجالسين فى ، والمتباذلين فى والمتزاورين فى) .

وروى أيضاً : (لو أن عبدين تحابا فى الله ، واحد فى المشرق وآخر فى المغرب ، لجمع الله بينهما يوم القيامة ، يقول : هذا الذى كنت تحبه فى » .

وروى أيضا : « ماتحابا رجلان فى الله ، إلا يجلسهم يوم القيامة على منابر من نور ، يغشى وجوههم النور ، حتى يفرغ من حساب الخلائق » .

وروى أيضاً : « من أحب قوما حشر فى زمرتهم » .

وروى أيضا : « المتحابون فى الله فى ظل الله ، يوم لاظل إلا ظله ، على منابر من نور ، يفزع الناس ولا يفزعون » .

وروى أيضاً : « إن لله عباداً ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله .

قيل : من هم يارسول الله ؟

قال : ناس من بلدان شتى ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا فى الله وتصافحوا ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلسهم عليها ، يفزع الناس ولا يفزعون » .

. . . . . .

وروى أيضاً : « ليبعثن الله أقواما يوم القيامة فى وجوههم النور ، على منابر اللؤلؤ ، يغبطهم الناس ، ليسوا بأنبياء ، ولا شهداء !

قيل : من هم . . ؟

قال : المتحابون فى الله ، من قبائل شتى ، وبلاد شتى ، يجتمعون على ذكر الله يذكرونه .

وروى أيضاً : (إن فى الجنة غرفا يرى ظواهرها من بواطنها وبواطنها من ظواهرها ، أعدها الله للمتحابين فيه ، والمتزاورين فيه ، والمتباذلين فيه) .

وروى : (إن فى الجنة لعمدا من ياقوت عليها غرف من زبرجد ، لها أبواب مفتحة تضىء كما يضىء الكوكب الدرى !

قال : قلنا يا رسول الله ، من يسكنها . . ؟

قال : المتحابون فى الله ، والمتباذلون فى الله والمتلاقون فى الله)

وروى الترمذى ـ وقال : حديث حسن صحيح ـ : (قال الله تعالى : المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور ، يغبطهم النبيون والشهداء) .

وروى أيضاً : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان . من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله .

ومن يكره أن يعود فى الكفر ، بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف فى النار)

وروى أيضاً : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)

وروى ابن النجار : (استكثروا من الإخوان ، فإن لكل مؤمن شفاعة يوم القيامة) .

وروى الحكيم : (نظر الرجل لأخيه على شوق خير من اعتكاف فى مسجدى هذا)

وروى ابن أبى الدنيا : (حقت محبتى للمتحابين فى ، وأظلهم فى ظل العرش يوم القيامة ، يوم لا ظل إلا ظلى)

وروى أيضاً : (ما أحدث رجل أخا فى الله إلا أحدث الله له درجة فى الجنة) .

وروى أيضاً : (أصب بطعامك من تحبه فى الله) .

. . . . . .

وروى الحاكم وغيره : « قال الله تعالى : للمتحابون فى على منابر ، يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء » .

وروى البيهقى : « من أحب أن يجد طعم الإيمان فليحب المرء لايحبه إلا لله » .

وروى أيضاً : « إن الله تعالى يقول : إنى لأهم بأهل الأرض عذابا ، فإذا نظرت إلى عمار بيوتى ، والمتحابين فى والمستغفرين بالأسحار صرفت عذابى عنهم » .

والأخبار فى فضل المتحابين كثيرة ونقتصر منها على هذا القدر .

آثار السلف الصالح فى المتحابين

ونذكر لك شيئا منها .

فمن « الحسن البصرى » ـ رحمه الله ـ قال : « كل من اتبع طريقة طاعة الحق ـ تعالى ـ لزمتك مودته ، ومن أحب رجلا صالحا فكأنما أحب الله عز وجل » .

وقال الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ : لولا صحبة الأخيار ومناجاة الحق ـ تعالى ـ بالأسحار ما أحببت البقاء فى هذه الدار .

وقال أيضاً : لقاء الإخوان ليس يعدله عندى شىء .

وقال مطرف بن الشخير : أوثق أعمالى عندى حب الرجل الصالح .

وقال أبو نصر بشر الحافى ـ رحمه الله ـ : عليك بصحبة الأخيار إن أردت الراحة فى تلك الدار ، وتنفك من رق الأغيار .

وقال سيدى أحمد الرفاعى ـ رحمه الله ـ : مصاحبة أهل التقوى نعمة عظيمة ، من نعم الله على العبد :

وقال « أبو السعود بن أبى العشائر ـ رحمه الله ـ : من أراد أن يعطى الدرجة القصوى يوم القيامة فليصاحب فى الله .

وقال شيخ الوفائية ـ رحمه الله ـ : لا تبع ذرة من الحب لله أو فى الله بقناطير من الأعمال .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ « المرء مع من أحب » .

وقال سيدى على وفا : إذا أحببت أخا فى الله ، فاحفظه ، تزدد به ممن أحببته لأجله .

. . . .

وقال الشيخ أبو المواهب الشاذلى ـ رحمه الله ـ : عليك بتكثير سواد القوم ، فإن من كثر سواد قوم فهو منهم .

وقال أيضاً : إذا رأيت نفسك معرضة عن أهل الله فاعلم أنك مطرود عن باب الله .

وقال أيضاً : عليك بصحبه الفقراء فإنه لو لم يكن إلا أخذهم بيدك يوم القيامة ، مع ما يحملون عن أصحابهم فى الدنيا من المصائب ، لكان فى ذلك كفاية ، وكم استغنى بصحبتهم فقير ، وجبر كسير ، وارتفع وضيع ، وستر شنيع ، وهلك ظالم ، وارتفعت مظالم ، وفيهم ورد الحديث : « بهم ترزقون وتمطرون وترحمون » .

وقال الشيخ سليمان الخضيرى ـ رحمه الله ـ من أراد أن يعطى الخير الكثير فليصاحب أهل المراقبة .

وقال سيدى على الخواص ـ رحمه الله ـ : من أراد أن يكمل إيمانه وأن يحسن ظنه فليصاحب الأخيار .

وقال سيدى أفضل الدين ـ رحمه الله ـ عليك بالود فى الله فقد ورد أن الله يقول لعبده : هل واليت لى وليا أو عاديت لى عدوا .

وقال أيضاً : من أراد أن يكون من أكابر أهل المقابر فليصاحب فى الله .

قلت : يؤيده ما حكاه اليافعى فى كتابه « روض الرياحين » عن بعض الأولياء قال : سألت الله تعالى أن يرينى مقامات أهل المقابر ، فرأيت فى ليلة من الليالى كأن القيامة قد قامت ، والقبور قد انشقت ، وإذا منهم النائم على السندس ، ومنهم النائم على الحرير والديباج ، ومنهم النائم على الريحان ، ومنهم النائم على السرر ، ومنهم الضاحك ، ومنهم الباكى .

قال : فقلت يارب لو شئت ساويت بينهم فى الكرامة ؟

فنادى مناد من أهل القبور : يا فلان ، هذه منازل الأعمال أما أصحاب السندس فهم أهل الخلق الحسن ، وأما أصحاب الحرير والديباج فهم الشهداء ، واما أصحاب الريحان فهم الصائمون ، وأما أصحاب الضحك فهم التائبون ، وأما أصحاب البكاء فهم المذنبون ، وأما أصحاب المراتب فهم المتحابون فى الله تعالى .

قال اليافعى : هكذا ذكر فى الأصل الذى نقلت منه ، أعنى فسر أصحاب المراتب ، ولم يتقدم للمراتب ذكر ، وتقدم ذكر السرر ولم يفسر أصحابها ، فلعله أراد بالمراتب

. . . .

السرر المتقدم ذكرها، لأن حقيقة المراتب هى المناصب الشريفة ، والمقامات العالية المنيفة .

ولاشك أن أصحاب السرر أشرف مرتبة وأعلى منزلة ممن على الأرض ، وإن كان أهل المراتب يجلسون على الحرير وغيره مع السرر المذكورة المعدة للإكرام التى لا تخلو من الفرش المفروشة غالبا ، وإن لم تذكر معها ، كما قال تعالى : «إخوانا على سرر متقابلين» .

فلم يذكر سبحانه الفرش فى هذه الآية ، ومعلوم أن السرر المذكورة عليها الفرش المذكورة فى آيات أخرى .

وإذ قال قائل : جلس الملك على سريره وجلسنا عنده علم من ذلك شيئان :

أحدهما : أن السرير مفروش . الثانى : أن الملك إنما جلس على السرير ليرتفع على من عنده ، برفعه المجلس مع رفعة المملكة ولا يرضى أن يجلس معه على السرير غيره .

قال : فعلى هذا يكون المتحابون فى الله أفضل من سائر المذكورين فى هذه الحكاية .

وقد ورد حديث الترمذى الصحيح : « قال الله تعالى المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » .

وقد ظهر من هذا الحديث ما يؤيد المنام المذكور : أنهم أصحاب المراتب ، وناهيك بها من مراتب ! و أكرم بها من مناصب احتوت على شرف جل قدره ، وعظم فخره ! مع ما لهم من السلسبيل الأهنا والجمال الأسنى ، والنعيم المقيم فى جوار المولى الكريم ! وأما ذكر السرر فى المنام المذكور ، وذكر منابر النور فى الحديث المشهور ، فليس بينهما تناقض ولاقادح مذكور ، فالمنابر تكون فى القيامة والسرر تكون فى القبور ، كما روى فى المنام المذكور .

انتهى كلام اليافعى — رحمه الله تعالى — .

حقوق الصحبة

إعلم — وفقنى الله وإياك لما يحب — : أن حقوق الصحبة كثيرة ولكن نذكر لك جملة من الحقوق التى لا بد منها فى طريق العشرة والمخالطة .

واعلم أيضاً أن المشايخ قد حثوا على الإعتناء فى حقوق الإخوان ، وقالوا : من ضيع حقوق إخوانه ، ابتلاه الله تعالى بتضييع حقوقه وإذا ابتلى الله عبدا بذلك مقته ، وإذا مقت الله عبدا طرحه فى النار .

. . . .

إذا علمت ذلك فأقول ـ وبالله التوفيق ـ :

من حقوق الأخ على الأخ : أن يتعامى عن عيوبه ، فقد قال المشايخ :

من نظر إلى عيوب الناس قل نفعه وخرب قلبه .

وقالوا : إذا رأيتم الرجل موكلا بعيوب الناس ، خبيرا بها فاعلموا أنه قد مكر به .

وقالوا : من علامات الإستدراج للعبد نظره فى عيوب الناس وعماه عن عيوب نفسه .

وقالوا : ما رأينا شيئا أحبط للأعمال ، ولا أفسد للقلوب ولا أسرع الهلاك العبد ، ولا أقرب من المقت ، ولا ألزم بمحبة الرياء ، والعجب ، والرياسة ، من قلة معرفة العبد عيوب نفسه و نظره فى عيوب الناس .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يحمل مايراه منه على وجه من التأويل ، جميل ما أمكن فإن لم يجد تأويلا رجع على نفسه باللوم .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يرجو له من الخيرات والمسامحة وقبول التوبة ولو فعل من المعاصى ما فعل كما يرجو ذلك لنفسه .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا ينظر إلى زلة سبقت ، ولا يكشف عورة سترت .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يعيره بذنب ولا غيره فإن المعايرة تقطع الود أو تكدر صفاءه .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا ينظر له بعين الإحتقار .

ومن حق الأخ على الأخ : إذا اطلع على عيب فيه ، أن يتهم نفسه فى ذلك ، ويقول : إنما ذلك العيب فى ، لأن المسلم مرآة المسلم ، ولا يرى الإنسان فى المرآة إلا صورة نفسه .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يرى نفسه دونه على الدوام وذلك على سبيل الظن والتخمين ، فقد قالوا : من لم ير نفسه دون أخيه لم ينتفع بصحبته .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يؤثره على نفسه فى كل شىء .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يخدمه إذا مرض .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يحترمه ويوقره ، لاسيما إذا استحق ذلك ، كأن كان من العلماء أو من حملة القرآن الكريم ، أو من عترة رسول ـ ﷺ ـ

ومن حق الأخ على الأخ : أن يثنى عليه فى غيبته وفى حضوره بطريق الشرع فإن ذلك مما يزيد فى صفاء المودة .

. . . . .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يكرمه إذا ورد عليه بأن يتلقاه بالترحيب وطلاقة الوجه ، ويأخذه بالعناق إن كان رجلا ويفرش له شيئا يقيه من التراب .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يوسع له فى المجلس إذا رآه فإن ذلك مما يزيده فى تقوية المودة .

وحق الأخ على الأخ : ألا يدعوه باسمه فقط ومن وصية بعضهم : إذا ناديت أخاك فعظمه تثبت مودته .

ومن الجفاء الأخ : نداؤه الخالى عن الكنية واللقب ، ولفظ السيادة ، وكذلك أولاده وأحفاده ، غيبة وحضورا .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يعترف له بالفضل ، وأن يظهر عدم مكافأته ، لا سيما إن كان قد بدأه بهدية ، لأنه لا يقدر على بدايته ، كما قال الشيخ محى الدين بن العربى .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يزوره كل قليل من الأيام .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يصافحه كلما لقيه بنية التبرك وامتثال الأمر .

ومن حق الأخ على الأخ : إذا لاقاه وصافحه أن يصلى ويسلم على النبى - ﷺ - ويذكره بذلك .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يهاديه كل قليل من الأيام ، لاسيما إذ بلغه عنه وقفة .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يرشده إلى ترك البغى على من بغى عليه وأن ينتصر الله تعالى ، إذ أن إرشاد الأخ المظلوم إلى الإنتصار بالله تعالى والتسليم إليه سبحانه وتعالى من أكبر نصرة الأخ .

ومن حق الأخ على الأخ : مساعدته له فى التزويج .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يغفل عن عيادته إذا مرض ولا عن خدمته لاسيما فى الليل .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يرشده إلى الوصية إذا حضرته الوفاة ، ولا يتبع الحياء الطبعى ، والفائدة فى ذلك معلومة .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يسهر عنده إلى الصباح إذا كان فى حالة تفضى إلى الموت ، فربما يكون الأجل فى ذلك الوقت فيفارقه على وفائه بحقه .

. . . . . .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يصدقه إذا انتسب إلى أحد من الأكابر من أولياء أو علماء أو أمراء .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يكفره بذنب ، ولو لاث الناس به ، إذ لا يخفى قلة ورع الناس فى الكلام وعسر معرفة جميع الألفاظ التى يكفر بها الإنسان .

والتكفير كما قال شيخ الإسلام السبكى أمر هائل ، أقل ما فيه أنه أخبر عن إنسان أنه خالد فى النار لا تجرى عليه أحكام الإسلام فى حياته ولا بعد مماته .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يمقت ذاته إذا وقع فيما لا ينبغى .

ومن حق الأخ على الأخ : إذا حصل بينه وبين أخيه وقفة أن يزيد فى بث محاسنه أكثر مما قبل الوقفة ، مراعاة للود . وقد كان السلف الصالح يمدحون عدوهم كلما ذكر اسمه بحضرتهم ، بحيث يظن الظان أنه من أعظم المحبين لهم !

ومن حق الأخ على الأخ : أن يقدم حوائجه الضرورية على عباداته المسنونة ، ومعلوم أن الخير الذى يتعدى نفعه أفضل من القاصر على فاعله .

ومن حق الأخ على الأخ : إذا وقع فى حقه شىء وبلغه أن يبادر إلى الإستغفار ، وإلى كشف الرأس والإطلاق إلى الأرض وإظهار الندم على ما وقع منه فى حق أخيه ، ويديم ذلك إلى أن يرحمه أخوه ، ثم إن لم يرحمه رجع على نفسه باللوم واعترف بأنه ظالم ، وقل من يفعل ذلك ! !

ومن حق الأخ على الأخ : أن يقبل اعتذاره ، ولو كان مبطلا ، فقد روى الترمذى وغيره : « من أتاه أخوه متنصلا من ذنب فليقبل اعتذاره محقا كان أو مبطلا ، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض .

وفى معنى ذلك أنشد :

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا   إن بر عندك فيما قال أو فجرا

فقد أطاعك من يرضيك ظاهره   وقد أجلك من يعصيك مستترا

ومن حق الأخ على الأخ : كثرة فرحه له إذا كثرت طاعاته وانقلب الناس إليه بالاعتقاد ، ومن لم يكن كذلك قام به داء الحسد وفى الحديث : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .

. . . .

ومن حق الأخ على الأخ : إذا أراد سفرا ألا يخرج حتى يودعه بالعناق إن كان رجلا، وبالإشارة إن كان صغيرا .

ومن حق الأخ على الأخ : إذا رجع من سفر أن يذهب إليه فى منزله ، فيسلم عليه ويهنئه بالسلامة ، وكذلك ولده وسائر أعزته إذا رجعوا من سفر ، أو شفوا من مرض ، فمن حقه أن يذهب إليه أخوه ويهنئه بالسلامة .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يشاوره فى كل أمر مهم ، فقد ذكروا أن المشاورة تزيد فى صفاء المودة .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يتفقد عياله وأولاده إذا غاب عنهم ، ومن كلامهم : « من لم يتفقد عيال أخيه فى غيبته فقد خان الصحبة » .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يشاطره فى ماله وغيره ، وقال الشيخ « أبو المواهب الشاذلى » : يجب على الفقير إذا آخى فى الله أن يشاطره أخوه فى ماله ، كما فعلت الأنصار مع المهاجرين حين قدموا عليهم المدينة وهم فقراء ، فكل من أدعى الأخوة فى الله تعالى فامتحنه بهذه الميزان .

وقال سيدى (أبو مدين التلمسانى) : « لا تكمل صحبتك إلا بإنشراح صدرك لكل ما أخذه أخوك من مالك ، وثيابك ، وطعامك ، ومتى ما وجدت فى قلبك انقباضاً من ذلك فأنت منافق فى صحبتك » .

وقال بعضهم : « ماتصح الصحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر : يا أنا ، وليس بأخ من يقول : قصعتى أو ثوبى » .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يتكدر منه إذا قال له : أنا أبغضك ، ويفتش على الصفات التى أبغضه لأجلها فيزيلها فإن زال بغضه وإلا كرر التفتيش ثانيا وثالثا .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يكتم سره ، إذ السر كالعورة ، وقد حرم الله كشفها والنظر إليها ، والتحدث بها .

وفى الحديث : « من ستر عورة أخيه ستر الله عورته ، ومن كشف عورة أخيه كشف الله عورته » .

وفى وصية الشيخ «أبى المواهب الشاذلى» : « إحذر أن تفشى سر أخيك إلى غيره ، فإن الله ربما مقتك بذلك فخسرت الدنيا والآخرة » .

. . . .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يصدق من نم له فيه .

وقد ذكر حجة الاسلام « الغزالى » : « أنه يجب على كل من حملت إليه نميمه ستة أمور :

الأول : ألا يصدقه - أى النمام .

الثانى : أن ينهاه عن ذلك .

الثالث : أن يبغضه فى الله .

الرابع : ألا يظن بالمنقول عنه السوء .

الخامس: ألا يتجسس على تحقيق ذلك .

السادس: ألا يحكى ما نم له به .

ومن كلام الشيخ « أبى المواهب الشاذلى » : « إذا نقل إليك أحد كلاماً عن صاحب لك فقل : « يا هذا أنا من محبة أخى ووده على يقين ، ومن قولك على ظن ، ولا يترك يقين بظن » ومن كلام الشيخ « أفضل الدين » : « إذا نقل إليكم أحد كلاماً فى عرضكم عن أحد فازجروه ، ولو كان أعز إخوانكم ، وقولوا له : إن كنت تعتقد فينا هذا الأمر فأنت ومن نقلت عنه سواء . بل أنت أسوأ حالا منه ، لأنه لم يسمعنا ذلك ، وأنت أسمعته لنا .

وإن كنت تعتقد أن هذا الأمر باطل فى حقنا ، وبعيد منا أن نقع فى مثله ، فما فائدة نقله إلينا » انتهى .

وقد ذكرنا فى غير هذه الرسالة : « أن من أراد أن يدوم له ود أصحابه فليرد كلام النمام ببادىء الرأى » .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يذب عن عرضه لكن مع النية الصالحة ، والسياسة الحسنة .

وفى الحديث : « من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامه » .

ومن كلام الامام « الشافعى » - رضى الله عنه - : « من علامات الصادق فى أخوة أخيه أن يقبل علله ، ويسد خلله ويغفر ذنبه » .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يوقظه قبل الوقت ليدخل الوقت وهو على أهبة ،

• • • • • •

فلا تفوته السنة الراتبة قبل الفريضة ، ولا تكبيرة الإحرام . وكذلك من حقه أن يوقظه في السحر ، إذ الشفقة في أمر الدين أولى وأفضل من الشفقة في أمر الدنيا . وينبغي أن يكون ذلك بلطف فإن النفس ربما تحركت مع الإيقاظ بغلظ .

ومن حق الأخ على الأخ : أن لا يداهنه ، ففي الحديث :

« الدين النصيحة » .

وقال القوم : « الإخوان بخير ماتنافسوا ، فإن اصطلحوا هلكوا » .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يتهم نفسه بالكبر والنفاق ، إذا وجد عنده ثقلا منه ، ويسعى في إزالة ذلك من باطنه .

وقد صحب شخص « أبا بكر الكتاني » وكان على قلبه ثقيلا .

قال : فوهبت له شيئا ، بنية أن يزول ثقله عنى فلم يزل ، فخلوت به يوما وقلت له : « ضع رجلك على خدى » ، فأبى ، فقلت له : « لابد من ذلك » ففعل ، فزال ما كنت أجده في بطني .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يقبل نصيحته ، فقد قالوا : « من أرشدك إلى ما به تخلص من غضب الله تعالى فقد شفع فيك ، فإن أطعته وقبلت نصحه فقد قبلت فيك شفاعته ، وإلا فنعوذ بالله من قوم لاتنفعهم شفاعة الشافعين ، حيث كانوا عن التذكرة معرضين » .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يرشده إلى تعظيم حرمات الله والتباعد عن تعدى حدوده ، بحيث يصير إذا وقع في أصغر الذنوب ، يرى ذلك الصغير من الكبائر بجامع المخالفة .

فلا يزال كذلك حتى يرى الغفلة عن الله خطيئه أشد من الزنا ، وقتل النفس . ثم إذا أكمل السالك رجع إلى أكمل من ذلك وهو تعدى حدود الله على حسب ماورد في الشرع ، فإن العبد تابع ما هو مشرع ، فيعظم الكبيرة على الصغيرة على المكروه ، والمكروه على خلاف الأولى :

وما بين الشارع — ﷺ — مراتب الحدود إلا ليعلمنا بتفاوتها ، فنعظمها بحسب مراتبها ، وكذلك القول في قسم المامورات فنعظم الواجب أكثر من المندوب ، والمندوب

. . . .

أكثر من المستحب ، وتندم على كل واحد بحسب تأكيد الشارع عليه .

فرجع السالك فى حال نهايته إلى صورة بدايته ، والقصد مختلف من حيث تفاوت المأمورات والمنهيات فى الدرجه .

وكانت مساواة الأوامر والنواهى فى البداية للسالك من شدة تعظيمه لله تعالى ، فاستعظم مامورا ته ومنهياته ، وسداً لباب المخالفة ، بقطع النظر عن مشاهدة حكمة تفاوتها ، كما ورد فى الشرع ، فثم مقام رفيع ومقام أرفع .

وعلى ما تقرر يحمل قول الجنيد : « ليس عندى ذنب أعظم من الغفلة عن الله تعالى » لأنه رأى أن سبب وقوع العبد فى الذنوب الغفلة عن الله تعالى .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يأمره بستر المقام إذا تلمح منه الميل إلى الظهور ، ومن أحب الحق فهو عبد الخفاء .

وكل من خرج إلى الخلق قبل وجود الإذن الخاص به ، فهو مفتون ومسخرة للناس .

وما خرج الأولياء للخلق إلا بعد أن هددوا بالسلب إن لم يفعلوا ، فالعاقل من ستر مقامه حتى يتولى الله إظهاره بغير مراد منه .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يتظاهر بعداوة من عاداه بغير حق أما معاداته بالباطن فلا تجوز .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يقوم له إذا ورد عليه ، ولو كره هو ذلك ، ولاسيما فى المحافل ، فقد قالوا : « إياك أن تترك القيام لأخيك فى المحافل ، فربما تولد من ذلك الحقد والضغائن فتعجز بعد ذلك عن إزالته » .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يحدثه بحديث كذب ، لأن فيه استهانة به ، وفى الحديث :

« كبرت خيانة أن تحدث أخاك بحديث هو لك مصدق ، وأنت له كاذب » .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا ينساه من الدعاء والمغفرة والرحمة ، كلما وجد وقته صافيا مع ربه ، سواء أكان ذلك فى ليل أو نهار ، أو سجود أو غيره .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يحقد عليه ، وفى الحديث :

« ثلاث من كن فيه ، فإن الله يغفر له ما سوى ذلك : من مات لا يشرك بالله شيء ، ولم يكن ساحراً يتبع السحرة ، ولم يحقد على أخيه » .

. . . . . .

وقال القوم : « كل من كان عنده حقد ، أو مكر ، أو خديعه أو غش لأحد ، فهو كذاب فى طريق القوم ، ولا يجوز أن يكون داعيا إلى الله تعالى » .

ومن حق الأخ على الأخ : إذا تحدث أن يشخص ببصره إليه حتى يفرغ من حديثه ، فإن ذلك يزيد فى صفاء الموده .

كما أن التلاهى عن حديث الأخ ، أو قطع كلامه قبل تمامه ، يورث الجفاء .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يمتحنه ، فإن الإمتحان من جنس كشف العورة ، وقد قالوا : « إياكم أن تمتحنوا إخوانكم ، فإن الله لا يمتحن عباده ، إلا أن علم وفاءهم ، كيلا يخجلهم بإظهار ما كان كامنا عندهم » .

وقيل لكسرى : ألا تمتحن أصحابك . . ؟ فقال : « إذن نخرج كلنا عيوبا » .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يتهيأ لقائه بالحرمة والتعظيم كلما فارقه ، قال الشيخ « محى الدين » : « ولو كان زمن المفارقة يسيراً ، إحسانا للظن بأن الله نفحه نفحة ، أو نظر إليه نظره من نظراته ، التى يرسلها فى اليوم والليلة إلى عباده ، فصار بها أعلى مقاماً منه » .

« ثم إن كان ذلك الأمر صحيحاً فقد وفاه حقه ، وإن لم يكن صحيحاً فقد تأدب مع الله تعالى ، حيث عامله بما تقتضيه مرتبة الألوهية ، من إكرام كل وارد على حضرتها » .

قال : « وهذا الأمر قل من يتفقد نفسه فيه ، لاستحكام الغفلة على القلوب » .

ومن حق الأخ على الأخ : إذا رآه فيما لا ينبغى أن يعتقد أنه تاب من وقته ، وندم فى سريرته ، وقد كان بعض السلف يقول : « . . إنى لأستحى من الله أن أقطع التوبة عن شخص عصى ربه ثم توارى عنى بجدار » .

وقالوا : « من قطع التوبة عن أحد من العصاه ، رأى نفسه خيرا منه ضرورة ، وكل من ظن أنه خير من أحد المسلمين فهو جاهل مخدوع ، ولو أعطى من الكرامات ما أعطى » .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يحفظ وده وإن خانه هو ، أو زاغ ، مراعاة للود .

قال « ابن الخطاب » : « رأيت رب العزة فى النوم فقلت : يارب علمنى شيئا آخذه عنك بلا واسطه ، فقال : من أحسن إلى من أساء إليه فقد أخلص لله شكراً ، ومن أساء إلى من أحسن إليه فقد بدل نعمة الله كفرا ، فقلت يارب حسبي فقال : حسبك . انتهى »

. . . . . .

ومن حق الأخ على الاخ : أن لا يمن عليه بما فعله من المعروف إذ هو خاصمة ونسى ذلك المعروف .

فإن ذكر المعروف فى المخاصمة عنوان على عدم الإخلاص فيه دليل على خسة الاصل ، فإن طيب الاصل لا يمن أبداً بما فعله مع أخيه من المعروف ، بل يرى الفضل لذلك الاخ ، الذى أكل عنده مثلا ، أو قبل منه هديه ، وفى الحديث :

« ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : المسبل ، والمنان ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » وقال بعضهم : « المن بالمعروف فى المخاصمة دمل لايندمل » يعنى : لاينسى ، بل يصير يكدر الصحبة كلما تذكرة .

ومن حق الاخ على الاخ : ألا يخاصمه ، فإن المخاصمه تقطع الود ، وقد قالوا : « ما وجد أذهب للدين ، ولا أشغل للقلب من المخاصمة » يتولد الغضب ، والحقد ، والخديعه ، حتى إنه يكون فى الصلاة وخاطره معلق بالمحاججه ، ولا يخفى ما فى ذلك .

وفى الحديث : « كفى بك إثما ألا تزال مخاصما » .

وأنشدوا :

تجنب قرين السوء واصرم حباله   فإن لم تجـــد عنه محيصا فداره
وأحبب قرين الصدق واترك مراءه   تنل منـــه صفو الود مالم تماره

ومن حق الأخ على الاخ : ألا يبادر إلى هجره ؛ فإن المبادرة إلى مثل ذلك ليست بمحموده ، وخطؤها أكثر من صوابها ، وقد ذكرنا ــ فى غير هذه الرسالة ــ شرط جواز الهجر :

ومن حق الاخ على الاخ : ألا يؤاخذه إذا قصر فى حقه مراعاة للأدب ، ومن وصية سيدى « على الخواص » : « اترك حقك لأخيك ما استطعت ، وأقل عثرة أهل المروءات من إخوانك ، وإياك أن تعتدى على من اعتدى عليك ، فإن الحق تعالى ما أباح الإعتداء إلا بشرط المثلية ، والمثليه متعذرة جداً ، فربما زادت وربما أثرت تلك السيئه فى الخصم أكثر مما أثرت فيك والمجازاه رخصة للضعفاء » .

ومن حق الاخ على الاخ : دوام الشفقه على أولاده :

والقيام بهم بعد موته ، قال القوم : « من لم يشفق على أولاد أخيه فى غيبته ، ولم يقم بهم بعد موته ، فليس بصادق فى أخوته » .

. . . . . .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يقره على بدعه ، وإن لم يرجع عنها تركه ، خوفا على نفسه أن يلحقه شؤمها ولو بعد حين .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يتزوج له زوجه طلقها ، أو مات عنها ، ولو أوصاه بذلك ، وقال : « أنت أحق من الغير » .

فاعرض يا أخي ما في هذا الفصل على نفسك ، فإن رأيتها متخلقة به فاشكر الله ، وإلا فعليك بالاستغفار من التقصير في حقوق إخوانك ليلا ونهاراً .

والحمد لله رب العالمين ! !

ومن أخلاقهم عدم غفلتهم عن الصلاة فى أول وقتها أيام مرضهم أو أيام تحملهم البلايا والمحن عن الإخوان أخذًا بالعزائم

وإنما تكون الرخص لغيرهم فليس لأحدهم أن يؤخر صلاة الظهر مثلا إلى آخر وقتها ، ويقول : إنما يؤمر بالصلاة فى أول وقتها مثلا الأصحاء أما المرضى فلا يؤمرون بذلك ، وربما استدل أحدهم بحديث وهو دليل ضعيف (   )[1] لأن المراد بما يكتبه الحق تعالى له من الفضائل والنوافل (   )[2] مثلا لأنه يجب عليه أن يفعل ذلك بحسب قدرته مادام عقله ثابتا ، إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له ما كان يعمل صحيحا مقيما .

ويقع لى بحمد الله تعالى أن المرض يخف عنى إذا دخل وقت الصلاة ، ثم إذا فرغت منها عاد المرض فالحمد لله رب العالمين .

(١) مطموس فى الأصل

(٢) مطموس فى الأصل

ومن أخلاقهم الرضى عن ربهم عز وجل إذا قسم لهم اليسير من الطاعات كما يرضون عنه إذا قسم لهم اليسير من الرزق على حد سواء

فإن كلاهما قسمة الحق تعالى ، واختياره لهم وماقسمه واختاره لاينبغى لعبد أن يسأل تحويله إلا بإذن منه .

وهذا الخلق لايثبت فيه إلا الصادقون المعتمدون على فضل الله تعالى لا على أعمالهم إذ من لازم كل من يعتمد على عمله التكدر ضرورة كما يقع فيه العبّاد الذين لم يسلكوا على يد شيخ .

وقد نام إبراهيم بن أدهم ليلة عن ورده أيام بدايته فأصبح متكدرا لذلك ، فنودى فى نفسه — سره — :

يا إبراهيم كن عبدا لنا تستريح فإن أقمناك قم وإن أنمناك نم ، فليس لك فى الوسط شىء ، فإننا أعلم بمصالح عبادنا من أنفسهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم رؤية حقارة نفوسهم أن يقفوا بين يدى الله ، عز وجل فلا يزاحمون على الحضرة الإلهيه إلا بإذن خاص من طريق الإلهام الخاص .

وإذا نام أحدهم عن حضور الموكب الإلهى فى ليلة من الليالى يقول :

لك الفضل يارب الذى ماأوقفت هذه الذات النجسة القذرة بين أهل حضرتك الطاهرين المطهرين .

قلت : وهذا وإن كان فيه خير من جهة هضم نفوسهم ، فينبغى لأحدهم أن يندم ويحزن على فوات حظه من الوقوف بين يدى ربه عز وجل وقت تفرق الغنايم ، ومغفرة الذنوب العظائم .

وكان سيدى على الخواص إذا فاته قيام الليل بالنوم يشكر الله تعالى من حيث العافيه، فإنه لولا العافيه مانام ، فيحتاج صاحب هذا الخلق إلى عينين عين يحزن بها وعين يشكر بها كما بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن والأخلاق والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم ، أنهم يجعلون ماسمعوا من واعظ أو خطيب
في حق أنفسهم بالأصالة

فلا يجعلون الخطاب لغيرهم من السوقة والعوام وأرباب الدعوى للعلم ، والعمل بغير حق ، حتى ربما انصرف أحدهم من مجلس الواعظ وهو يقول : أفلح الواعظ اليوم في الحط على هؤلاء الذين لايعملون بعلمهم من الفقهاء والصوفية ، ولا يكاد يأخذ لنفسه من ذلك كلمة واحدة .

فليحذر الفقير من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : الفرح والسرور بكل شيخ أو واعظ برز في بلدهم أو حارتهم وصار يلتقط أصحابهم واحداً بعد واحد

حتى لم يبق حول أحدهم تلميذ واحد ، وذلك لأنه قام عنهم بدعاء الخلق إلى الله تعالى ، وأراحهم من رؤية نفوسهم ، والإعجاب بأحوالهم إذا تاب الخلائق على يديهم من الظلمة ، والعوام ، وأقبل الأمراء والمباشرون والتجار على الاعتقاد فيهم ، فإنه قل واعظ يسلم من هذه الآفات .

فعلم أن كل من تكدر من شيخ برز في حارته ، فهو شيطان نصاب لم يشم من طريق القوم رائحة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم اعتراضهم على العالم إذا زار أحدا من النصابين

فإنه لولا سلامة باطنه مازار ، فهو مأجور من حيث قصده ، وإن ترتب على ذلك إضلال العوام لكن الأولى للعالم أن لا يزور إلا من رآه على الكتاب والسنة من الصادقين لئلا يضل العوام ويقولون : لولا أن هذا من الصالحين مازاره العالم الفلانى .

فليكن العالم حاذقا وإلا اقتدا به العوام، فيهلكوا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : حفظهم الأدب مع كبراء الوقت من علماء وصالحين فلا يدرسون علما ولا يسلكون مريدا إلا بعد قول أحدهم : دستوريا كبراء الوقت أدرس أو أسلك الناس العلم ، والأدب نيابة عنكم ، ويمثلهم فى نفسه إن كانوا غائبين عن مجلسه .

فمن سلك ذلك مده العلماء ، بالعلم ، والأدب ، وأمن من الارتجاج عليه كما جرب ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم لبس الثياب المحررات وعدم نـكاح المنعمات والسرارى الناعمات

وعدم ركوبهم الخيل المسومة ولا يرون ذلك مباحا إيثاراً للتقشف فى هذه الدار كما أن الواجب عليهم عدم الإنـكار على من خالفهم ولبس المحررات ونـكح المنعمات إنه أحسن حالا منهم[1] لأن لله تعالى عبيدا فى صورة المتـكبرين ، وربما نعم الله تعالى عبده فى الدار الآخرة أيضاً ، ورفع قدره علينا لقوله تعالى (والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا[2]) .

وقد أنشد بعضهم فى نحو ذلك :

كم عابدا قـــد صف أقدامه ... بالليـــل يبكى بالدموع السجام

وماله حظ ســوى أنه ... أشقاه مولاه بطول القيام

وآخر قـــد نال ما يرتجى ... وحاز فى الفردوس أعلا مقام

فإياك يا أخى والمبادرة إلى إنـكار على أحد من المتقشفين أو المترفهين إلا بطريق شرعى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ربما يقصد أنه قد يكون أحسن حالا منهم للأسباب التى ذكرها بعد ذلك .

(٢) سورة الإسراء آية : ٢١

ومن أخلاقهم : عدم جلوسهم فى المسجد على حدث ظاهر
أو باطن كالكبر والحقد وسوء الظن بمسلم ونحو
ذلك كخطور معصية على قلوبهم

فإنهم بين يدى الله عز وجل فى بيته الخاص ، وهو ناظر إليهم ، فكيف يليق بأحدهم أن يجالس ربه على حدث ، أو سوء أدب .

فينبغى للفقراء المجاورين أن يتنبهوا لمثل ذلك ، فربما كان قوس القدرة الإلهيه بالتأديب ، والمؤاخذه موترا لا يسامح العبد فى سوء الأدب مرة واحدة هذا فيمن تخطر المعصية على باله فى المسجد ، فكيف بمن يفعلها .

وكان سيدى محمد الشوبى يجلس تجاه وجه سيدى مدين رضى الله تعالى عنه ، فكان كل من خطر فى باله شىء قبيح بين يدى سيدى مدين قام ، وضربه وقال : أما تستحى من الشيخ وأنت يمر على خاطرك القبيح انتهى .

فإذا كان هذا حال من يخطر ذلك على باله بين يدى مخلوق ، فكيف بمن يخطر ذلك على قلبه بين يدى الله عز وجل فالعاقل من تنبه لمثل ذلك ، فعلم أن كل فقير ادعى الصلاح وجلس فى المسجد بغير حق أو اساءة الظن فهو كذاب فاسق والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كراهتهم لإخراج الريح منهم فى المجالس
أو المسجد تعظيما لمن هم فى حضرتهم كشفا أوأدبا

فمن جملته حالة إخراج الريح حبسه وخرجوا من المسجد إلى طريق الميضأه ، وأخرجوه لأن خروج الريح لا يليق إلا بالحشوش ، ومثل ذلك حشا النجل ، وأكل ذى ريح كريهه كما ورد فى الشريعة .

فإن تعذر عليهم الخروج من المسجد لاخراج الريح ، فيلبغى لأحدهم أن يقول دستور ياعمار المسجد يعنى من الملائكة ثم يخرج الريح فإن الملائكة يحبون من يتأدب معهم ، ومع بيوت الله عز وجل والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كراهة زيارتهم لعدوهم وحاسدهم من المسلمين
بثياب رفيعة مبخرة خشية عليه من ادخال الغم عليه بذلك

فإن العدو والحاسد إذا رأى على عدوه ثيابا حسنه مبخرة كاد أن يذوب من الغيظ ، وازداد حسدا وعداوة .

هذا من جملة أخلاق الصالحين الحسنه ولا يصح ذلك إلا ممن كملت رياضة نفسه ، وتخلق بالرحمة على عباد الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا مرضوا أو قدموا من سفر أن لا يتسببوا
في زيارة الناس لهم أو عيادتهم الا بنيه صالحة

ولا يقولون اشتهينا رؤية فلان ، فإنه إذا بلغه ذلك بادر إلى العيادة ، أو الزيارة ، وربما كان وراءه ضرورة أهم من عيادتهم أو زيارتهم وأسلم من الخلل .

فالعاقل من أشفق على دين أخوانه ولم يكن سببا فى نقصه ، فحرر يا أخى النيه فى نحو قولك ، وأنت مريض مثلا أو حشنا فلان ، ورح إليه إذا بلغك أنه قال فى حقك ذلك بنيه صالحة لا تطلب عليها مكافأة فى الدارين والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كراهتهم لحضور المحافل التى لم يندب الشرع إلى حضورها ومحبتهم لحضور ما ندب الشرع إلى حضوره لكن بنيه صالحة

فليحرر الفقير نيته ثم يحضر وذلك كختوم القرآن ومجالس المناظرة بين يدى الأمراء أو حضور عقد القران والسبب الذى يمنع الناس عدم تحرير النية فى هذه المجالس ويقع فيه الكثير منهم أنه إذا دخل أحدهم ولم يقوموا له أو كان جالسا فى صدر المجلس فأخروه لما جاء من هو أوجه منه من أقرانه أو غيرهم ، وهذا وقع كثيرا لأرباب الأنفس القوية المدعين للعلم والصلاح بغير حق .

فانشق عليهم من يقطعهم بالحجج أو يبين غلطهم أو جهلهم ، فتدوم العداوة بينهم شهورا وسنين ، بسبب ماوقع لهم حين حضروا من عدم موافقة الناس لهم على أغراضهم.

وقد حضرت مرة مجلس ختم ، فنهانى عن ذلك سيدى على الخواص وقال :

هذه مجالس المباهاه بالعلم والمماراة فيه كما يعلم ذلك بالقرائن ، ومصداق ذلك أن غلط منهم أحد قامت عليه القيامه ، وإن وافق الصواب ، قالوا هذا الكلام ما هو له ، وإنما أخذه من كلام فلان .

قال : ومن علامة مباهاتهم بالعلم إحضارهم الأكابر من الامراء ، والمباشرين ، وغيرهم ممن ليس من أهل العلم ، وليس هو أهلا لأن يفيد علما أو يستفيد انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كراهتهم النوم على غير وتر

تعظيما لامتثال أمر الشارع فى أمره أمته بالنوم علي وتر فى نحو قول أبى هريرة : أوصانى رسول الله ﷺ بصيام ثلاثة أيام من كل شهر وركعتى الضحى وأن أوتر قبل أن أنام .

وفى نحو قوله : إن الله وتر يحب الوتر فأوتروا يا أهل القرآن انتهى .

فمن نام على وتر فقد نام على عمل محبوب للحق جل وعلا ، فإذا أخذ الله تعالى بروحه تلك الليلة مثلا كان خاتما لعمله يحبه الحق تعالى ، فيرجى له المغفرة كما أشار إليه قوله تعالى « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم » أى لو كنتم محبوبون للحق تعالى ما عذبكم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم سؤالهم الحق جل وعلا أن يتجاوز ويعفو
في حق من جنا عليهم وأذاهم من جميع المسلمين

فإذا دعوا على أحد لا يستجيب الله لهم دعاء فيه لأن الله سبحانه وتعالى يستجيب لهم فيما تخلقوا فيه بأخلاق الله عز وجل وقد كان سيدى (   )[١] رضى الله تعالى عنه يحزن على عدوه إذا مات ويقول : من دعا واستجيبت دعوته فيمن ظلمه ، فقد خرج عن طريق القوم .

فإن من شأنهم كثرة الاحتمال ، ويفرحون إذا لم يستجب لهم دعاء ، لما جبلهم الله تعالى عليه من الرحمة ، والشفقة ، ولعل غالب الناس لايقيم لهم وزنا ، إذا دعوا على ظالم ، ولم يستجب لهم دعاء فيه ، ويقولون : لو كان هذا صالحا لأجاب الله تعالى دعاءه ، وهو جهل بمقام أهل الله عز وجل فالحمد لله رب العالمين .

---

(١) مطموس من الأصل

ومن أخلاقهم عدم المجادلة لأحد من الفقهاء عند ثوران نفوسهم
أو نفس من جادلوه خوفاً من تعدى الحدود فى أدب العلم

بل يصبرون ، حتى تروق نفوسهم ، ونفس خصمهم .

وإيضاح ذلك أن كل شخص لا يجادل إلا بما زين له فى نفسه ، ورأى أنه الحق ؛ فلا يكاد أحدهما يرجع إلى الآخر أبدا .

فليعذر كل واحد أخاه بما يعذر به نفسه .

فإن عمل كل انسان بمارآه حقا أولى والسلام .

وبالجملة فمن لم يقرأ آداب البحث فليس له أن يجادل أحدا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة مشاورتهم لإخوانهم فى كل أمر
لم يصرح الشارع فيه بخصوصية بخلاف

مثل سنة الظهر ، أو جماع الزوجة ، والغسل من الجنابة ، فإنه لا يحتاج مشاورة فى مثل ذلك .

فقد سمعت سيدى على الخواص يقول : لا يحتاج الإنسان إلى الاستشارة فى شيء من المأمورات الشرعية لأن الله تعالى لم يتخذها حبالة للمكر بصاحبها بخلاف ما سكت عنه ، فقد يتخذ حبالة أخرى ، ثم إن فى المشاورة فيما ذكر تمييل خاطر الأخوان إلى محبة بعضهم بعضا كما هو مشاهد ويقول أحدهم : لولا أن فلانا يحبنى ما شاورنى فى ذلك ، وحكم عدم المشاورة بالضد .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : الاستشارة بمنزلة تنبيه النائم فربما كان الإنسان جازما بفعل شيء ، وعنده أنه صواب ، فيشاور أخاه فيه فيقول له : متى فعلت كذا حصل من الضرر كذا ، فيرجع عنه فورا ، وإن قيل له بعد ذلك إفعله لم يرض .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم القيام بواجب حق الإخوان الصادقين والقيام بحقوقهم

وقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : لاتقصر في حق أخيك اعتمادا على مروءته انتهى .

وكان يقول : لولا مجالسة الإخوان في هذه الدار والتهجد في الأسحار ما أحببت البقاء فيها .

فانظر يا أخي كيف قرن رضي الله عنه مجالسة الإخوان بمناجاة الله عز وجل ، وفي ذلك سر عظيم لاأبوح به ولو قطع مني الحلقوم ، وقد ظفرت طول عمري بسبعة وعشرين واحدا من الإخوان الصادقين ممن أحب البقاء في هذه الدار لأجلهم منهم سيدي محمد بن الشيخ محمد الحنفي الشاذلي بحديقة السباعين ومنهم الشيخ سراج الدين الحانوتي(١) فأسأل الله تعالى أن يفسح في أجلهما وأن ينفعني ببركاتهما آمين .

وقد رأيت حقوق الإخوان إيثارهم بمادخل يدهم من أمور الدنيا وادخال الفرح عليهم بحيث كونهم في جميع مابيدهم بحيث لايفضلون نفوسهم عليهم بل قد يصلوا إلى حد أنهم

---

(١) يقول عنه الإمام الشعراني : ومنهم الشيخ المجمع على جلالته وعلمه وورعه وحفظ جوارحه الشيخ سراج الدين الحانوتي رضي الله تعالى عنه . مارأيت في أقرانه أكثر اعتقاداً منه في طائفة الفقراء ، لايكاد يغفل عن زيارتهم أحياء أو أمواتاً ، وقد استحييت من كثرة زيارته لي ماشياً تبعاً لشيخه الشيخ شهاب الدين بن الحلبي رحمه الله تعالى .

صحبته نحو عشر سنين إلى وقتنا هذا ، فما أظن أن كاتب الشمال وجد شيئاً يكتبه عليه من شدة تقواه وضبطه لجوارحه ، وما سمعته يذكر أحداً من المسلمين وغيرهم بغيبة . ومارأيته يزاحم على شيء من الدنيا ، ولا يتردد إلى أحد من الولاة إلا لضرورة شرعية ، من شفاعة في مظلوم ونحو ذلك .

وكان مجلسه مجلس علم وأدب وخشية وخوف من الله عز وجل ، فقد طبعه الله على الأخلاق المحمدية والشيم المرضية والأحوال السنية ، لايكاد يطلع عليها إلا الله عز وجل، من تهجد وقراءة أوراد ومراقبة . مات رضي الله عنه سنة سبعين وتسعمائة . وكان مولده عام تسع وتسعين وثمانمائة .

يطلقون إحدى زوجاتهم لمن ماتت زوجته ، ويقسمون الذهب نصفين بينهم وبينهم ويأخذون منه كأحدهم[1] .

وإن لم يقسم الله تعالى للاخوان ذلك ، فيكون خاطرهم بذلك طيبا لو وقع والحمد لله رب العالمين .

---

(١) قد يستغرب بعض الناس هذا الخلق على سادتنا الصوفية ولكن نظرة متأنية لآداب هؤلاء السادة العظام مع إخوانهم كما وضعها الإمام الشعرانى ربما تؤهلنا لتقبل هذا الوضع وعدم استغرابه منهم يقول الإمام الشعرانى :

إعلم — وفقنى الله وإياك إلى مايحب — : أن آداب القوم لاتنحصر ، لأنها مجموع مافى الكتب الإلهية والأخبار النبوية ، والآثار الصحابية والسلفية ، ولكن نذكر لك شيئاً من آدابهم تبركا وفتحا للباب فنقول : وبالله التوفيق :

من آداب القوم أن يفروا فى جميع الشدائد إلى الله تعالى قبل جميع الخلق لعلمهم أن بيده — تبارك وتعالى — ملكوت كل شىء ، بخلاف غيرهم ، فانهم لايرجعون إلى الله إلا بعد الوقوف على خلقه .

ومن آدابهم : جمع الحواس والقلب حال العمل ، وقد ورد فى بعض الكتب الإلهية يقول الله تعالى للملائكة الكرام الكاتبين :

« اكتبوا عمل عبدى — فلان — واكتبوا أين كان قلبه حال العمل ... ؟ ليأخذ ثوابه ممن كان قلبه حاضراً عنده » .

ومن كلام سيدى « على الخواص » : « كل عمل لم يحضر العبد فيه مع ربه تعالى فهو كالميتة وهو بالنفاق أشبه وذلك لأنه يوهم الناس أنه مع الله حال مناجاته ، وهو مع الخلق ، وقد طالت الطريق على الناس لغفلتهم عن ذلك ، فحجبوا بالأعمال عن المعمول له ، ولو أنهم لاحظوا المعمول له لاشتغلوا به .

ومن آدابهم : لايطلبون بعبادتهم مقاماً أو حالا أو تقريباً من الحضرة الإلهية فقد قالوا : من خدم الله تعالى لطلب مقام فقد طلب قطيعة ، ومن خدم لطلب الثواب ،أو خوف من عقاب فقد أبدى طمعه ، وأظهر خسته .

وقالوا : أبغض الخلق إلى الله من تملق فى الأسحار يطلب قربه تعالى بذلك .

وقالوا : افعلوا ما أمركم به الشرع — إن استطعتم — ولكن من حيث مشروعيته

. . . .

والأمر به ، لامن حيث علة أخرى ، واتركوا العلل كلها فى جميع أعمالكم وأحوالكم ، ولا تنظروا إلى ثواب فمن نظر إلى ثواب فى أعماله عاجلا أو آجلا فقد خرج عن أوصاف العبودية الكاملة التى لا ثواب لها إلا وجه الحق عز وجل .

ومن آدابهم : تفتيش أعضائهم الظاهرة والباطنة صباحاً ومساءاً هل حفظت حدود الله التى حدها لها ، أو تعدت .. ؟

وهل قامت بما أمرت به من غض البصر ، وحفظ اللسان والآذان والقلب وغير ذلك على وجه الإخلاص ، أو لم تقم ؟

فان رأوا جارحة من جوارحهم أطاعت شكروا الله تعالى ولم يروا نفوسهم أهلا لذلك ، وإن رأوها تلطخت بشىء من المعاصى أخذوا فى الاستغفار والندم ، ثم يشكرون الله تعالى إذ لم يقدر عليهم أكثر من تلك المعصية ، ولم يبتل جوارحهم التى مرضت حال عصيانها ، فان كل عضو مستحق نزول البلاء .

ومن آدابهم : لايغفلون عن تفتيش باطنهم ، فان الأخلاق الردية كامنة فى العبد ، ومعلوم أن الفقراء إذا ترقوا فى المقامات كان وقوعهم فى المعاصى الظاهرة معدوم غالباً ، فيقنع أحدهم بذلك وينسى تفتيش باطنه وهو قصور عن درجة أهل العرفان ومن ظن أن الأخلاق الردية زالت عنه فقدوهم .

قال تعالى : « ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » فلم يقل : ومن يزل شح نفسه ، بل أبقى الشح فيها ، إلا أنه يوق العمل بذلك بعبادته لله تعالى .

ومن كلام الشيخ (أفضل الدين) : « الله قد جعل فى طينة الآدميين سائر الأضداد ، لجميع الأخلاق الحميدة والذميمة تشرق وتغرب فى ذواتهم ، ولكن ما دامت العناية الربانية تحف العبد لجميع الأخلاق الذميمة خامدة متعطلة ، فإذا تخلفت عنه العناية تحركت للاستعمال وخمدت أخلاقه الحسنة .

ثم لا يخفى أن طينة الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — قد طهرها الله من سائر الرذائل بسابق العناية ، فافهم وإياك الغلط .

ومن آدابهم : عدم موافقتهم للوعد ، فلا يعدون أحداً بوعد إلا فى النادر ، لعلمهم أن

. . . .

صدق الوعد لا يكون إلا للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لعصمتهم ، وأما غيرهم فربما وعد وأخلف فيصير فيه خصلة من النفاق .

ومن آدابهم : إذا ذكر أحد من أصحابهم فى غيبته بحضرتهم لا يقولون : هو من أصحابنا ، او من أكبر أصحابنا إلا أن كان دونهم بدرجات ، فإن كان مساوياً لهم أو فوقهم فيقولون : نحن من أتباعه أو خدامه .

ومن آدابهم : لا يقولون : ذهب الأكابر والصادقون ، فإنهم ما ذهبوا حقيقة ، وإنما كـكنز صاحب الجدار .

وقد يعطى الله من جاء فى آخر الزمان ما حجبه عن أهل العصر الأول ، فإن الله قد أعطى نبينا محمداً - ﷺ - ما لم يعطيه الأنبياء قبله ، ثم قدمه عليهم فى المدح .

ومن كلام صاحب الحكم : بدلا من أن تقول :

أين الأولياء ؟ أين الصالحون ؟ قل : أين البصير ة.. ؟

ومثل هذا اللفظ لايقع إلا ممن لم يكن عنده اعتقاد فى أولياء عصره وعلمائه ، ولا يخفى ما فى ذلك !

ومن آدابهم : لا يطلبون ألا يكون لهم حاسد فإن الحكم الوجودى اقتضىمقابلة النعم بالحسد ، فمن طلب ألا يكون له حاسد ، فقد طلب ألا تكون له نعمة .

ومن آدابهم : إذا ذكروا ذنوبهم لا يقولون : لا حول ولا قوة إلا بالله ، لما فى ذلك من رائحة الحجة على الله تعالى :

بل يقولون : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

ومع الإفراد « رب ظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم » .

ومن آدابهم : لا يقولون : نانس بالله تعالى فإن الإنسان لا يانس إلا بجنسه ، والحق تعالى ليس بينه وبين عباده مجانسة بوجه من الوجوه .

فإذا رأيت فى كلام أحد من القوم أنه يانس بالله تعالى فاعلم أنه غير محقق ، ولو حقق لوجد أنسه بما من الله تعالى لا بالله تعالى ، لإنتفاء المجانسة .

ومن آدابهم : لا يقولون : نطلب الله إذ الطلب لا يكون إلا لمفقود والله تعالى موجود وواجب الوجود ، ولا يطلب دركه لأنه لا غاية له ، وإنما يقولون : نطلب الطريق إلى معرفة الله .

. . . .

ومن آدابهم : لايستعيذون بالله من شيء وإنما يستعيذون من شره ، وكذلك لايقولون : اللهم اغننا عن جميع خلقك وإنما يقولون : اغننا عن شرار خلقك .

ومن آدابهم : عدم زخرفتهم الكتب التي يرسلونها إلى اخوانهم خوفا من الكذب ، ومن وصية أبي نصر بشر الحافي :

« إذا كتب أحدكم كتابا إلى أحد فلا يزخرفه بحسن الألفاظ ، فإني كتبت مرة كتابا فعرض لي كلام ، إن كتبته حسن الكتاب ، وكان كذبا ، وإن تركته سمج الكتاب وكان صدقا ، فعزمت على ذكر الكلام السمج الصدق ، فنادى هاتف من جانب البيت :

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » .

ومن آدابهم : كثرة الاستغفار إذا اعتقد فيهم الخلق ، وهم في السر خلاف ذلك ، وفي الحديث : « طوبى لمن وجد في صحيفته استغفار كثير » .

وقد حثوا على الاعتناء بالاستغفار ليلا ونهاراً ، سواء تذكر العبد ذنوبا أو لم يتذكر.

ومن آدابهم : إذا مرحوا أن يكثروا من الشكر والاستغفار وأن يقولوا : اللهم أنت أعلم بنا منهم ، اللهم اجعلنا خيراً مما يظنون ولاتؤاخذنا بما يقولون ، واغفر لنا ما لايعلمون .

ومن آدابهم : لايعتمدون على كسبهم ، فإن الاعتماد على الكسب شرك بالله عز وجل .

وقد ذكرنا في غير هذه الرسالة معرفة طريق الخلاص من هذا الشرك وإن من خلص منه فهو المؤمن الذي يأتيه رزقه من حيث لا يحتسب .

ومن آدابهم : عدم نسبة شيء من الأعمال الصالحة إلى نفوسهم إلا بقدر نسبة التكليف فقط . قال القوم : كل عمل اتصل بالعبد شهوده فهو غير متقبل ، فمن شهد له عملا فعمله عند نفسه لا عند ربه ، ومن حقق النظر علم أنه لا أثر لمخلوق في فعل شيء من حيث التكوين وإنما له الحكم فقط وغالب الناس لا يفرق بين الحكم والأثر .

ومن كلام سيدي (علي الخواص) : ما دام العبد ينسب الأمور لنفسه ذوقا وإلى الله علما ، فهو محجوب ، فاذا رفع الحجاب رأى أفعاله كلها خلقا لله تعالى وذوقا .

وأما علمه أنها خلق الله تعالى ، فلا يكفيه إذ ليس العلم كالذوق . قال : وأكثر المريدين لم يثبت لهم قدم في نسبة أفعالهم لله تعالى ، ولذلك يطلبون الجزاء من الله تعالى على ما أجرى على أيديهم من الأعمال الصالحة .

. . . . . .

وكذلك يطلبون الجزاء من الخلق إن أجرى على أيديهم إحساناً لهم ، فلولا نسبتهم ذلك إلى أنفسهم ما طلبوا الجـزاء من الله تعالى ولا من الخلق ، وما قال عارف قط : (إياك نعبد وإياك نستعين) إلا على وجه التلاوة فقط : لا وجه كون له شركة فى الفعل، تعالى فعل الله عن الشرك فافهم .

ومن آدابهم : التجرد عن العزة والغنى ، والتحقق بالذلة والفقر إذا توجهوا إلى الله فى أمر دنيوى أو أخروى ، لئلا يمنعوا من الإجابة .

وفى كلامهم : إذا توجهت إلى الله فتوجه إليه وأنت فقير ذليل ، فإن غناك وعزتك — وإن كانا بالله — يمنعانك — الإجابه ، لأن الغنى والعزة صفتان لا يصح لعبد الدخول بهما إلى الله أبداً ، لأن حضرة الله تعالى لها العزة فلا تقبل عزيزاً ولا غنياً .

ومن آدابهم : لا يسألون الله شيئاً من أمور الدنيا إلا مع التفويض ورد العلم إليه سبحانه ، عملا بقوله تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

فيقول أحدهم فى سؤاله : اللهم اعطنى « كذا » و « كذا » إن كان فيه خيراً لى ، واصرف عنى « كذا » و « كذا » إن كان فيه شراً لى .

ومن وصية سيدى « عبد القادر الجيلى » : « احذر أن تسأل الله شيئاً إلا مع التفويض ، وأما إذا أعطاك تعالى شيئاً من غير سؤال فذلك مبارك وعاقبته حميدة ، وليس عليك فيه حساب — إن شاء الله تعالى — لكونه جاء من غير استشراف نفس .

ومن آدابهم : عدم الاشتغال بالنعم عن المنعم ، إذ قبيح بالعبد أن يألف النعمة دون المنعم ، أو يميل إليها ، فإن الميل إلى كل شىء دون الله مذموم إلا فى حقوق الله ومأموراته.

وفى وصية سيدى « عبد القادر الجيلى » : إياك أن تشتغل بما أعطاك الحق — سبحانه وتعالى — من المال فيحجبك بذلك عنه دنيا وأخرى ، وربما سلبك ذلك المال عقوبة لك وإذا اشتغلت بطاعته عن ذلك المال كان من المال المحمود لا المذموم .

ومن آدابهم : لزوم الرحمة للمسلمين ، وفى الحديث :

(الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى) .

ومن كلام (سيدى على الخواص) : عليك بالرحمة بالمسلمين إن أردت أن ترحم ، ومن الرحمة لهم أن تحمل همومهم :

. . . . . .

قال : وأعلم أن حملنا لهموم إخواننا المسلمين لا ينافى التسليم — كما توهمه بعضهم — فالعبد يحمل هم إخوانه من كسبهم للذنوب التى استحقوا بها البلاء النازل عليهم ، ويسلم من حيث التقدير الإلهى الذى سبق به العلم ، إذ لا يمكن رد مثل ذلك فافهم ، فإنه قد غلط فى ذلك جماعة زاعمين أنهم مسلمون لله تعالى ، ويخرجون على من يرونه يحمل هم إخوانه ، ويقولون : ما لفلان ومعارضة الأقدار ؟ ويتوهمون ما هم عليه أكمل ، وهو جهل . ففى الحديث : (من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم) وقد كان الإمام « عمر بن الخطاب » — رضى الله عنه — إذا نزل بالمسلمين بلاء لا يضحك قط ، وكذلك « عمر بن عبد العزيز » و « سفيان الثورى » « وعطاء السلمى » . حتى يرتفع البلاء .

قالوا : الرحمة خاصة والبلاء عام ، وذلك من جملة رحمة الله تعالى :

ومن آدابهم : عدم شكواهم إلى الخلق ما يصيبهم من بلاء أومحن وغير ذلك .

ومن وصية سيدى « عبد القادر الجيلى » أحذر أن تشكوا ربك وأنت معافى فى بدنك ، أو لك قدرة على تحمل هذا البلاء ، بالقدرة التى قواك بها ، فتقول : ليس عندى قوة ، ولا قدرة . أو تشكوه إلى خلقه ، وعندك نعم مما أنعم بها عليك ، وتقصد بتلك الشكوى الزيادة من خلقه ، وأنت متعام عما له عندك من العافيه والنعم .

فاحذر من الشكوى لمخلوق جهدك ، ولو تقطع من لحمك ، فإن أكثر ما ينزل بابن آدم من البلاء من جهة شكواه ، وكيف يشكو العبد من هو أرحم به من والدته الشفيقه.

ومن آدابهم : كثرة شكرهم على النعم ، امتثالا للأمر لا طلبا لزيادة .

ومن كلامهم : عليك بشكر النعم ، فإن من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، وأحذر أن يكون شكرك لأجلها بل اجعل شكرك امتثالا لأمر ربك بالشكر . ولهذا قال تعالى : (أن اشكر لى) فافهم !

ومن آدابهم : شدة سترهم لمقامهم ، فقد قالوا :

الكامل من يفهم نفسه ، حتى يزكيه ربه .

قالوا : أحسن بذور الحرث ما بذره ثم ستره بعد ما بذره حتى نبت فى بطن الأرض ، وأقبحه ما نبت فوقها ، لأنه لا ثبات له !

ومن آدابهم : ترك التدبير وهو على قسمين :

تدبير محمود ، وتدبير مذموم .

. . . .

المحمود : ما كان فيما يقربك إلى الله تعالى ، كالتدبير فى براءة الذمم من حقوق العباد ، إما وفاءاً ، وإما استحلالا ، وفى تصحيح التوبة ، وفيا يؤدى إلى قمع الهوى والشيطان.

والتدبير المذموم : تدبير الدنيا للدنيا ، وهو أن يدبر فى أسباب جمعها افتخاراً بها ، واستكثاراً ، وكلما إزداد منها شيئاً أزداد منها غفلة واغتراراً .

وإمارة ذلك أن تشغله عن الموافقة وتؤديه إلى المخالفة ! أما تدبير الدنيا للآخرة ، فلا بأس به ، كمن يدبر المتاجر ليأكل حلالا ، وينعم منها على ذوى الفاقة اتصالا ، ويصون بها وجهه عن السؤال إجمالا ، وأمارة ذلك عدم الاستكثار والإدخار والإسعاف منها والإيثار .

ومن آدابهم : ترك الاختيار مع الله تعالى ، فقد ذكروا أن بنى اسرائيل لما جعلوا لهم مع الله اختياراً ضربت عليهم الذلة والمسكنة وقالوا : إياك والفرار من حالة أقامك الله فيها ! فإن الخير ما اختاره الله لك .

وتأمل السيد (عيسى) عليه الصلاة والسلام — لما فر من بنى إسرائيل حين عظموه كيف عبد من دون الله تعالى .. ؟ ! فوقع فى حال أشد مما فر منه .

وقالوا : أصل اختيار العبد إنما هو ظن العبد : أنه مخلوق لنفسه ، والحق تعالى ماخلق العبد إلا له سبحانه ، فلا يعطى عبده إلا ما يصح أن يكوله تعالى .

وقالوا : لا تركن إلى شىء ، ولا تأمن مكر الله لشىء ولا تغير شىء ، ولا تختر شيئاً ، فإنك لا تدرى أتصل إلى ما اخترته أم لا .. ؟

ثم إن وصلت إليه فلا تدرى ألك فيه خير أم لا .. ؟

ولا تقف مع شىء ، ولا تحزن على شىء خرج منك ، فإنه لو كان لك ماخرج منك .

ولا تفرح بما يحصل لك من أمور الدارين سوى الله تعالى فإن ماسوى الله تعالى عدم !

ومن آدابهم : أن يرضوا بالدون من كل شىء تحبه النفس من شهوات الدنيا ، وأن يثبتوا إذا ضيق الله عليهم فى المعيشة ثم لا يخفى أن من رضى بالدون من كل شىء تحبه النفس من شهوات الدنيا ، لم يقع بينه وبين أحد منازعة ولا خصومة ، واستراح قلبه وبدنه من التعب فى تحصيل الزائد عن الحاجة .

فإن رزق كسرة من الشعير قنع بها وشكر الله عليها ، وإن رزق حبة قنع بها وشكر الله عليها .

. . . .

ثم بعد ذلك إن جاءه أمر زائد أكثر من الشكر عليه باللسان والبدن .

ومن آدابهم : لا يقولون لمن قصدهم فى حاجة : « ارجع وتعال إلينا فى وقت آخر . ولا يمنعون سائلا إلا لحكمة ، لا شحاً ولا بخلا .

ومن آدابهم : كل موضع عظمهم الناس فيه خافوا منه الفتنة لا يألفونه .

ومن آدابهم : قلة التحدث عن الأكل لأنهم جالسون حقيقة على مائدة الله تعالى ، والله ناظر إليهم وإلى آدابهم ، وآثارهم وشكرهم له – عز وجل – :

وكذلك من آدابهم : لا يأكلون من وسط الإناء عملا بخبر : « إن البركة لتنزل فى وسط الإناء فكلوا من حافاته ، ولا تأكلوا من وسطه » .

ومن آدابهم : إجابة أخيهم التقى إذا دعاهم إلى طعامه ومن كلام سيدى (على الخواص): « إذا دعاك أخوك المؤمن التقى إلى طعامه فأجبه تسره .

ولا تجب ظالماً ولا فاجراً ، ولا من يعامل بالربا ، ولا من يخص الأغنياء بدعوته دون الفقراء .

وإذا أكلت فلا تتحرك حتى ترتفع المائدة ، فان ذلك من سنة السلف الصالح .

وإذا غسلت يدك فادع بالبركة ، واستأذن فى الخروج) .

وفى وصية سيدى (على الخواص) : (لاتأكل وحدك ، وإلا فى ظلمه ، ولا تضيع من الطعام شيئاً ، فان ماتقدم إليك لتأكله لا لترميه فى الأرض) .

وليس من آدابهم : صرف وجوههم عن الحاضرين عند الشرب قال الشيخ نجم الدين البكرى « إذا شرب أحدكم فليشرب ووجهه إلى القوم ، ولا يصرف وجهه عنهم كما يفعل العوام بقصد الاحترام » .

وإذا فرغ احدكم من غسل يده ، فليدع لمن يصب عليه بنحو (طهرك الله من الذنوب)

ومن آدابهم : إذا استبرءوا يجعلون يدهم من داخل الثوب ويخافون من وقوع يدهم اليمنى على (فرجهم) إكراماً للقرآن العظيم ، وكتب العلم ، والمسبحة التى يسبحون عليها .

ومن كلام الشيخ (أفضل الدين) : « إنى لأستحى أن ادخل الخلاء » بثوب وقعت فيه الصلاة أو قرىء القرآن .

وربما أترك القراءة إذا تكلمت كلمة قبيحة زماناً طويلا حتى أنسى تلك الكلمة .

. . . . .

وكذلك أستحي أن أمسك (فرجي) بيدي اليمنى ، وقد بلغنا عن بعض الصحابة أنه لم يمس فرجه بيده اليمنى مذ بايع النبي - ﷺ .

ومن آدابهم : تقصير ثيابهم ، قال الحسن البصري — في قوله تعالى : « وثيابك فطهر أي فقصر .

وكذلك من آدابهم — إذا لبسوا ثوباً جديداً — لا يغفلون عن قول : « الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ، ولا قوة » لما روى أبو داود ، عن معاذ بن أنس قال : قال رسول الله — ﷺ :

« من أكل طعاماً فقال : الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن لبس ثوباً جديداً فقال : الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » .

ومن آدابهم : إكرام أهل الحرف المشروعة ، وتعظيمهم بطريق الشرع لأنهم متخلقون بالآداب مع الله تعالى ومع الكون ، وإن كانوا لا يشعرون بذلك .

(الأنوار في طبقات الأخيار الامام الشعراني)

ومن أخلاقهم عدم رد ما يأتيهم من الهدايا الحلال
إذا خافوا كسر خاطر ذلك المهدى

لاسيما الولاة الذين يشفعون عندهم فى المظلومين ، فإنهم لا يعرفون مصطلح الفقراء ويظنون أن الفقراء يشكرون فضلهم على ما يرسلونه لهم من الضحايا ، والأرز ، والعسل ، ونحو ذلك ، ولو أنهم أخبروهم بتكدرهم من إرسال شىء إليهم ربما أخذوا فى نفوسهم ، وصاروا يعارضون الفقير فى شفاعاته فى المظلومين ، ويتعبوا مره فى التوجه إلى الله تعالى فى تحويل بواطنهم .

وقد قالوا : تحويل الجبل بتوجه الفقير أهون عليه من تحويل قلب أمير وذلك أن الجبل لا عقل له ولا روية فى الأمور التى تطلب منه بخلاف الأمير .

ثم إن كان الفقير محتاجا إلى أكل مثل تلك الهدية بالطريق الشرعى أكل منها ، وإلا فرقها على من يستحق مثلها ، وقد فعلت مثل ذلك فيما يرسله الولاة إلينا من الضحايا فحل محل ردنا لهدايا الولاة والعمال كما مر فى الكتاب أنه لو ترتب على ذلك مفسدة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم الإنكار على نصيحة أحد من المسلمين

فإذا نصحوا طالب علم مثلا ، وقالوا له : اترك الاشتغال بالعلم الذى تشتغل به فلا ينبغى المبادرة إلى الانكار عليهم ، وإنما يسأل من الشيخ لماذا منعتم فلانا من الاشتغال بالعلم الذى يقربه إلى الله تعالى ، وينظر جوابه فإن قال رأيته غير مخلص فى طلبه فهو عذر شرعى ، وإن قال غير ذلك فلا يخفى حكمه وحله وقد كان سيدى أحمد الزاهد رحمه الله إذا رأى عند طالب العلم تكبر بعلمه أو عجبا واحتقار للناس يأمره بالإكثار من ذكر الله عز وجل ليطهر باطنه ورقه باطنه حجابه وترك الاشتغال بالعلم وتفرغ للذكر فطهر باطنه وذهبت رعونات نفسه كلها وأشرف ببصره على الدار الآخرة وعرف ما ينفعه هناك من العمل وما لا ينفعه فهناك يكون الإخلاص فى العلم هو سبب ومغفرة الذنوب .

وهذا الأمر قل من يقوم بفعله من طلبة العلم بل يسارعون إلى الانكار على الأشياخ ويقولون : هؤلاء يمنعون الناس عن الاشتغال بالعلم الذى هو أفضل ما عبد الله تعالى به ، ولا ينظرون إلى ذلك الممنوع هل هو مراىء بعلمه أم مخلص فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم هجرة أحد من المسلمين فوق ثلاث

لاسيما ان كانت الهجرة لحظ نفس لا لله عز وجل كما هو الغالب على الناس

وكل فقير هجر اخاه فوق ثلاث بغير حق ، فهو عاص لله تعالى ، ولرسوله ﷺ ، ولا يحل لأحد الاقتداء به لفسقه .

وقد كان سيدى عبد العزيز الديريني رضى الله تعالى عنه يقول : لا يليق بأمثالنا أن يهجر أحدا من المسلمين ، وإنما يليق الهجر بالعلماء العاملين الغواصين عن دسائس النفوس ، فإن العبد ربما هجر أخاه لحظ نفس ويزعم أنه لله عز وجل .

ولعله هجره لعدم قضاء حاجة سأله فيها عند أمير .

أو لكونه لم يقم له فى محفل .

أو لكونه لم يهد إليه شيئاً ونحو ذلك .

فيجب على العبد امتحان نفسه بما لو كان ذلك المهجور محسنا إليه كل الإحسان لا يخل بشىء من واجب حقه لكنه مرتكب معصية من المعاصى ، فإن رأيت محبته قد زالت مع ذلك الإحسان إيثارا لجناب الله عز وجل ، فليعلم أن هجرته لله تعالى ، وإن رأى محبته باقية مع العصيان لكونه محسنا ، فليعلم أن هجرته إذا وقعت إنما هى لحظ نفس من ترك إحسان ، أو قيام له فى المحافل ، ونحو ذلك وهذه ميزان تطيش على الذر .

وقد رأيت خلقا كثيرا لا ينكرون قط على من يحسن إليهم ، ولو ارتكب من المعاصى ما ارتكبه ، ثم إذا ترك الإحسان إليهم يجملون فيه العجر والبجر ، ويقولون أن هجره واجب لما هو عليه من المعاصى ، مع أن لهم فى صحبته سنين عديده ، وهو على ذلك الحال .

فليحذر الفقير من مثل ذلك الحال والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم حمل أصحابهم على المحامل الحسنه

فإذا عاشر صاحبهم أحدا من الفسقه لا يبادرون الغضب عليه ، وإنما ينبغى حمله على أنه صحبه ليسارقه بالنصح شيئاً فشيئاً ليرجع عما هو مرتـكبه من المعاصى

وهذا الخلق قل من يثبت فيه من الإخوان حيث يبادرون بالغضب على صاحبه إذا عاشر فاسقا ويقول : هجرته لله عز وجل من غير أن يفتش على قصده ، وهو جهل ، ورعونة نفس .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول : إذا صاحب صاحبك الذى هو عندك من الصالحين أحدا من الأشرار ، فاعتقد صلاح ذلك الشخص ، واجعل إشاعة ذلك الشر عن ذلك الرجل لاحقيقه لها إنما أشاعه عنه الحسدة ، وقال : لولا أن ذلك الرجل صالحا ما صاحبه صاحبى الذى هو صالح عندى انتهى .

لـكن ينبغى تقييده بالصاحب الحاذق ، أما الساذج ، فلا عبرة باعتقاده الخير فى الناس .

فافهم ذلك واعمل به والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم حضورهم مع الحق جل وعلا في حال جماعهم لحلائلهم كما يحضرون مع الله تعالى حال صلاتهم ، بجامع أن كلا منهما مشروع .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

ما شرع الحق تعالى عبادة من العبادات إلا ليحضر العبد فيها معه تعالى ، فإنه تعالى لا يصح للعبد الحضور معه إلا فيما شرع فقط .

وكان يقول : ينبغى للعارف أن يعزل شهوته لجهة نفع حليلته دون شهوة نفسه هو .

وقل من يتخلق بهذا المقام من الأقران إنما يغيب أحدهم بلذته حال جماعه عن ربه فالحمد لله رب العالمين .

البابُ السادس

فى جملة اخرى من الأخلاق

ومن أخلاقهم إكرامهم عيالهم وإعطاؤهم كل ما طلبوه من الحوائج وإعطاؤهم فلوس الحمام كلما قربوا منهم ، أو ثمن الوقود .

ولا يبخل على عياله بمثل ذلك إلا من ليس له فى طريق الصالحين نصيب .

ثم لا يخفى أن شراء الوقود لتسخن به المرأة الماء فى البيت أولى ، وأستر من ذهابها إلى الحمام ، كلما قرب منها زوجها ، لأنه ربما تكرر قربه منها فى الجمعة المرتين أو الثلاث وذهابها إلى الحمام ثلاث مرات فى الجمعة مما يلوث الناس بها فيه ، فيحصل لها خجل وحياء لا تطيقه .

وقد كان الصحابة رضى الله تعالى عنهم يخفون غسلهم عن أهليهم لأن الحياء فى مثل ذلك من الإيمان .

فليحذر الفقير من أن يدع الناس يلوثوا بعياله ويطلعوا عليهن كلما يجامعهن وليعطها أجرة الحمام أو ثمن الوقود أو يخفف عنها الجماع ، فيقرب منها كل خمسة عشر يوما مرة حتى يُفهم أنها تفعل ذلك لتغتسل من الحيض كما أفتى به عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعض النساء والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم ذمهم لأصحابهم الصادقين فى محبة
الطريق إذا خافوا عليهم عجبا بحالهم

فيقولون إن أصحابنا هؤلاء ما شموا اطريق القوم رائحة ، وليس بيننا وبينهم فى الباطن رابطة ، ولا مقدار شعرة ، ونحو ذلك ، ويورون ما أمكن .

ثم من علامة صدق التلميذ فرحه بذلك بين الناس ، ومتى تـكدر ، فقد خان عهد شيخه ، وأظهر للناس كذبه فى محبة الطريق وأنه لم يشم من طريق القوم رائحة ، وإن شيخه صادق فى ذمه ، ولا يحتاج فيه إلى تورية .

وقد درج السلف الصالح الذين أخرجهم سيدى أحمد الزاهد على ذم تلامذتهم ماداموا فى السلوك . ولا يذكرون لهم كمالا إلا عند انتهاء سلوكهم عادة ، وذلك لينتفع الناس بهم ، ويجنوا ثمرة مجاهداتهم بل قال سيدى أحمد الزاهد فى مرض موته :

إنى خارج من الدنيا وما أحد من أصحابى شرب من مشروبى[1] .

فقالوا له : ولا مدين .

فقال : ولا مدين .

وذلك لينهض همته بعده والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الإمام القشيرى : وإذا أحـكم المريد عقده ، فيجب أن يحصل من علم الشريعة ، إما بالتحقيق ، وإما بالسؤال عن الأئمة ما يؤدى به فرضه ، وإن اختلف عليه فتاوى الفقهاء يأخذ بالأحوط ، ويقصد الخروج من الخلاف ، فإن الرخص فى الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال .

وهؤلاء الطائفة ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه ، ولهذا قيل : إذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله ونقض عهده فيما بينه وبين الله تعالى .

ثم يجب على المريد أن يتأدب بشيخ ؛ فإن لم يـكن له أستاذ لا يفلح أبداً .

هذا أبو يزيد يقول : من لم يـكن له أستاذ فامامه الشيطان .

. . . .

وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ، ولكن لا تثمر . كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفسا نفسا فهو عابد هواه ، لا يجد نفاذا .

ثم إذا أراد السلوك فبعد هذه الجملة يجب أن يتوب إلى الله سبحانه من كل زلة ؛ فيدع جميع الزلات : سرها وجهرها ، صغيرها وكبيرها ، ويجتهد فى إرضاء الخصوم أولا ، ومن لم يرض خصومه لا يفتح له من هذه الطريقة بشىء .

وعلى هذا النحو جروا ، ثم بعد هذا يعمل فى حذف العلائق والشواغل ؛ فان بناء هذا الطريق على فراغ القلب .

وكان الشبلى يقول للحصرى فى ابتداء أمره : إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة الثانية التى تأتينى فيها غير الله تعالى فحرام عليك أن تحضرنى .

ومن شرطه : أن يكون له بقلبه اعتراض على شيخه فاذا خطر ببال المريد أن له فى الدنيا والآخرة قدراً أو قيمة ، أو على بسيط الأرض أحد دونه لم يصح له فى الإرادة قدم ، لأنه يجب أن يجتهد ، ليعرف ربه ، لا ليحصل لنفسه قدراً .

وفرق بين من يريد الله تعالى وبين من يريد جاه نفسة ، إما فى عاجله وإما فى آجله، ثم يجب عليه حفظ سره حتى عن زره إلا عن شيخه ، ولو كتم نفسا من أنفاسه عن شيخه فقد خانه فى حق صحبته ، ولو وقعت له مخالفة فيا أشار عليه شيخه ، فيجب أن يقر بذلك بين يديه فى الوقت ، ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه عقوبة له على جنايته ومخالفته، إما بسفر يكلفه أو أمر يراه .

ولا يصح للشيوخ التجاوز عن زلات المريدين ، لأن ذلك تضييع لحقوق الله تعالى ، وما لم يتجرد المريد عن كل علاقة لايجوز لشيخه أن يلقنه شيئاً من الأذكار ، بل يجب أن يقدم التجربة له ، فاذا شهد قلبه للمريد بصحة العزم فحينئذ يشترط عليه أن يرضى بما يستقبله فى هذه الطريقة من فنون تصاريف القضاء ، فيأخذ عليه العهد بأن لا ينصرف عن هذه الطريقة بما يستقبله من الضرر والذل ، والفقر والأسقام والآلام ، وأن لا يجنح بقلبه إلى السهولة ، ولا يترخص عند هجوم الفاقات وحصول الضرورات ، ولا يؤثر الدعة ، ولا يستشعر الكسل فان وقفه المريد شر من فترته والفرق بين الفترة والوقفة أن الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها ، والوقفة سكون عن السير باستحلاء حالات الكسل .

وكل مريد وقف فى ابتداء إرادته لا يجىء منه شىء .

ومن أخلاقهم أن لا يكتفى أحدهم بعيشته فى حسن سلفه

فإن سلفه إنما عملوا لأنفسهم ، وليس لذريتهم من أعمالهم نصيب .

فكما اجتهد سلفهم ، حتى عاشوا فى حسن أعمالهم عادة ، فكذلك يكون الحكم فى حق ذريتهم ، فما دام الناس يكرمونهم لأجل سلفهم ، فهم لم يبلغوا مقام الرجال .

وقد أخبرنى شيخنا الشيخ محمد الشناوى رضى الله عنه قال : مكثت فى بدايتى نحو عشر سنين أعتقد أن ولد الشيخ يطلع شيخا بالخاصية من غير عمل ، حتى أرشدنى شخص إلى طلب سيدى محمد السروى ، فعلمت أنى ما كنت على شىء .

وهذا الأمر قل من يتخلص منه من أولاد المشايخ ، فلا يكاد أحدهم يكتسب فضيلة اكتفاءاً بجده .

وقد انخرمت هذه القاعدة فى فرع من ذرية شيخنا المذكور آنفا ، فلم يكتف ولده الشيخ عبد القدوس بكونه ابن سيدى محمد الشناوى بل جاهد بعد والده مجاهدة الرجال حتى بلغ مبلغهم فى الأحوال الظاهرة ، والباطنة ، وكذلك هى بوادر حال ولده المسمى بعبد القدوس الموجود ولم أجد أحدا من أهله حذا حذوه فى محبة القرآن والذكر والعلم واطعام الطعام وإغاثة اللهفان ونحو ذلك حتى أنه عمر الزاوية بعد والده فكأنه لم يمت فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن يكون أحدهم هينا لينا مع أخوانه فى كل معروف فإن حضر مع قوم يذكرون ذكر المغاربه ذكر الله تعالى معهم كذلك .

أو ذكر العجم ذكر الله تعالى معهم كذلك .

أو ذكر المطاوعه ذكر معهم كذلك .

أو ذكر الهنود ذكر معهم كذلك .

أو ذكر الشناويه والاحمدية والبرهاميه ذكر معهم كذلك حتى كأنه واحد منهم .

وهذا الأمر لا يفعله إلا من كان له ذوق فى طريق الأدب أما الجامد ، كالحجر ، فربما جلس بعيد عن الذاكرين وقال هذا الذكر ما هو طريقه شيخنا ، أو هذه الصلاة على رسول الله ﷺ ما هى طريقنا ، فيفوت نفسه خيرا كثيرا ، وربما جفاه قلوب أولئك الذاكرين .

وقد رأينا جماعة كثيرا من الاشياخ يذكرون ذكرا على غير طريقه أشياخهم منهم سيدى محمد السروى ، وسيدى أبو السعود الجارحى ، وأقرهم أشياخهم فى حياتهم على ذلك لعلم الشيخ أن ذلك لا يؤثر فى صحة اقتدائهم بهم [1] .

---

(١) يقول الدكتور عبد الحليم فى كتابه المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلى: وأمر آخر أريد أن أعترف به وأن أشرح وجهة نظرى فيه :

ذلك أنى لم أتحدث عن وسط أبى الحسن وبيئته الإجتماعية ، ولم أتحدث عن شيوخه الذين يكثر بعض المؤرخين من ذكرهم ، اللهم إلا عن الولى الكبير سيدى عبد السلام بن مشيش .

وإذا كنت لم أتحدث عن الوسط وإلا عن الشيوخ فانما فعلت ذلك متعمدا إنى فعلته عن مبدأ وعن رأى قد ترويت فيه وتأملته .

إنى أرى فى صراحة أن هؤلاء الذين يكتبون عن الصوفيه فيتحدثون عن الوسط والبيئة وعن الأساتذة والشيوخ ليقولوا بعد ذلك أن الصوفى تأثر وقلد وأخذ ، وأن فكرته هذه يدين بها لفلان ، وفكرته تلك يدين فيها للوسط الفلانى . . إن هؤلاء الذين

. . . .

يدينون بالآلية فى الفكر الصوفى أو بأن الصوفى مرآة تعكس صور المجتمع والمربين ، وتنعكس فيها أفكار المجتمع والشيوخ ، ويأخذون فى تحليل آراء الصوفى وتفصيلها وتشريحها من أجل أن يعزوا كل فكرة إلى مصدر يختلف عن مصدر الفكرة الأخرى للصوفى نفسه ، إن هؤلاء الذين يصنعون ذلك مخطئون .

فالصوفى لا يكون صوفياً بالقراءة ، أو الدراسة والبحث ، حتى ولو كانت هذه القراءة والدراسة فى الكتب الصوفية نفسها وفى المجال الصوفى خاصة .

وقد يكون شخص من أعلم الناس بهذه الكتب : درسها دراسة باحث متأمل ، وعرف قديمها وحديثها ، ووزن الزائف منها والصحيح ، وصنفها زمنا وميزها أمكنه . وهو مع ذلك لا سهم له ، فى قليل ولا فى كثير ، فى المجالات الصوفية .

ولقد درس الإمام الغزالى كتب الصوفية المحققين ، درسها دراسة تعمق وتأمل ، لقد درس كتب الحارث المحاسبى ، وكتب أبى طالب المكى ، وما روى عن الجنيد ، والشبلى ، وغيرهم ، ثم اعترف بان ذلك لم يجعله صوفيا ، ولو اقتصر على القراءة ، مهما كانت عميقة ، لما كان له فى التصوف نصيب . ليست قراءة كتب الصوفية سلما يرقى به الإنسان فى معارج القدس . وابن سينا درس التصوف فى كتبه الأصلية وخالط الصوفية وتحدث إليهم ، وكتب فى التصوف فصولا توج بها كتابه الذى كان يعتز به وهو كتاب الإشارات والتنبيهات . . . ومع ذلك فإن ابن سينا لم يصر بذلك صوفيا ولم تجعله دراسته للتصوف وكتابته عنه فى عداد الصوفية .

ثم إنه قد يكون الصوفى أميا لم يقرأ فلسفة ، ولم يجهد نفسه فى بحث .

والحديث إذن عن المصادر والبيئة والأساتذة والتقليد والتأثر . . . فى مجال التصوف إنما يقوم على أساس فاسد ، وكل من ينهج هذا النهج من الكتاب عن التصوف إنما يسير فى طريق زائف ، ويقف فوق جدار منقض ، ويعتمد أسس تنقضها حياة الغزالى وحياة ابن سينا وحياة الخواص وحياة عشرات غير هؤلاء .

هذا الطريق الزائف سار فيه المستشرقون ، وحاولوا ما استطاعوا أن يقفوا بكل فكرة فى الجو الصوفى عند مصدر أجنبى ، وأن يجدوا فى تراث كل صوفى مسلم ألوانا من أفكار سابقة فى الزمن مختلفة أو متحدة فى البيئة . سار المستشرقون فى هذا الطريق الضال فضلوا أو أضلوا .

. . . . .

لقد ضلوا أو لم يثات لهم ـ بعد أكثر من قرن ونصف أى يصلوا إلى نتائج موحدة ، أو يقينية أو شبه يقينية ، بل لقد ظهروا بمظهر لا يغبطون عليه ، وذلك أن الكثير منهم كان يرى الرأى اليوم : يؤيده بما شاء من كل شاردة وواردة ، ويتلقف من أجله كل خبر ورواية ، ويخرجه للناس على أنه الحق الذى لا مراء فيه ، ثم ينقضه هو نفسه من الغد ، فيخرج برأى آخر مغاير : يؤيده بما شاء من كل شاردة وواردة ويتلقف من أجله كل خبر ورواية .

لقد فعل ذلك المستشرق « نولك » فاعلن مجوسية التصوف الإسلامى ثم عدل عن ذلك وأعلن إسلاميته . وفعل ذلك « نيكولسن » فأعلن إفلاطونية التصوف الإسلامى ثم أعلن إسلاميته فى جوهره : وأخذ المستشرقون يتحدثون عن مشكلة وهمية هى مشكلة مصادر التصوف ولا يزالون مختلفين .

وجارى الشرقيون المستشرقين فى الحديث عن مصادر التصوف وكما اختلف المستشرقون فقد اختلف الشرقيون ولا يزالون مختلفين .

سيستمر الخلاف لأن النقاش إنما هو عن مشكلة وهمية ، وسيستمر الخلاف لأن وضع المشكلة خطأ .

إنهم يتحدثون عن مصادر ثقافية على اعتبار أن التصوف ثمرة ثقافية كسبية ، وما دام ثمرة ثقافة كسبية فإنه إذن يتأثر بالوسيلة التى أدت إليه ، أى بالثقافة الكسبيه التى كانت ثمرة لها .

ولكن التصوف ليس ثمرة لثقافة كسبية ، إن الوسيلة إليه ليست هى الثقافة ، ولكن الوسيلة إليه إنما هى العمل ، إن الطريق إليه إنما هو السلوك .

والمعرفة الناشئة عن العمل والسلوك هى إلهام . وهى كشف ، وهى ملأ أعلى أنعكس على البصيرة المجلوة فتذوقه الشخص حالا ، وأحس به ذوقا وأدركه إلهاما وكشفا .

فهل يتأتى والحالة هذه أن نتحدث عن مجوسية التصوف الإسلامى ، أو عن أفلاطونيته ، أو فارسيته ، أو هنديته !

سار المستشرقون فى طريق خطأ ، وجاراهم الشرقيون فضلوا بضلالهم ، بيد أن المؤسف هو أن الناس ألفوا الحديث عما سماه المستشرقون مصادر التصوف الإسلامى ،

. . . . . .

وشارك فى الحديث عنها القارئون والسامعون ، وهكذا لبس الوهم صورة الجد ، واتخذ الزائف مظهر الصحيح وكان نقاش وكان جدل ، وما زال النقاش وما زال الجدل وسيستمر ذلك إلى أن يصحح الوضع .

وتصحيح الوضع إنما هو بحذف الوهم الذى اتخذ صورة الجد ، وبحذف الزائف الذى لبس مظهر الصحيح : أى بحذف ما يعبرون عنه بمشكلة « مصادر التصوف » .

ومن أجل ما تقدم لم أكتب من « مصادر » أبى الحسن وإذا كنت قد كتبت عن سيدى عبد السلام بن مشيش فإنما كتبت عنه كموجه ، موجه فقط ، والموجه ليس هو الموحى وليس هو الملهم ، ليس الموجه بصيرة ترق وتشف ، ولا سراً يصير مرآة مجلوة يحاذى بها الصوفى شطر الحق ولا ملأ أعلى ينعكس على بصيرة الصوفى فيتذوقه ويحسه ويشهده ، ولا مبادىء تلقى فى الروع فيدركها الصوفى سارية فى كيانه كله .

لقد تحدثت عن سيدى عبد السلام بن مشيش كموجه ، ولا بد للسالك من موجه ، لا بد له من شيخ يقوده ، لا بد له من خبير يرشده .

يقول الأستاذ رينيه جينو الفيلسوف الفرنسى المعروف :

ولا بد فى التصوف من شرط جوهرى هو « التأثير الروحى » او « بتعبير أدق البركة » وهو لا تأتى إلا بواسطة « شيخ » ومن هنا كانت « الطرق » ومن هنا كانت « السلسلة » ،

وهل السلسلة إلا بركات تنتقل من شيخ إلى مريد يوشك أن يصبح شيخا فيؤثر بدوره فى مريد أو مريدين ! » اهـ .

ويعنى الأستاذ رينيه جينو بالبركة « السر » الذى ينتقل من الشيخ إلى المريد حينما تلتقى يد المريد بيد شيخه معاهدا إياه على الإستقامة .

وإذا كان الأستاذ رينيه جينو يرى ضرورة الشيخ من أجل « السر » فإن الإمام الرازى يرى ضرورة الشيخ لأن :

« من سلك طريقا وعرف مراحلها ومنازلها وأطلع على متالفها ومعاطبها ، أمكنه إرشاد الغير إلى سواء السبيل ، والإخبار عن كيفية تلك الأحوال على التفصيل) اهـ

إلام تستمر مهمة الشيخ ؟

إنها تستمر إلى أن يرتبط السالك بالسماء ، إلى أن يشرق عليه الملأ الأعلى ، إلى أن

وقد دخل على مرة سيدى محمد الشناوى وأنا فى مجلس الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ التى هى طريقه الشيخ نور الدين الشونى فصلى معنا، وذكر على صورة ذكرنا .

فقلت له : ياسيدى ندوم على هذا المجلس أونجعل مكانه ذكر الله تعالى على طريقتكم

فقال لى : دم على ما أنت عليه .

فكان ذلك من جملة طريقه لتقريره لى عليه .

وكذلك سلك سيدى مدين فى الملبوس طريقة خلاف ما كان عليه شيخه سيدى أحمد الزاهد وأقره شيخه على ذلك ، ودام سيدى محمد الغمرى أخوه فى الطريق على التقشف فى الملبس ، كما كان الزاهد ، وأقره شيخه كذلك عليه فاعلم ذلك واعمل به والحمد لله رب العالمين .

يتمكن فى المجال الروحى ! ومن هنا كان طبيعيا أن يقول أبو الحسن ـ وقد سئل عن شيخه ـ :

« أما فيما مضى فكان سيدى عبد السلام بن مشيش .

وأما الآن فأستقى من عشرة أبحر خمسة سماوية وخمسة أرضية ، أما السماوية فجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح ، وأما الأرضية فأبو بكر وعمر وعثمان وعلى والنبي صلى الله عليه وسلم » اهـ .

وليس معنى ذلك إنفصال المريد عن شيخه إنفصالا تاما ، فإنما معنى ذلك أن الشيخ رأى بنور الله أن تلميذه قد قطع الطريق ، وأنه أصبح جديراً بأن يرشد السالكين إلى الله ، فيأذن له بالإرشاد ، ويبارك خطواته وتوجيهاته فى الدعوة إلى الله . . . ويشرق بذلك فى العالم نور جديد ، ويتالق فى سماء الروح كوكب مشرق ، وتسعد الإنسانية بها وإلى الله ويبقى التراث الروحى للإنسانية بإشراقات جديدة قريبة العهد من الله .

ومن أخلاقهم المحافظه على الفرائض والسنن الشرعيه وحفظ ظاهرهم من مخالفة الشريعة فى شىء من أحوالهم

خلاف ما عليه طائفه من الشياطين ظهروا فى النصف الثانى من القرن العاشر وادعوا عند العوام أنهم من أولياء الله الملامتية[1] ووافقهم العوام على الولاية لجهلهم بالشريعة ، أو بطريق الملامتية فاعتقدوهم مع شربهم الخمر ، وأكل الحشيش ، وتقبيل

---

(١) يقول السهروردى فى عوارف المعارف فى ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم: فقوم من المفتونين سموا أنفسهم ملامتية (والإمام السهروردى يقصد هنا إدعاء هذا المذهب وإلا فالملامتية لا يتركون شيئاً من المأمورات الشرعية كما سيأتى ذكره بعد قليل) ولبسوا لبسة الصوفية لينسبوا بها إلى الصوفية وما هم من الصوفية بشىء بل هم فى غرور غلط يتسترون بلبسه الصوفية توقيتا تارة ، وينتهجون مناهج أهل الإباحة ، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى ، ويقولون هذا هو الظفر بالمراد ، والإرتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام ، والقاصرين الأفهام المنحصرين فى مضيق الإقتداء تقليدا ، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد فكل حقيقة ردتها الشريعة فهى ، زندقة ، وجهل هؤلاء المغرورون أن الشريعة حق العبودية ، والحقيقة هى حقيقة العبودية ، ومن صار من أهل الحقيقة تقيد بحقوق العبودية ، وحقيقة العبوديه ، وصار مطالبا بامور وزيادات لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك ، لا أنه يخلع عن عنقه ربقة التكليف ، ويخامر باطنه الزيغ والتحريف .

عن عمر بن الخطاب : إن أناسا كانوا يؤخذون بالوحى على عهد رسول الله ﷺ وإن الوحى قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه ، وليس إلينا من سريرته شىء ، الله تعالى يحاسبه فى سريرته ، ومن أظهر لنا سوى ذلك لم نأمنه وإن قال سريرتى حسنة .

وعنه رضى الله عنه قال : من عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء به الظن .

فإذا رأينا متهاونا بحدود الشرع ، مهملا للصلوات المفروضة ، لا يعتد بحلاوة التلاوة والصوم والصلاة ويدخل فى المداخل المكروهة المحرمة نرده ولا نقبله ، ولا تقبله دعواه أن له سريرة صالحة .

النساء والمردان ، وصاروا يجيبون عنهم ، ويقولون هؤلاء مجاذيب لا يشهدون إلا الله تعالى وذلك زور وبهتان .

وكأن لسان حال هؤلاء المنتقدين لهم يقول :

أن رسول الله ﷺ لم يبعث بالشريعة إلى مثل هؤلاء ، وإن الشريعة التى خالفها هؤلاء كذلك كذب ، وليست عن الله تعالى ، وذلك كفر صريح .

وأما ظنهم أن الملامتيه لايتظاهرون بأحكام الشريعة ، فهو كذب عليهم إذ الملامتية فى مصطلح القوم هم أكابر الرجال وهم على قدم الإمام أبى بكر الصديق رضى الله عنه[1] لايتركون شيئاً من المأمورات الشرعية[2] .

---

(١) يقول أبو بكر الواسطى : (أول لسان الصوفية ظهرت فى هذه الأمة على لسان أبى بكر رضى الله عنه إشارة فاستخرج منها أهل الفهم لطائف توسوس فيها العقلاء .

ويقول السراج فى ذلك : إنه يشير بهذا إلى قوله أبى بكر عندما سأله النبى ﷺ : إيش خلفت لعيالك ؟ .

قال : الله ورسوله .

فهى إشارة جليلة لأهل التوحيد فى حقائق التجريد .

وقا الجنيد البغدادى : أشرف كلمة فى التوحيد قول أبى بكر : سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلى بالعجز عن معرفته .

(٢) ونشرح هنا فيا نقتطفه من أقوال السهروردى والهجويرى حال الملامتية :

يقول السهروردى فى عوارف المعارف : قال بعضهم : الملامتى هو الذى لا يظهر خيراً ولا يضمر شرا وشرح هذا هو أن الملامتى تشربت عروقه طعم الإخلاص وتحقق بالصدق فلا يحب أن يطلع أحد على حاله وأعماله .

فالملامتية لهم مزيد اختصاص بالتمسك بالإخلاص ويرون كتم الأحوال والأعمال ، ويتلذذون بكتمها ، حتى لو ظهرت أعمالهم وأحوالهم لأحد استوحشوا من ذلك كما يستوحش العاصى من ظهور معصيته .

فالملامتى عظم وقع الإخلاص وموضعه ، وتمسك به معتدا به . والصوفى غاب فى إخلاصه عن إخلاصه .

. . . . . .

فالملامتى وإن كان متمسكا بعروة الإخلاص ، مستفرشا بساط الصدق ، ولكن بقى عليه بقية رؤية الخلق ، وما أحسنها من بقية تحقق الإخلاص والصدق .

والصوفى صفا من هذه البقية فى طرفى العمل والترك للخلق وعزلهم بالكلية ، ورآهم بعين الفناء والزوال ، ولاح له ناصية التوحيد ، وعاين سر قوله (كل شىء هالك إلا وجهه).

ويقول الهجويرى فى كشف المحجوب : إعلم أن مذهب الملامة فى هذه الطريقة ، نشره شيخ زمانه أبو حمدون القصار ، وله فى حقيقة الملامة لطائف كثيرة . ويرد عنه ، رحمة الله عليه ، أنه قال :

(الملامة ترك السلامة) وإذا تعمد شخص ترك سلامته ، وأحاط نفسه بالبلايا ، وتبرأ من المألوفات والراحات جميعا ـ أملاً فى كشف الجلال وطلب المآل ـ حتى ييأس من الخلق ، ويقطع طبع ألفته منهم ، فإنه كلما كان أكثر انقطاعا عنهم ، كان أكثر اتصالا بالحق . فكل ما يقبل عليه كل خلق العالم — وهو السلامة يعرض عنه أهل الملامة ، لتكون همومهم مخالفة للهموم ، وهمتهم مخالفة للهمم ، ويكونوا وجدانيين فى أوصافهم ، كما روى أحمد بن فاتك عن الحسين بن منصور أنه سئل : من الصوفى ؟ فقال : وجدانى الذات .

ويرد عن أبى حمدون أنه سئل على الملامة فقال : إن طريقها صعب ومغلق على الخلق ، ولكن أقول عنها شيئاً ، فهى « رجاء المرجئة ، وخوف القدرية » وتحت هذا المعنى رمز .

إعلم أن هذا الطبع لا يكون أشد نفورا من حضرة الله تعالى بشىء إلا بالقدر الذى يكون كافيا لجاه الخلق ، كأن يقول عنه شخص أنه رجل طيب ويمدحه ، فيهبه روحه وقلبه ، ويتخلف به عن الله تعالى . فالخائف يجتهد دائماً أن يكون بعيداً عن موضع الخطر ، وفى هذا الإجتهاد يكون للطالب خطران : أولهما ، الخوف من حجاب الخلق ، والآخر ، منع الفعل الذى أدانه الخلق به ، فيطيلون عليه لسان الملامة ، فلا هو يركن إلى جاههم ، ولا هو بقادر على أن يجعلهم مذنبين بملامته . فينبغى للملامتى أولا ، أن يقطع الخصومة الدنيوية والأخروية عن الخلق بما يقولونه ، وأن يعمل لنجاة قلبه عملا لا هو بالكبيرة ولا بالصغيرة فى الشرع ، ليرده الخلق ، حتى يكون خوفه فى المعاملة كخوف القدرية ، ورجاؤه فى معاملة اللائمين كرجاء المرجئة .

فليتنبه الأخوان لمثل ذلك فقد أجمع مشايخ الطريق على أننا لو رأينا شخصا متربعا في الهواء لا يجوز لنا اعتقاده إلا بعد أن ننظر حاله عند الأمر والنهى ، فربما كان ذلك المتربع شيطانا فعل ذلك ، ليغوى الناس .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول : الملامتية عند القوم هم من أحكم علم الشريعة وعمل به ، وأخفى بعض الأعمال التى تميزه عن أقرانه فقط لا من تظاهر ، بتعدى حدود الشريعة ، فإن ذلك شيطان فى صورة إنسان لا يجوز لنا اعتقاد الولاية فيه .

وأما الذين يقلبون صورة الحشيش إلى الحلاوة ، أو الخمر إلى السكر ، فأولئك أرباب أحوال ، وقد صرح أهل الطريق بعدم الاقتداء بهم ، وما يفسدونه أكثر مما يصلحونه .

فإياك يا أخى والخروج عن ظاهر الشريعة ثم إياك والحمد لله رب العالمين .

ولا يوجد فى حقيقة المحبة شيء أطيب من الملامة ، إذ ليس لملامة الحبيب أثر على قلب الحبيب ، ولا مرور للحبيب إلا على حى الحبيب ، وليس للأغيار خطر على قلب الحبيب ؛ لأن الملامة روضة العاشقين ، ونزهة المحبين ، وراحة المشتاقين ، وسرور المريدين . وهذه الطائفة من الثقلين مخصوصون بملامة الجسد من أجل سلامة القلب ، ولم تكن لأى أحد من الخلائق المقربين والكروبيين والروحانيين هذه الدرجة ، ولم تكن هذه المرتبة أيضاً لمن كانوا من الزهاد والعباد أعيان الخلق من الأمم السابقة إلا لهذا الفريق من هذه الأمة الذين سلكوا طريق انقطاع القلب .

أما عندى ، فطلب الملامة عين الرياء ، والرياء عين النفاق ، لأن المرائى يسلك الطريق الذى يقبله الخلق ، والملامى يسلك بالتكلف الطريق الذى يرده الخلق . وهذان الفريقان ظلوا فى الخلق ولا مخرج لهم منهم ، حتى تكون طائفة قد خرجت بهذه للعاملة ، والأخرى خرجت بتلك . ولا يخطر على قلب الفقير غير حديث الحق ، وحين يقطع قلبه عن الخلق يكون فارغا من هذين المعنيين ، ولا يقيده شيء .

ومن أخلاقهم : كثرة صفحهم وحلمهم على من خاطبهم بقلب غافل

وإن كان الأدب من المريد أن لا يخاطب شيخه إلا مع حضور القلب ، وذلك تخلقا بأخلاق الله تعالى فى عدم معاجلته بالعقوبة على من ناجاه بقلب غافل ، ولو أن الشيخ كلّف مريده أن لا يخاطبه إلا على الحضور الكامل لكلفه شططا ، ثم لا يقدر على الدوام على ذلك ، لأن مالا يطيق غالب الناس المداومة عليه مع الله العظيم ، فكيف يقدرون على المداومة عليه مع بعضهم بعضا على أن ذلك إن وقع من الأشياخ ، فإنما هو على وجه الادمان فيهم ليترقى المريدون به إلى مقام مخاطبة الله تعالى على الحضور ، فكأنهم يقولون للمريد : لا تخاطبنا قط إلا مع الحضور بقلبك معنا لتترقى إلى الحضور بقلبك إذا خاطبت ربك عز وجل والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم بداءة : من يرونه محتاجا بالعطية

ومتى قالوا لهم ، فقد خرجوا من طريق القوم لإخلالهم بواجب حق أخيهم (
)[1] فبمن نبدأ فقال بمن يرق قلبكم عليه أكثر .

وهذا الخلق من جملة أخلاق المريدين فضلا عن العارفين ، وقل من يفعله الآن من مشايخ هذا الزمان .

وقد ادعى شخص من أكابر فقراء هذا هذا العصر أنه يحبني مثل ولده ، وحلف على ذلك ، فسألته أن يرب لى نصفا من العشرين نصفا التى له فى الجوالى كل يوم ، فحك خلف أذنه وقال: حتى أجد فى نفسى واردا بذلك فله الآن عشرون سنة ، ولم يجيئه وارد ، فأين دعواه المحبة ، وما هكذا درج السلف الصالح الذين أدركناهم .

وأصل ذلك إحكامهم مقام الزهد فى الدنيا قبل التمشيخ ، وقد عددت عائلة هذا الشيخ فوجدتهم خمسة أنفس فقط اللهم إلا أن يزعم ذلك الشيخ أطلعه كشفه على أنه لا نصيب للسائل فيما سأل أو الادعى أن ذلك الشيء يطغى السائل ، فينبغى التسليم له ، لأنه لم يمنع عن بخل والحمد لله رب العالمين .

---

(١) مطموس من الأصل .

ومن أخلاقهم : كثرة سترهم لعورات المسلمين التي يسترون بها ولا يعلنون

وإذا اطلع أحدهم علي عورة لا يحدث بها أحدا من أصحابه فضلا عن اعدائه تخلقا بأخلاق الله تعالى ، وطلبا لأن يستر الله تعالى عورته في الدنيا والآخرة ، فإن الله تعالى يجازى العبد من جنس عمله .

وممن صحبته من أهل هذا المقام الشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني والشيخ سراج الدين الحانوتي وسيدى أحمد الراشدى وسيدى محمد الظاهرى موقع السلطان ، فجزاهم الله تعالى عن المسلمين خيرا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة توبيخ نفوسهم إذا أطلعوا على عورة أحد المسلمين

ويقولون لها لولا تشوقك للاطلاع على عيوب الخلق ما وقعت على عورة أحد ، ولو كنت كارهة لذلك لحماك الحق من ذلك انتهى .

وأعرف جماعة إذا اطلعوا على عورة أحد لايحدثون بذلك نفوسهم بعد الاطلاع إنما ينسون ذلك ، حتى كأنهم لم يطلعوا علي عورة أحد ، وإن وقع أن أحدهم حدث بذلك نفسه ندم واستغفر الله تعالى كما يندم ، ويستغفر إذا شرب خمرا ، فجزاهم الله تعالى عن أخوانهم خيرا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم: عدم ازدرائهم الناس إذا وقعوا فى معصية وإنما يخافون أن يبتلوا بما ابتلى به من المعاصى

ومن كان هذا مشهده ألهاه عن احتقاره الناس وفى الحديث من عير أخاه برضاع كابه لم يمت حتى (   )[1] انتهى .

ووقع ذلك لبعض الصحابة تصديقا لكلامه ﷺ ، فالعاقل مشغول بهمّ نفسه إذا رأى أحداً فى معصية وقع خوفا أن يقع الآخر فيها ، فإنه معرض لمثل ذلك لاسيما الأكابر من العلماء والفقراء لشدة إتهامهم لنفوسهم ، فيقول العاقل لنفسه : إذا كان هؤلاء الذين هم فى المقام قد وقعوا فى هذه الرذيلة ، فكيف أسلم أنا .

وكان سيدى على الخواص يكنى عن مثل ذلك ويقول : إذا كان الحلو ضرب مقارع فكيف بالحامض والحمد لله رب العالمين .

---

(١) مطموس من الأصل .

ومن أخلاقهم : الاعتناء بستر عورة عدوهم أكثر من عورة صديقهم

لأن كشف عورة العدو ربما يمازجه الشماتة به ، ولم تسمح نفس العدو ببراءة ذمته من مثل ذلك .

وقد قيل لمالك ابن دينار : هل تحب النصح فى الملاء ؟

فقال : أما من عدوى فلا .

فإياك يا أخى والتساهل بإشاعة كلام فيه نقص لعدوك ، وتزعم أنك ما أشعت ذلك عنه إلا لكونه تجاهر به ، فإن الناقد بصير ، وهذا من أعظم أخلاقهم ولايكاد يتخلق به الا من راض نفسه كل الرياضة .

وقد كان سيدى علي الخواص يجيب عن أعدائه بأحسن جواب ، وما سمعته قط يذكر عدوه بنقص لا تصريحاً ولا تعريضاً فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم المبادرة إلى الإنكار على عالم أو صالح نقل عنه غلطة فى الشريعة أو زلة من الزلات

إنما يتربصون ويفتشون حال ذلك الشخص على مانقل عنه فإن رأوا مثله يقع فى مثل ذلك سكتوا وإن رأوا مثله يبعد وقوعه فيه أجابوا عنه بأحسن جواب ، ويقولون : هذا كذب وافتراء على فلان ، وهذا من محاسن أخلاقهم ، وقل فى هذا الزمان من يثبت فى مثل ذلك من الفقراء الذين ظهروا فى النصف الثانى من القرن العاشر ، إنما يصير أحدهم يقول : مادريتم ماجرى فلان وقع منه كذا وكذا ، ويجهل أن ذلك الأمر وقع منه ، وربما كان كذبا وزورا عليه فنعتمد تلامذته القاصرون على قوله ويصيرون يحكون ذلك للناس ولايعارضهم أحد فيه يقولون : مثل سيدى الشيخ لا يكذب ولا يحكى إلا الصحيح ، وقد حدث لى ذلك لما دسوا فى كتبى مادسوا ، فصار بعض المشايخ يحكى ذلك عنى على سبيل القطع ، ويقع هو وأصحابه فى عرضى ، فالله يغفر لنا ولهم فإياك يا أخى أن تقع فى مثل ذلك ثم إياك والحمد لله رب العالمين(١) .

---

(١) ولعل مما يجمع الأخلاق الخمسة الماضية قول الله تعالى : (لايحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً) .

عدم محبة الله سبحانه وتعالى لشىء كناية عن سخطه على من يتكلم بالسوء إلا جهر المظلوم فإن له أن يجهر برفع صوته بالدعاء على من ظلمه أو يذكر مافيه من السوء تظلماً منه مثل أن يذكر أنه سرق متاعى أو غصبه منى ولو سبه أحد أبتداء فله أن يرد على الشاتم له .

وسبب نزول هذه الآية : أن رجلا ضاف قوما — أى تاهم ضيفا — فلم يطعموه فاشتكاهم فعوقب على الشكاية فنزلت . ومناسبة هذه الآية لما قبلها : أنه سبحانه لما فرغ من بيان إيراد رحمته وإظهار رأفته بقوله (مايفعل الله بعذابكم أن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً) .

جاء بقوله سبحانه (لايحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً) .

تتميما لذلك فكأنه قيل : إنه يحب الشكر وإعلانه ويكره السوء وإعلانه .

. . . . . .

ويمكن لنا أن نأخذ من هذه الآية من التوجيهات مايفيد المجتمع الإسلامى سواء فى حياة الفرد أو الجماعة فقوله تعالى (لايحب الله الجهر بالسوء من القول) نهى مطلق عن إيجاد أى نوع من العداء بين الأفراد بعضهم مع بعض ، فإن إعلان السوء والتحدث به يزيد فى كره الناس لبعضهم بل ربما يؤدى إلى زيادة الشحناء فتتطور الأمور بين المتخاصمين إلى مالا تحمد عقباه .

يقول الله تعالى (ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه) ويقول تعالى (واخفض جناحك للمؤمنين) فإن الصبر على اعتداءات الناس وتركها لتصريف الله عز وجل — وهو خير منتقم — هو النموذج الأمثل لما يجب أتباعه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى وقال حديث حسن : (المسلم أخو المسلم لايخونه ولا يكذبه ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه ، التقوى ههنا ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم) وإذا تذكر كل مسلم دائماً أن الأخوة بين المسلمين هى الشعار الإسلامى فى كل زمان ومكان استصغر شأن العداوة فى نفسه ولم يفكر فى إهانة أخاه المسلم أو تحقيره بين الناس ولا يتعرض لسخط الله عز وجل بسبب الجهر بالسوء من القول .

عن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه) بل نحن مأمورون بمراعاة هذه الإخوة فى كل وقت من الأوقات وليست خاصة بالعداوة نفسها بل كل مايؤدى إلى الجهر بالسوء من القول يستوجب غضبه سبحانه فإن المسلم إذا زاد فى ثمن سلعة ينادى عليها فى السوق ونحوه ولا رغبة له فى شرائها بل يقصد أن يغر غيره فهذا حرام وإذا أعرض المسلم عن أخيه المسلم وهجره فذلك ظلم له وهو حرام .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لاتحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايحقره ولا يخذله التقوى ههنا (ويشير إلى صدره ثلاث مرات) بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) رواه مسلم .

وعن أبى هريره رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « حق المسلم

. . . . .

على المسلم خمس رد السلام وعيادة المريض واتباع الجنائز وإجابة الدعوة وتشميت العاطس » . ومن أنواع الجهر بالسوء من القول شهادة الزور وهي من أكبر الكبائر عن أبي بكرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يارسول الله : الإشراك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس ، فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررهما حتى قلنا ليته سكت . وشهادة الزور تعادل الإشتراك بالله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عدلت شهادة الزور اشتراكاً بالله تعالى ، ثم قرأ « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به » .

والتحدث بما لا يتماشى مع الحياء من علامات عدم الإيمان ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما كان المؤمن بالطعان ولا الفاحش ولا البذىء » والكذب من الجهر بالسوء من القول ولا يكون المؤمن كذاباً . عن صفوان بن سليم رضى الله عنه قال : قلنا يارسول الله « ايكون المؤمن جباناً ؟ قال : نعم قلنا : افيكون بخيلا ؟ قال : نعم قلنا : افيكون كذابا ؟ قال : لا .

وعن مالك أنه بلغه أن ابن مسعود قال « لايزال العبد يكذب ويتحرى الكذب ، فينكت فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه فيكتب عند الله من الكذابين » :

وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإن الكذب ليهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا .

وبعد فيقول الله تعالى فى صفات عباد الرحمن (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » ولقد بين الله تعالى بهذه الصفة أن الحلم هو مثال الأخلاق الإسلامية التى يجب أن تتبع والمراد أنه إذا هاجمهم أحد من الناس أو أعتدى عليهم لم يردوا السيئة بالسيئة ولم يعتدوا عليه ولكنهم دائماً خلقهم الحلم والترفع مع الإيمان والثقة فى أن الله سينتقم لهم من هؤلاء الجاهلين وليس معنى ذلك أن الحلم يؤخذ به فى جميع الأمور وجميع الحوادث فإن الغضب

. . . . . .

لأمور الشريعة والدين والعرض والكرامة يجب على الإنسان ولقد أباح الله سبحانه وتعالى للمظلوم أن يشكو ظالم ويظهر أمره ويكشف للناس ماقد صنعه الظالم به .

وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه يباح له أن يدعو على من ظلمه . يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » .

وعن مجاهد أن المراد « لايحب الله سبحانه أن يذم أحد أحداً أو يشكوه « إلا من ظلم » فيجوز له أن يشكو ظالم ويظهر أمره ويذكره بسوء ماقد صنعه ونرى أنه فى حالة السكوت على الظالم هو إعانة له على ذلك الظلم وتهيأة السبل له لكى يزيد فى اعتدائه على حرمات الناس واستباحه أعراضهم فربما اعتدى اليوم على فرد وغداً إذا أستمر فى ظلمه يعتدى على جماعة يقول الله تعالى « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » وقال تعالى « وما للظالمين من ولى ولا نصير » والظلم ظلمات يوم القيامة .

عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة وأتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » وبعض الناس يفسر الظلم بانه يتعلق بعظائم الأمور فقط ولكننا نرى فى الأحاديث النبوية أنواعا من الاعتداء قد لا يلقى لها بعض الناس بالا ولكنها تدخل فى باب الظلم المحرم فإن أخذ الهدية وقبولها على عمل يكلف به الشخص لايستحق فيه هذه الهدية يعتبر ظلم :

عن أبى حميد عبد الرحمن بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال : استعمل النبى صلى الله عليه وسلم رجلا من الأزد يقال له : أبن اللتبية على الصدقة فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أهدى إلى فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أما بعد » فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله فيأتى فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت إلى أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا والله لايأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه إلا لقى الله تعالى يحمله يوم القيامة فلا أعرفن أحدا منكم لقى الله يحمل بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه فقال: اللهم هل بلغت » .

معنا ، وسب المسلم للمسلم من الظلم ولا ينعقد إسلام لمسلم إلا إذا سلم المسلمون من لسانه :

. . . . .

« عن عبد الله بن عمرو بن العاصى رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر مانهى الله عنه » .

والسرقة ولو فى أبسط الأمور تعتبر من الظلم والسارق فى النار « عن عبد الله بن عمرو بن العاصى رضى الله عنهما قال : كان على ثقل النبى صلى الله عليه وسلم رجل يقال له كركرة فمات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فى النار فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها » « وعن أبى بكرة نفيع بن الحارث رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان.

أى شهر هذا ؟

قلنا : الله ورسوله أعلم .

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير إسمه قال :

أليس ذا الحجة ؟

قلنا : بلى

قال : فأى بلد هذا ؟

قلنا : الله ورسوله أعلم

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير إسمه .

قال : أليس البلدة

قلنا : بلى

قال : فأى يوم هذا

قلنا : الله ورسوله أعلم

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير إسمه

فقال : أليس يوم النحر ؟

قلنا : بلى

قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدى كفارا

. . . .

يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه .

ثم قال : ألا هل بلغت ؟ ألا هل بلغت ؟

قلنا : نعم

قال : اللهم اشهد » .

وبعض الناس لا يهمه إقتطاع حق أخيه المسلم أو تغيير حد أرضه بما يجعل ارضه فسيحة مضيقا الخناق على أرض جاره المسلم وهذا ظالم وله النار . « عن أبي أمامة إياس ابن ثعلبة الحارثى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة .

فقال رجل : وإن كان شيئا يسيرا يارسول الله ؟

فقال : وإن كان قضيبا من أراك .

حتى أنه ربما يحكم القاضى حكما فيه بعض الظلم نتيجة أن يكون الظالم أعظم حجة من المظلوم نظرا لثقافته أو ذكائه أو شىء من هذا القبيل فلا يفهم الظالم أن معنى هذا عدالة قضيته بل إنما يقضى له بقطعة من النار « عن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له بنحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار » .

وعدم قضاء المسلم حاجة أخيه المسلم خاصة إذا كان من أرحامه كأبيه أو أمه وبقية أقاربه أو كان أرملة أو يتيما أو مسكينا يعتبر من الظلم لنفسه .

أولا : لأنه يحرم نفسه من الثواب المتعلق بهذا .

وثانيا : لأنه يظلم الآخرين لأن المؤمنون إخوة .

« عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج على مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » .

« ويقول الله تعالى : « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » .

وبعد فإن العدل فضيلة يؤدى بها كل ذى حق حقه دون أن يظلم أو يظلم « وكان الله

. . . .

سميعا » بجميع الأمور فيندرج فيها كلام المظلوم والظالم (عليما) بجميع المعلومات التى من جملتها حال الظالم والمظلوم .

ثم يقول الله تعالى : « إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفو عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا) .

إن تظهروا أى خير تفعلوه من الأقوال والأفعال فيمن أحسن إليكم شكرا له على إكرامه لكم وتفضله عليكم بالتصدق بالمال أوصلتكم أرحامكم أو البعد عن الفحشاء والمنكر وإكرام اليتيم والسعى على الأرملة والمسكين وغير ذلك من أنواع الخير أو تفعلوا ذلك سراً .

وبالإضافة إلى ذلك أن تتبعوا ذلك الخير بالصفح عمن أساء إليكم مع حقكم فى رد هذه الإساءة والانتقام لأنفسكم فإن الله سبحانه وتعالى يعفو عن المذنب مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى فيعفوا الله سبحانه وتعالى عمن عفا .

لقد بين لنا الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية ثلاثة أمور إذا فعلناها نستحق عفوه سبحانه وتعالى .

أولها : فعل الخير علانية.

ثانيها : فعل الخير سرا .

ثالثها : وأن نعفو عن السوء .

والله سبحانه وتعالى يحث دائما على فعل الخير باى طريقة كانت ما دامت ملتزمة . مبادىء الشريعة الاسلامية .

يقول الله تعالى (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)

وطرق الخير كثيرة يقول الله تعالى :

(فاستبقوا الخيرات)

وقال تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » .

فالجهاد فى سبيل الله من أعظم طرق الخير فى الإسلام والإسلام يحث دائماً على الجهاد وأنه ليس له من جزاء إلا الجنة (عن جابر رضى الله عنه قال : قال رجل للنبي صلى الله

. . . . . .

عليه وسلم يوم أحد أرأيت إن قتلت فاين أنا ؟
قال فى الجنة

فألقى تمرات كن فى يده ثم قاتل حتى قتل) والله سبحانه وتعالى يطلب منا التعجيل فى فعل الخير قبل أن يمضى الوقت ويمر الزمان :

(عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:بادروا بالأعمال سبعا هل تنتظرون إلا فقراً منسيا أم غنى مطغيا أو مرضا مفسدا او هرما مفندا أو موتا مجهزا أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر) .

ومن أدق الأحاديث المبينة لكيفية حب الله سبحانه وتعالى لعبده إذا تقرب إلى ربه بجميع أنواع الخير الزائدة على الفروض ، فإن النوافل فى الحديث المقصود بها جميع أمور التقوى والصلاح التى يفعلها العبد زيادة على الفرض (عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أن الله تعالى قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بهاو رجله التى يمشى بها وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه) .

ولعل النموذج الأمثل للمسلم الحق الذى يستحق عفو الله سبحانه وتعالى ورضوانه هو نموذج عباد الرحمن . إن لله عبادا ينتسبون إليه باسم الرحمن إنهم عباد الرحمن ولهم صفات تتناسب مع أسم الرحمن وأول هذه الصفات : هو :

أن ارتباطهم بالمادة إرتباط هين ضعيف إنهم يمشون على الأرض هونا أما غيرهم فإنهم يرتبطون بالأرض وكأنهم مصفدون فيها ومادام عباد الرحمن يمشون على الأرض هونا فإن قلوبهم منفتحة إلى كل خير متطلعة إلى السماء أن قلوبهم تهفو إلى الله تحبه لاتدعو سواه إنهم لايدعون مع الله إلاها آخر من ولد أو ند تعالى الله عن ذلك أو ثروة أوجاه أو منصب ولكنهم يبيتون لربهم سجدا وقياما .

وهى أسس جامعة ينتج عنها صفات أخرى كريمة محببة مطلوبة منها :

انهم لايقتلون النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ولا ينتهكون الأعراض والحرمات ولا شك أن من ينتهك إثما من هذا القبيل فإنه يلقى سوءا بسوء .

. . . .

وعباد الرحمن لا يأتون الزور والزور هو الباطل على أي وجه كان ، إنهم لا يأتونه ولا يعينون عليه ولا يجلسون في مجالسه وإذ امروا باللغو مروا معرضين عنه يقول الله تعالى في سورة القصص (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) .

ومن دعاء عباد الرحمن : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما) وجزاء عباد الرحمن هو ماعبر عنه الله سبحانه وتعالى بقوله . (أولئك يجزون الغرفة) أي الدرجة العليا والمنزلة الرفيعة السامية (بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما) . وتكون نتيجة ذلك كله أيضاً . أن الله سبحانه وتعالى يتكفل لكل من التجأ إليه بالنصر والتأييد ويتكفل بالرعاية والعناية لكل من آمن وعمل صالحا يقول تعالى . (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) .

ويقول تعالى . (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) والصفة الثانية التي تلازمهم . أنهم سلام أينما ساروا وحيثما حلوا وحتى إذا خاطبهم الجاهلون وهم الذين لم تستنر قلوبهم بنور الإيمان فإنهم يقولون ما يؤدي بالجاهلين إلى السلام .

وصفتهم الثالثة : أن قلوبهم معلقة بالرحمن فهم يبيتون له سجـــدا خشوعا خاضعين عابدين متبتلين يدعونه سبحانه أن يصرف عنهم عذاب جهنم فإن عذابها هلاك أليم .

وصفتهم الرابعة : هي الإتزان في أعمالهم فهم مثلا إذا أنفقوا لم يسرفوا في الإنفاق ولم يستول عليهم شح مهلك وإنما كانوا وسطا بين الإسراف والإمساك . أما الصفة الخامسة فهي أن أعمالهم خالصة لله تعالى إنهم لا يشركون به ولا يعبدون رباً سواه والله سبحانه وتعالى لا يغفر أن يشرك به والله سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك .

ومن أخلاقهم مشاركتهم فى الفرح والسرور
لمن ولد له مولود

ومساعدتهم له فى عمل العصيدة والعقيقة إن كان حاله ضيقاً لا سيما الجار .

وهذا من أعظم أخلاقهم ، وغالب الناس لايحتفل بمثل ذلك ، ولا يساعده الجار الفقير بدقيق ولا عسل ، ولا غير ذلك ، ونسى قوله تعالى « وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب[1] » ، وغير ذلك من الآيات والأخبار .

فعلم أن كل من أدعى الولاية ، وأخل بحق جاره تساهلا مع القدرة على وفاء حقه ، فهو كاذب والحمد لله رب العالمين

---

(١) وتمام الآية . (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) سورة النساء آية ٣٦٠

ومن أخلاقهم حفظهم مقام إخوانهم في غيبتهم فضلا عن حضورهم

فإذا رأوا مريداً لم يفتح عليه مع طول صحبته لأحد من إخوانهم يعتذرون عنه ، ولا يقولون لو كان هذا صادقاً فى دعواه الطريق لفتح علي مريده ، وإنما يقولون لو قسم الله تعالى للمريد الفلانى على يدهم شيئاً لناله ، ولكنه لم يقسم لهم شيئاً على يدهم .

قال تعالى فى حق رسوله صلى الله عليه وسلم الذى هو أكمل المرسلين : « ما على الرسول إلا البلاغ »[1] ولما تكدر ﷺ لعدم قبول قومه ما جاء به من الهدى أنزل الله تعالى عليه « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى »[2] ، وقال تعالى « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً »[3] وقال تعالى « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »[4] .

فعلم أن كل من ادعى الولاية وأنكر على كل شيخ لم يفتح على مريده ، فهو جاهل بالشريعة حسود ، لإخوانه لم يشم من طريق الصالحين رائحة والحمد لله رب العالمين .

---

(١) وتمام الآية . (ماعلى الرسول إلا البلاغ والله يعلم ماتبدون وما تكتمون) سورة المائدة آية : ٩٩

(٢) وتمام الآية . (وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) سورة الأنعام آية : ٣٥

(٣) وتمام الآية . (ولو شاء ربك لآمن من الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) سورة يونس آية : ٩٩

(٤) سورة السجدة آية : ١٣

ومن أخلاقهم : أنهم لا يسألون ولا يردون ما أعطوه من الحلال ولا يدخرونه ، وهى طريقة مستقيمة وأدلتها مشهورة فى الكتاب والسنة ، وقد يخالفونها كذلك لأدلة أخرى وأغراض صحيحة لأنهم لايخرجون عن الشريعة فى شىء من أحوالهم غالباً بخلاف غيرهم حيث يفتى فى غير محل لم يؤمر فيه بالسؤال ، ويرد فى موضع أمر فيه بالأخذ ، ويدخر لغير غرض شرعى، فعلم أنه لا ينبغى المبادرة إلى الانكار على من رأيناه يسأل منهم أو يرد أو يدخر بل نسلم له حاله بالطريق الشرعى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لزوجتهم إذا تزوجوا عليها

وعدم شكر الجديدة بحضرة العتيقة بقصد تمييل خاطر العتيقة إليها ، فإن ذلك مما يزيدها منها نفرة ، لأن شكرها يؤذن بزيادة محبتها ، فكأنه يقول للعتيقة : أنا أحب الجديدة أكثر منك لدينها ، وصلاتها ، ونحو ذلك ، وهذا يقع فيه كثير من الفقراء الساذجين ، وقد أنشد سيدى عبد العزيز الديرينى رضى الله تعالى عنه فى ذلك .

تزوجت اثنين لفرط جهلى ... وقد حاز البلا زوج اثنتين
فقلت أعيش بينهما خروفا ... أنعم بين أكرم نعجتين
فجاء الحال عكس الحال دوما ... عذاب دائم ببليتين
رضى هذى يحرك سخط هذى ... فلا أخلو من إحدى السخطتين
لهذى ليلة ولتلك أخرى ... نقار دائم فى الليلتين
إذا ما شئت أن تحيا سعيدا ... من الخيرات مملوء اليدين
فعش عزبا وإن لم تستطعه ... فواحدة تكفى عسكرين

انتهى .

ولكن لم يزل الأولياء فى كل عصر يبتلون بسوء خلق زوجاتهم إما اختبارا لهم من الله تعالى ، وإما ليتأسى بهم أصحابهم إذا صبروا وإما تحملا منهم لأذى تلك المرأة عن الناس الذين يتزوجونها بحكم الفرض والتقدير .

وأما قول الفضيل بن عياض إنى لأعصى الله تعالى ، فأعرف ذلك فى خلق حمارى وزوجتى ، فهو جرى على الغالب ، فلا يلزم من سوء خلق المرأة سوء خلق ذلك الولى ، وقد أجمع الفقراء فى عصرنا هذا على حسن خلق سيدى على الخواص وسيدى محمد السروى والشيخ عثمان الخطاب ( )[1] الديمى ومع ذلك فقد كانت زوجاتهم فى أسوء الخلق

(١) مطموس من الأصل .

ومن ذلك أن زوجة سيدى على الخواص كانت تعتقد نجاسته ، وحكى لى مرة أنه غلط مرة ، فشرب من كوزها ، فصارت تحكه بشقفه ، حتى ظهر أثر الحك فى فم الكوز ، وكانت تهجره فى الفراش السنة وأكثر ، ومع ذلك ، فلما ماتت تبع جنازتها براية بيضاء على جريدة إلى أن أدخلها القبر ، وقال : خاطرك علينا فى عدم الوفاء بحقك ، ونحن نسألك بالنبى ﷺ أن تسامحينا ، ثم انصرف حزينا عليها .

فقلت له : ما وجه الحزن عليها مع ما كانت عليه من سوء الخلق

فقال : كان يحصل لنا على يديها الخير والأجر ، وانتمون عليها فى الصبر ، وما بقى أحد يخلفها فى ذلك ، ونحن نحب أن نفارق الدنيا على البؤس والشدة فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم سترهم لأحوالهم ما أمكن

ولا يظهرون شيئا من كمالاتهم إلا إن أمرهم الشرع بذلك كأن كانوا فى محل يقتدى بهم فيه ، فإن الإنسان كلما كتم أحواله كلما استنار قلبه وكلما أفشاها أظلم قلبه لخروج نور الأعمال منه وفرق عظيم بين الصادق الذى يتمنى أنه ينزل تحت الأرض السابعة حتى لا يعلم به ومن يحب الظهور ، ويود أن الناس كلهم يعرفون فضله .

وقد درج السلف الصالح كلهم على محبة الخفاء لأنها طريق السلامة ، فلا يحبون أن يتميزوا عن أقرانهم بخلق غريب محمود إلا لغرض شرعى ، حتى كان أحدهم إذا درس أو وعظ يمسك الكتاب ويعظ منه أو يدرس إيهاما للحاضرين أنه عاجز عن الوعظ والتدريس على ظهر قلب مع أنه لو تكلم بما فى قلبه ما حمله مركب إذا الكاملون لا تنحصر علومهم فيما وضعه الناس فى الكتب .

وقد كان سيدى أحمد الزاهد شيخ الطريق لا يعظ النساء إلا من كراس إظهاراً للضعف مع أنه كان من الراسخين فى العلم ، ولما أنكر عليه الشيخ سراج الدين البلقينى ورماه بالجهل وكان إذ ذاك فى جامع الأزهر خرج له الشيخ فى حال كالدم الأحمر إلى أن دخل الجامع ونصب الكرسى فى صحن الجامع وصاح فى الناس بأعلى صوته من يسألنى عن كل علم نزل من السماء إلى الأرض أخبره به فاجتمع عليه خلائق فلما صحى قال للناس من جاء بى إلى هنا وأجلسنى على الكرسى ؟ فقالوا له : لم يفعل ذلك أحدوأنكم عملتم كذا وكذا ، وقلتم كذا وكذا .

فقال : هل خرج لنا أحد يسألنا فقالوا له : لا فقال : الحمد لله لو أن أحداً خرج لنا لافترسناه أو قال اختطفته الجن انتهى .

فاجتهد يا أخى أن تبلغ مقام الكمل فى العلم ، ثم استتر وإياك أن تعظ الناس من كتاب عجزاً وتوهمهم أنك قادر على وعظهم ، وتدريسهم من غير كتاب فتقع فى النفاق والرياء وتحرم بلوغ ذلك المقام والناقد بصير .

وقد كان سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه يقول : والله ماخرجت للناس إلا بعد أن هددت بالسلب مرات [1] .

وطلب أهل مدينة بجاية بالمغرب من سيدى الشيخ أبى مدين رضى الله عنه أنه يعظهم فأبى فألحوا عليه ، فخرج وكان على بابه شجرة نبق ، فطار العصافير لما رأوه ، فرجع وقال : إن من نفر منه الطيور لايصح أن يكون داعياً إلى الله تعالى ، فلم يزل فى بيته ، حتى خرج فتبعته العصافير إلى مجلسه ، وصارت تضرب بمناقيرها فى الأرض حين سمعت وعظه ، حتى ماتت .

ولما أتى الوارد إلى سيدى يوسف العجمى أنه يأتى إلى مصر من مدينة كوران عاوده الوارد فقال : خاطر نفسانى ، فسمع هاتفايقول : يايوسف إذهب الى مصر مرتين أرشد الناس ، وهو يقول : هذا شيطان ، فلما خاطبه الثالثة قال : اللهم إن كان هذا وارد حق من قبلك يارب ، فاقلب لى هذا النهر لبنا ، حتى أغرف منه بقصعتى هذه ، وأشرب ، فانقلب ذلك النهر لبنا ، وشرب منه ، وأسقى الناس ، ثم ذهب الى مصر ملحقه سيدى حسين التسترى ، وقيل إنه كان فى مصر قبله .

(١) وقصة خروج سيدى أبو الحسن الشاذلى ومغادرة العزله يرويها هو بقوله :
قيل لى :
ياعلى . إهبط إلى الناس ينتفعوا بك .
فقلت :
يارب أقلنى من الناس فلا طاقة لى بمخالطتهم .
فقيل لى :
إنزل فقد أصحبناك السلامة ، ودفعنا عنك الملامة .
فقلت .
تسكلنى إلى الناس آكل من دريهماتهم .
فقيل لى :
أنفق ياعلى ، وأنا الملى ، إن شئت من الجيب وإن شئت من الغيب .

فقال له سيدى يوسف : يا أخى الطريق فى كل عصر لا تكون الا لواحد والباقى مساعد له ، فإما أن تبرز أنت لإرشاد الناس ، وأكون أنا خادمك ، وإما أن أبرز أنا وتكون أنت خادمى تفخيما لى ، حتى يعظمنى الناس ، فيقبلوا نصحى وارشادى ، فاستقر الأمر على بروز سيدى يوسف وشد سيدى حسين وسطه ، ووقف لخدمة سيدى يوسف مع أنه كان أرقى فى المقام من سيدى يوسف كما فعل سيدى على المرصفى وغيره .

فهكذا كان السلف رضى الله تعالى عنهم ، فالصادق من اقتدى بهم ، ولم يظهر من كماله شيئا إلا بالميزان الشرعى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : شدة محبتهم للسادة الأشراف رضى الله تعالى
عنهم إكراما لجدهم ﷺ من حيث إنهم
بضعة منه صلى الله عليه وسلم

ومن إجلالهم أن لا يجلس أحدنا فوق صفه أو طراحة ، وهم تحتها ، وأن لا يتزوج أحدنا شريفة منهم ألا إن كان يعد نفسه عبداً لها ، ويقدم لها نعلها كلما أرادت تمشى ، ويقوم لها كلما جاءت بعد تواريها بجدار أو ستارة .

ومن إجلالها أن لا يتزوج عليها ، ولا يتسرى عملا بقوله ﷺ : « أما إنى لا أحرم ما أحل الله تعالى ولـكن إن كان ابن أبى طالب يتزوج على ابنتى فليطلقها ، فإن فاطمة بضعة منى يسوءنى ما يسوءها ، ويسرنى مايسرها » ، فرجع على عن خطبته لابنة أبى جهل ، وكان علي قد خطبها على السيدة فاطمة عليها السلام .

وكذلك من إجلال الشريفة أن لا يقتر أحدنا عليها المعيشة إلا إن إختارت هى ذلك ولا تسأله شيئا هو قادر عليه من أمور الدنيا ، فيمنعها منه ، ولا ينظر اليها إذا كانت أجنبية لشهادة أو معالجة إلا ، وهو فى غاية الخجل من رسول الله ﷺ ، ولا ينظر إليها فى الإزار إذا مرت أو جلست عنده الا لغرض صحيح شرعى ، وتأمل أنت إذا رأيت أحداً يرمق لما يظهر من ابنتك وهى فى الإزار كيف تتكدر منه ، فـكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ذكر الجلال السيوطى وغيره أنه كان يحرم نظر زوجاته ﷺ وبناته فى الإزار وما ثبت للأصل ثبت للفرع ، وإن تفاوت المقام .

وكذلك من إجلال الشريف أن لا يمر أحدنا عليه ، وهو جالس فى الطرقات يسأل فلسا أو رغيفا الا ويعطيه ما طلب أو فوقه ، ولو أننا أعطيناه عمامتنا أو ثيابنا لـكان أفضل لاسيا إن كان يقول : أعطونى كذا لأجل الله تعالى أو لأجل جدى ﷺ .

وكذلك من إجلاله اذا كان لنا عليه حق ، وهو يماطل فيه الا نشتكيه من حاكم ،

ولا نحبسه ، ولا نوبخه ، ولا نقول له حاشا أن تكون شريفا ، ونحو ذلك من الألفاظ ، ولا نطالبه قط بعنف ، وإذا ضربنا أو أخذ مالنا نرى ذلك من باب اجراء المقادير عن الله تعالى علينا بلا واسطة أحد من الخلق ، فإما نرضى وإما نصبر لا أنزل من ذلك .

فإن مابعده الا السخط ، وذلك فى غاية سوء الأدب .

وتقدم أن من جملة الأدب مع الشريف أن نعزم عليه بأنه يفتتح بنا مجلس الذكر ، وأن لا نفتتح مجلس الذكر بحضرته ولو كان أصغر سنا منا ، أو معدودا من العوام أدبا مع جده صلى الله عليه وسلم .

وكذلك لا نتخذه تلميذا لنا فنستخدمه كما نستخدم المريدين كما يقع فيه من لا أدب له من المتمشيخين بل ننصحه بشريعة جده من غير رؤية نفوسنا من جملة أشياخه .

وقد بسطنا الكلام على حقوق الشرفاء فى المنن وفى مختصر الفتوحات المكية فراجعهما والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : حفظ حرمة أشياخهم بعد موتهم فضلا عن حياتهم

فلا يتزوجون لهم مطلقة ولا من توفوا عنها ، فإن حرمة الأشياخ فى الافادة كحرمة الآباء فى الولادة ، وربما قتله الشيخ بالحال كما وقع لسيدى محمد الشوبى ، وسيدى محمد بن عنان ، وسيدى بها الدين المجذوب ، فطعنوا من تزوج امرأتهم ، فمات فى المنام .

وهذا الفعل وإن كان جائزا فى ظاهر الشرع فما كل جائز يكون فعله أولى ، ويكفينا فى النفرة من مثل ذلك التجربة وما نقل عن بعض الشاذلية من أذنهم لتلامذتهم فى تزويج حلائلهم من بعدهم أو بعد طلاقهم لهن ، فإنما ذلك غيرة للجناب المحمدى أن يشاركه أحد فى خصوصيته وذلك خارج عن ما نحن فيه ، ولا يقدح فى أدب المريد والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم المزاحمة لمشايخ عصرهم على تلقين الذكر وأخذ العهد

لا سيما إن كانوا أقدم منهم هجرة فى الطريق الا إن جاءهم إذن من سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ مثلا ، فحينئذ يزاحمون مشايخ عصرهم امتثالا لأمر رسول الله ﷺ أو غيره من الأكابر .

فإن لم يقع لهم منه إذن صريح فمن الأدب أن يحولوا من طلب منهم التلقين مثلا إلى المشايخ الذين هم أقدم منهم هجرة ، وإن رأوا من الطالب قلة اعتقاد فى مشايخ العصر حسنوا فيهم اعتقاده بحسب الطاقة .

ولم أجد لهذا الخلق فى مصر فاعلا الا القليل فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن يتلمذوا لـكل من طلب أن
يكون شيخا عليهم ولو كانوا مأذونا
لهم فى المشيخة من أستاذهم

وكل من أبى أن يتلمذ لهم طلب منه ذلك ، فهو دليل على عدم صدقه فى الطريق وبقاء رعونة نفسه ، ومن كان كذلك فهو لا يصلح المشيخة .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : لا يتوقف أحدكم فى التتلمذ لـكل شيخ طلب منكم ذلك بل أجيبوه إلى ما طلب منكم ، ثم لا يخلوا حاله من أمرين إما أن يكون ناقصاً أو كاملا ، فإن كان كاملا تعلموا منه ، وإن كان ناقصاء فـكملوه من حيث لا يشعر هو بذلك ، ولا جماعته ، وذلك بأن تسألوه السؤالات فى الطريق ، فإذا لم يعرف الجواب عنها تقولون له : فماذا تقول فى هذا الجواب ؟ وتذكرونه له ، فيستفيده منكم من غير أن يلحق أذى بذلك من جماعته انتهى .

وقد فعلت أنا بحمدالله تعالى ذلك مع جماعة من فقراء مصر ، وقبلت أعتابهم ، وجلست بين يديهم كآحاد تلامذتهم ، وأفيدهم فوائد لم تـكن لهم على بال فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إذا ورد عليهم فقير يدعي المشيخة وتفرسوا منه أنه لا يواظب
على مجلس الذكر معهم إلا أن جعلوه يفتتح عليهم الذكر فمن
الأدب أن يعزموا عليه بأن يبتدىء الذكر

ولو عزم هو عليهم ردوا عليه الأمر ، ثم لا يزالوا يسارقونه فى تبغيضه فى حب الرياسة ، حتى يصير يكرهها إن شاء الله تعالى وكأن لسان حال هذا الشخص يقول : إن لم تدعونى أفتتح المجلس لا أحضركم .

وقد فعلت أنا ذلك مع ثلاثة طلبوا أن يكون كل واحد منهم شيخا ، فصاروا يفتتحون واحداً بعد واحد والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم: عدم أخذهم العهد على مريد نـكث عهد شيخه في حياته وجاء إليهم

لأنه لا خير فيه .

وهذا الخلق صار عزيزاً فى هذا الزمان .

وقد كان سيدى محمد الشناوى رحمه الله تعالى إذا أتاه فقير يطلب التلقين يقول له : هل سبق لك صحبه بأحد ؟ فإن قال : نعم قال له : فلم فارقته ؟ فإن قال : ما حصل لى على يديه خير حسَّن اعتقاده فيه وأبى أن يلقنه انتهى .

فاعلم ذلك يا أخى واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم أخذهم العهد على مريد بأنه لا يفعل كذا فى المستقبل خوفا عليه من نقض العهد

فإن خلق الأفعال ليس هو إلى العبد ، وإنما هو إلى الله تعالى ، وإنما الأدب : أن يعلمه التوبة من كل ذنب وقع فيه على الفور لا غير . هذا ما عليه المحققون والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم البشاشة فى وجه أحد من مريدى مشايخ عصرهم

خوفا عليه أن يميل إليهم بالمحبة ويترك شيخه ، فيحصل عدم الوفاء بحقه اللهم إلا أن يكون ذلك المريد ثابت القدم فى محبة أستاذه ، فهذا لا تضر البشاشة له ولا إطعامه الطعام لعدم المحذور الذى ذكرناه ، وهذا الخلق ما رأيت له فاعلا فى مصر غيرى فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن يحمى أحدهم الخرقة من الطعن فى أهلها

وذلك بالاستقامة ، فلا ينبغى لأحدهم أن يلبس الصوف ، ويرخى له العذبه إلا بعد كال رياضة نفسه ، وزوال سائر رعوناتها ، وذلك بالخروج عن محبة الدنيا ، وشهواتها ، ومناصبها ، بحيث لا يصير يسترقه شىء منها .

فإن الفقير مادام يميل إلى شىء من الدنيا ، فلبسه للصوف ، وارخاؤه العذبه نفاق ، ورياء

وقد كان سيدى أحمد بن الرفاعى رحمه الله تعالى إذا رأى على فقير جبه صوف قبل خمود نار بشريته يقول له : يا ولدى استعجلت لباس الصالحين قبل استحقاقك له فإن الصوف لباس الأنبياء ، وحلية الاصفياء ، فأنزعه ، حتى تكمل رياضتك لنفسك وتلتحق بالصالحين عند الناس ، ثم ألبس لبستهم فاعلم يا أخى ذلك وأعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن لا يبادروا إلى تلقين الذكر لكل من سألهم ذلك إظهاراً لعزة الطريق

وكذلك من أخلاقهم أن لا يبادروا إلى تلقين أحد من العلماء إجلالالهم وتعظيما لجناب العلم إلا أن يكون أحدهم صاحب حال مع الله تعالى ، وتصريف .

وقد يكون ذلك العالم أعلم من ذلك الشيخ بالشريعة وقد بلغنى أن الشيخ ( )[1] لقن شيخ الإسلام الشيخ نور الدين الطرابلسى ، فعبت ذلك عليه وأرسلت له أوبخه على مثل ذلك ، فتاب إلى الله عز وجل وقال : إنى كنت جاهلا بمثل ذلك.

وكذلك وقع لشخص آخر أنه لقن الشيخ عبد الحليم بن مصلح ، فوبخته على ذلك غاية التوبيخ لعلمى بأن ذلك الشيخ لا يصلح تلميذا للشيخ عبد الحليم ، وإنما أجرأه على ذلك كثرة التواضع من الشيخ عبد الحليم .

فعلم أنه لا ينبغى لفقير أن يبادر إلى تلقين أحد من طلبة العلم إلا إن وثق بصدق حبه للطريق والحمد لله رب العالمين .

---

(١) مطموس من الأصل .

ومن أخلاقهم : عدم تمريضهم لأحد من الناس أن يصحبهم

أو لأحد من الاخوان أن لا يتخلف عن حضور وردهم ، أو لا يصلى الجمعة إلا عندهم ، ونحو ذلك من التقييدات التى لم تصرح بها الشريعة إلا لغرض شرعى بشرط الراحة فى ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فإن للناس اعذارا .

وقد قالوا : كل من ضيق على أصحابه لرعونة نفس نفروا منه بقلوبهم ، فعدموا النفع به كما عليه بعض مشايخ هذا الزمان الذين ظهروا بغير حق ، وجلسوا بغير إذن ، وقد شكى لى جماعة من أصحابهم مراراً ما يقاسونه من شدة التضييق عليهم ، وما هكذا درج الأشياخ الذين أدركناهم .

والاجتماع مقدر وليس المقصود من الشيخ إلا أنه يجيب المريد كلما سأله عن مرض من الأمراض لا غير ، ولو أن هؤلاء الأشياخ كانوا صادقين مع الله تعالى ، لكانوا يرون نفوسهم أحقر الناس ، وكانوا يستحيون من دعاء الناس ، لمجالسهم خوفاً من الوقوع فى حب الرياسة ، والعجب .

فإياك يا أخى والتضييق على اخوانك إذا عملت شيخا وسهل عليهم الطريق باطعامهم الطعام تارة ، وبشكرك لهم فى المجالس تارة ، وبخدمتك لهم تارة ولا تتكبر عليهم فإن سيد القوم هو خادمهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم تعاطى الأمور المفسقة فى مقام العارفين

كأكل الشهوات ، وكثرة النوم ، واللغو ، والاعتناء بالملابس ، والمناكح ، والمراكب فإن القوم قالوا : من فسق العارف تناوله الشهوات الحاجبة له عن حضرة الله تعالى.

وقال الإمام الغزالى رحمه الله تعالى : من شارك الفسقة فى الشهوات فقد انخرط فى مسلكهم من حيث المؤاخذة بها والعتاب عليها وذلك بتفاوت المقام ، فإن معنى الغرور فى الحياة الدنيا إيثار العبد الدنيا على الآخرة ، ومن تناول الشهوات ، وأكثر منها فقد صدق عليه أنه آثر الدنيا على الآخرة ، وليس ذلك من صفات القوم الذين يحبهم الله عز وجل ، ومن كان عدو الله تعالى ، كيف يدعي الصلاح وفى الحديث « إن الله تعالى ليحمى عبده المؤمن من الدنيا كما يحمى أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه »[1] انتهى .

وقد ذم الله تعالى الكفار بقوله تعالى : (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون)[2] وما ذم الله تعالى الكفار على فعله ، فنحن أولى بتركه والحمد لله رب العالمين .

---

(١) وتمام الحديث : (إن الله تعالى ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الوالد ولده بالخير وإن الله تعالى ليحمى عبده المؤمن من الدنيا كما يحمى المريض أهله الطعام) رواه البيهقى فى شعب الإيمان وابن عساكر عن حذيفة .

(٢) وتمام الآية : (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) سورة الأحقاف آية : ٢٠

ومن أخلاقهم : عدم الغفلة عن استحضار زلاتهم ونسيان حسناتهم فيستقلون طاعاتهم ويستكثرون سيئاتهم

وعلى ذلك درج السلف الصالح كلهم رضى الله عنهم ، حتى إن مالك بن دينار ، والحسن البصرى كانا يقولان : لو حلف حالف أن أعمالنا أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب لقلنا له : صدقت لاتكفر عن يمينك انتهى وفى الحديث مرفوعا : « المؤمن يرى ذنوبه كأنه تحت جبل يخاف أن يقع عليه فيهلك والفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال : بيده هكذا يلشه عنه » انتهى .

ويقرب من هذا من اغتر بكثرة علمه دون عمله ، فصار يرى علمه كالجبال مع أن عمله به ، كالذر ، وذلك من أعظم الغرور ، لاسيما إن كان كبير النفس كثير الجدال لا يتجرأ أحد ينصحه ، فإنه يهلك بالكلية والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا رأى أحدهم حاله فاق على إخوانه حتى كاد أن يطفى نورهم أن يتظاهر بضد ذلك إيثارا لإخوانه بالشهرة بالصلاح

فإذا اشتهروا وانطفى هو فرح بذلك أشد من ظهور نوره ، وأقبل على عبادة ربه وقال : الحمد لله الذى كفانا أخونا فلان المؤنه ، فجزاه الله خيرا .

فإن من شرط الفقير الصادق أن يقوى نور أخيه ، ويختفى هو ، ثم يسأل الله تعالى لأخيه أن يحفظه من الآفات كالعجب وحب الرياسه ، ونحو ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أنهم لا يقنعون بالأخذ من أحكام الشريعة على الوجه الظاهر دون مطالبة نفوسهم بالحقائق

وتفتيش قلوبهم ، وإنقاء ما فيها من الصفات المذمومة من غير إزالة لها ، كالكبر والرياء والحسد والعجب والنفاق ، وحب الرياسة ، وإرادة التسويه بين الأقران والسرور بظهور نقائصهم ، ومحبة الانفراد باسم الصلاح دون الأقران ، ونحو ذلك من صفات المغترين .

وسبب هذا الغرور نسيان ما ورد من الوعيد لأصحاب هذه المعاصى الباطنه كقوله صلى الله عليه وسلم (الرياء هو الشرك الأصغر) وكقوله : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » وكقوله ﷺ : « حب المال والترف ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » وغيرها من الأحاديث .

ولو نظروا فى قوله تعالى (إلا من أتى الله بقلب سليم[1]) لعرفوا أن الله تعالى يؤاخذهم بجميع الصفات المذمومة ، لأن من ارتكب صفه منها ، ولم يتب لم يأت ربه بقلب سليم .

وقد قال الإمام الغزالى : من لم يُصَلّ وقلبه مع جوارحه لم تصح صلاته كما عليه طائفه المتوسوسين ، وهو كريض ظهر به الجرب ، فأمره الطبيب بالطلاء وشرب الدواء ، فترك شرب الدواء القاطع لمادة الجرب ، وصار يطلى ظاهره ، فكلما برىء من شىء طلع له من الباطن جرب آخر ، ولو أنه أزال مادة الجرب من باطنه لاستراح من علاج الظاهر ، وصار سليما من الجرب ظاهرا ، وباطنا ، فهكذا الخبائث إذا كانت كامنه فى القلب ، فلابد أن تظهر على الجوارح .

فعلم أن العبد لا يخرج عن الرياء والنفاق إلا لمن تساوت سريرته ، وعلانيته ، ولم يصر فيه صفة يفتضح بها فى الدنيا والآخرة والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الشعراء آية : ٨٩ .

ومن أخلاقهم : كثرة اتهامهم لنفوسهم إذا ادعت أنها سلمت من الأمراض الباطنه

إذ لا يلزم من الاطلاع على الدسائس الباطنه عدم الوقوع فيها ، وأكثر من يقع في مثل ذلك المتمشيخون بأنفسهم ، ومن جلس للوعظ من غير سلوك على يد شيخ صادق ، فيظن بنفسه أن مثله لا يبتلي بتلك الأمراض ، وإنما يبتلى بها العوام ، وذلك غاية الغرور .

وإن قدر أنه ظهر منهم كبر على أحد من المسلمين لا يرونه كبرا وإنما يقولون : ذلك من عز الدين ، ولو أنهم كانوا صادقين في أن ذلك من عز الدين لهضموا نفوسهم وتواضعوا كما كان عليه السلف الصالح من الصحابه ، والتابعين .

وقد عوتب الإمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين فتح بيت المقدس ، وعليه مرقعة .

فقال : إنا قوم أعزنا الله تعالى بالاسلام ، فلا نطلب العز في غيره .

وقد رأيت قوما يلبسون الثياب الرفيعة الغالية الثمن من حرام وشبهات ، ويزعمون أن لبسها من إعزاز الدين ، وذلك من أكبر الغرور مع اطلاق أحدهم لسانه بالغيبة ، والحسد في أقرانه ، فأين اعزاز الدين ، وإنما اعزازه بالعمل بأحكام الشريعة ، وآدابها على وجه الإخلاص هذا هو إعزازه .

وكذلك رأيت بعضهم يدعى مقام التواضع ، وأنه من أقل الناس وإذا نبهه شخص على شيء من نقائصه أو رد عليه تقريره في مسئله يكاد يتميز من الغيظ ، ولو أن مثل ذلك وقع لأحد من أقرانه لربما فرح ، فأين إعزاز الدين إنما ذلك إعزاز للنفس ونصرة لها وإظهار للكبر كما ورد في الصحيح مرفوعا « الكبر بطر الحق وغمط الناس » أى رد الحق وعدم قبوله ، واحتقار الناس أى عن أن يكون أحدهم ناصحا له أو واعظاله — فهذا في أعلى درجات الكبر ولا يشعر بنفسه .

فليتنبه لمثل ذلك من عمل شيخا فى هذا الزمان .

وكذلك رأيت بعضهم أحكم العلم والعمل ، ويدرس الناس العلم ، ويعظهم ، ويزعم أن ذلك خالص لوجه الله عز وجل ، ولو أن شخصا ظهر ، وصار يعلم الناس العلم ، ويعظهم ، وانقلب إليه جماعته لتميز من الغيظ .

فليمتحن العبد نفسه فإن تكدر ، فهو مرائى وإن لم يتكدر ، فهو مخلص فليشكر الله تعالى على ذلك .

وبالجملة فمن رجح فى نفسه محبة أن يكون صلاح الناس على يده دون يد غيره ، فهو لم يشم من الإخلاص رائحة .

وكذلك رأيت بعضهم يشفع عند الحكام والكشاف ومشايخ العرب ، وغيرهم فى المظلومين ، ويزعم أن ذلك خالص لله تعالى ، ولو أنه ظهر شخص يشفع عندهم وقبلوا شفاعاته ، وصاروا يردون شفاعته هو لتكدر .

فليعرض الشيخ ذلك الأمر على نفسه ، فإن رآها فرحت بذلك الشخص الذى قبل الولاة شفاعته أكثر من فرحها بقبول شفاعته هو فهو صادق ، وإلا فهو لم يشم من الإخلاص رائحه ورأيت بعضهم يأخذ من مال الأمير وإذا توقف فى حله يرجع إلى قول ذلك الأمير مثلا : إن هذا من المصالح ، ومثلك يستحقه لأنك حامل الشريعة ، وقائم بنصرة الدين ولايخفى أن ذلك كله غرور ، ولو عمل بما علم من الشريعة لتورع عن قبول مثل ذلك .

وقد كان الإمام عبد الله بن المبارك يقول : ما أكل حامل القرآن من مال الولاة ، الذين لا يتورعون إلا ناداه القرآن العظيم من جوفه : أضاعك الله تعالى كما ضيعتنى أين مواعظى ، وزواجرى ، وأنت تأكل من مال هؤلاء الولاه انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة تفتيشهم على عيوبهم الكامنة التي لم تظهر لهم وعدم قناعتهم بتطهير الجوارح الظاهرة والباطنة من المعاصي الظاهرة والباطنة ، فإن الشيطان ، والنفس في مثل ذلك خدعا ، ومكائد تغمض على غالب الناس ، ومثال من يقنع بتطهير جوارحه مما ظهر بها من الصفات دون ما لم يظهر مثال من أراد تنقية زرعه من الحشيش ، فدار عليه وقلع كل حشيش ظهر من الأرض ، ولم يفتش على ما لم تخرج رأسه من الأرض بعد فبينما هو مطمئن من ظهوره إذ أخرج رأسه من الأرض وأفسد الزرع .

وكذلك رأيت بعضهم إذا نجاه الله تعالى من الأمراض الظاهرة والباطنة يصير يرى نفسه على غيره وذلك من أعظم الكبر ، فليتنبه الفقير لمثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا وعظوا الخلق أن لا يدعوا الناس إلى شيء إلا بعد عملهم به

كما كان عليه الحسن البصرى ومالك بن دينار وغيرهما ، وذلك خوفا أن يرد المدعون عليهم دعوتهم حين لا يرونهم يعملون بها ، وهذا خلاف ما عليه بعض الوعاظ ، فيظن أحدهم بنفسه إذا عرف الصفات المنجيه ، ودعى الناس إليها ، فهو ناج بمجرد دعوتها ، والحال أنه هالك شرعا لمعرفته للصفات المهلكة من غير أن يجتنبها ، وربما قال أحدهم فى نفسه : إن الله تعالى ما أطلعك على صفات المحبين إلا وهو يحبك ، ولا على صفات المخلصين إلا وأنت مخلص ، ولا على عيوب النفس إلا وأنت متنزه عنها ، وكذلك القول فى سائر الصفات .

وربما كان أحد هؤلاء أشد الناس حبا للدنيا والرياسه ، وأقل صبرا على التقشف وأكل الملح والخل وربما كان طعامه كل ليلة اللحم الضانى .

والحلوى مما لا يجده غالب أقرانه .

وربما أظهر أحدهم الزهد فى الدنيا لشدة حرصه عليها ، وجعل الزهد فيها حرفه يحترف بها القمح والعسل والأرز ، والثياب من أبناء الدنيا .

وربما حث أحدهم الناس إلى الإخلاص وهو غير مخلص .

وربما أظهر أحدهم الدعاء إلى الله تعالى وهو من جملة الفارين عنه .

وربما خوف الناس من الله تعالى ، وهو منه آبق ، وآمن .

وربما أمر الناس بذكر الله تعالى وهو له ناس .

وربما دعاهم إلى القرب من الله تعالى وهو منه متباعد .

وربما ذم لهم الصفات المذمومة ، وهو بها متصف .

وربما حث الناس على الزهد فى الخلق ، وهو أشدهم رغبة فيهم ، ولو امتنع أحد من حضور مجلسه الذى يعظ الخلق فيه واجتمع بواعظ آخر اضاقت عليه الأرض .

وربما قالت له نفسه : إنما ضاقت عليك الأرض محبة فى الله تعالى لا حبا فى الرياسه .

فليمتحن نفسه بما لو أقبلوا على واعظ آخر وانتفعوا على يديه فإن فرح بذلك وانشرح فهو صادق فى محبة الخير للمسلمين ، وإن انقبض خاطره ، فهو محب للرياسة بوعظه خارج عن طريق أهل الله عز وجل .

وقد رأيت بعض المترددين إلى بعض الوعاظ ترك ذلك الواعظ ، وصار يتردد إلى واعظ آخر ، فصار كلما رآه يعرض عنه ، فقلت لذلك الواعظ : لا ينبغى لك الإعراض عنه إلا إذا ترك طريق الشريعة جملة ولم يجتمع بمن يرشده أما من اجتمع بمن يرشده فلا ينبغى لك هجره فلم يدر جوابا فقلت له : فاستغفر الله تعالى يا أخى من وعظك للناس من حيث نيتك الخبيثه ، فاشتد غضبه على ، فمثل هذا بعيد عن طريق الرشاد والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا وعظوا الناس أن لا يخرجوا عن الأمور التى كلف الله تعالى بها عباده

بذكر المقامات ، والشطح ، والسجع ، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع ، والهذل طلبا للاغراب .

بل ، ويكون عمدة مجلس وعظهم فى تطميع الناس فى رحمة الله تعالى ، وتخويفهم من عذابه .

فليحذر الواعظ الذى يتشبه بهم فيتحدث بشعار الوصال والفراق والهجر وغير ذلك مما يدعوا النفوس القوية إلى التعشق بما لا يحل من النساء ، والمردان .

وربما صعق فى مجلسه صاعق ، فيظن من لا فراسة له أن تلك الصعقة ربانية ، والحال أنها شيطانية ، فيصير الناس يقولون : كان مجلس الواعظ اليوم عظيما صعق فيه جماعات ، والحال أنه كان مجلس سوء لما وقع فيه من جر الخلق فيه إلى الأغراض الفاسدة ، وتضليلهم عن سواء السبيل ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : الإقبال على الله تعالى فى صلاتهم

وعدم الوسوسة فى المبالغة فى الطهارة ، ومخارج الحروف والنية ، والتكبير وذلك لكثرة رياضة نفوسهم قبل ذلك ، وغلبة الحضور عليهم بخلاف من لم يرض نفسه ، فإن هذا ربما توسوس ، حتى فاتته الصلاة فى أول الوقت أو فاتته ركعة مع الإمام أو الصلاة كلها .

وربما توسوس فى التكبير ، حتى أخرجه عن حقيقته وربما توسوس فى مخارج الحروف ، حتى فرغ من القراءة ، وهو غافل عن معانيها ، وغاب عن هؤلاء أن الله تعالى لم يكلف العباد فى تلاوتهم القرآن إلا بما جرت به العادة العرفيه فى الكلام .

وكان الإمام الغزالى رحمة الله تعالى يقول : مثال من اشتغل بمخارج الحروف والفرق بين الظاء والضاد ونحو ذلك مثال من حمل رسالة إلى مجلس السلطان ، وأمر أن يؤديها على وجهها ، فأخذ يؤدى الرساله ، ويتأنق فى مخارج الحروف ، ويكررها ، ويعيدها المرة بعد الأخرى بالتمطيط ، والفصاحة الزائدة ، فمثل هذا ربما أقيمت عليه السياسة ، ورد إلى دار المجانين ، لغفلته عن مقصود الرسالة ، وعدم مراعاته حرمة المجلس انتهى .

فالحذر الحذر يا أخى من ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : مطالبة نفوسهم بإلقاء الذهن إلى فهم معاني القرآن الكريم ومواعظه وزواجره إذا تلاه

ولا يقنعوا بمجرد تلاوته وهذرمته ، حتى إن بعضهم يقرأ كل يوم ختمه ، ويظن أنه صار بذلك من المقربين مع أنه يحب الدنيا ، وينازع عليها ، ويتمنى أن يكون في يده جميع ما في أيدي الناس ، وربما صارت ألسنة هؤلاء تجرى بألفاظ القرآن العزيز ، وقلوبهم تتردد في أودية الآمال والتفكر في أمور الدنيا لا يتعظون بمواعظه ، ولا ينزجرون بزواجره ، ولا يقفون عند حدوده ، ولا يعتبرون بمواضع الاعتبارات منه .

ولا شك أن من ترك أوامر الله تعالى ، ووقع في مناهيه يستحق العقوبة ولو قرأ القرآن كل يوم ألف مرة .

وربما يكون الحامل لبعضهم على حب تلاوة القرآن حسن صوته عنده أو عند الناس، فهو يقرأ أو يتلذذ بذلك ليلا ونهارا ، ويظن أن تلك اللذة إنما هي بمناجاة الله عز وجل ، وتلاوة كلامه من حيث هو كلامه تعالى ، والحال بخلاف ذلك ، إذ لو نظرت إلى لذة كلام الله تعالى ، لغاب عن حسن صوته ، ونغمته ، ولم يعلق خاطره بسواه لأن لذة كلام الله تعالى إنما تكون من حيث المعنى .

وقد ذكرنا في كتاب تنبيه المغترين أن السلف الصالح كانوا يبكون كلما قرأوا القرآن الكريم ، ويقولون نقرأ شيئا ولا نعمل به والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم الاعتماد على شيء من أعمالهم الشاقة كالصوم والحج الكثير

هذا إذا سلمت الأعمال من الآفات فكيف إذا احتفت بالآفات ، كالذى يقوم الدهر أو الأيام الشريفة ، ولا يحفظ لسانه عن الغيبة ، ولا بطنه عن الحرام ولا جوارحه عن المخالفات ، ولا خواطره عن الرياء

وكالذى يحج مع عدم رد المظالم إلى أهلها قبل الحج ، ويخرج بزاده الذى عمله من حرام أو شبهات .

وربما أخذ مال الولاة ينفقه على المحتاجين فى الطريق ، فأنفقه كله على نفسه وخزن ماله الذى هو أحل من ذلك .

وربما أخذ المال الحرام من الولاة ، وأنفقه وأوهم الناس أن ذلك من ماله رياء أو سمعه .

وهذه كلها ظلمات بعضها فوق بعض لأنه عصى بأخذه الحرام أولا ، وبإنفاقه ثانيا ، وبريائه بذلك ثالثا ، ثم دخل إلى مكة بقلب ملوث بالرزائل ، وخبث الصفات ظانا أنه على قدم عظيم ، وأن أحدا لم يؤد المناسك مثله ، وذلك غاية الغرور ، وربما رجع إلى بلاده ممقوتا من بعض الأولياء برؤيته نفسه على الناس فى حضرة الله تعالى الخاصة ، كما وقع لإبليس والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا جاوروا بمكة أو المدينة أن يراعوا حقوق الله تعالى وحقوق نبيه صلى الله عليه وسلم

وإن علموا من نفوسهم عدم حفظ الحقوق رجعوا إلى أوطانهم من غير مجاورة (ذ المجاورة مأخوذه من مجاورة الإنسان لجاره ، ومن أقام بمكة فهو جار الله تعالى ، ومن أقام بالمدينه فهو جار سيدنا رسول الله ﷺ وإن لزم من مجاورة رسول الله ﷺ مجاورة الله تعالى ، وعكسه .

وقد أمر الله تعالى باعطاء الجار حقه فى عدة آيات ، وأخبار[1] .

---

(١) يقول الله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى والجار الجنب ، والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » إن الله سبحانه وتعالى يامرنا فى الآية أن نحسن إلى الجار ذى القربى والجار الجنب، وقرن الأمر بالإحسان إليها إلى الأمر بالإحسان إلى الوالدين .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الجار ذا القربى هو الذى بينك وبينه قرابة ، والجار الجنب الذى ليس بينك وبينه قرابة .

وكما أمر الله سبحانه برعاية الجار والإحسان إليه ، فقد حث رسول الله ﷺ على العناية بالجار وأمر برعايته .

لقد أعلن رسول الله ﷺ إلى المسلمين عامة أن جبريل عليه السلام ما زال يوصيه بالجار حتى ظن أنه سيورثه .

ويروى الإمام مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت .

أما من سولت له نفسه إيذاء جاره بأى وجه من وجوه الإيذاء فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينذره هذا الإنذار الخطير الذى يجب أن يتدبره كل مسلم .

عن أبى هريرة رضى الله عنه فيما رواه الإمام البخارى والإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال :

ولا شك أن الله تعالى أو رسوله ﷺ أعظم جار فحقه أعظم الحقوق ، وقد تقدم أن من حقوق الله تعالى فى مكة أن لا يخطر لمن جاور بها معصية ، ولا سب على طعام ، ولا ثياب ، ولا مال زائد عن ضرورته فى ذلك اليوم إلا إذا لم يكن بمكة أحد محتاج لذلك ، وكذلك لا يشتاق إلى وطنه مدة إقامته إذا المشتاق إلى وطنه يصير قلبه فيه ، وجسده بمكة ، فكأنه لم يجاور ، ومن هنا كره الأكابر من الصحابة والتابعين الإقامة بمكة لعظم حقوقها ، حتى كان الشعبي يقول : كان الأمام عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه يقول : يكثر الحجاج فى آخر الزمان بلا سبب يهون على أحدهم السفر ، ويبسط له فى الرزق ، فيرجع محروما مسلوبا لاتخاذه الحج التنزه فى الجبال والرمال مع أن جاره الذى إلى جنبه محتاج ، فلا يتفقده ، ولا يواسيه لا سفرا ولا حضرا انتهى .

« والله لايؤمن ، والله لايؤمن ، قيل : من يارسول الله ؟
قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه .
وفى رواية أخرى : لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه .
والبوائق هى الشرور والإيذاء .

على أن الإحسان إلى الجار بمختلف صور الإحسان إنما هو وسيلة إلى الهدوء والطمانينة والأمن وإلى التعاون المتبادل ، إنه وسيلة إلى سرعة الإغاثة فى الشدة ، وإلى النجدة فى المحن ، وإلى الألفة والمودة حينما تسير الحياة سيراً لا شدائد فيه ومن أجل ذلك وغيره كانت حكمة الله سبحانه فى الأمر برعاية الجار والإحسان إليه وفى أمر رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، بالعناية بالجار وعدم إيذائه .

وبعد : فإن جابر بن عبدالله ، رضى الله عنه يروى عن رسول الله ﷺ ، فيما ذكره البزار قال رسول الله ﷺ :

« الجيران ثلاثة : جار له حق واحد . وهو أدنى الجيران حقاً ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق ، وهو أفضل الجيران حقاً .

فأما الجار الذى له حق واحد ، فجار مشرك لا رحم له ، له حق الجوار ، وأما الجار الذى له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار ، وأما الذى له ثلاثة حقوق ، فجار مسلم ذو رحم له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم » .

قال الشعبي ولاشك أن الاحسان إلى الجار أفضل من صرف المال فى التنزهات ، فإن من علامة الرياء تقدم المفضول على الأفضل .

وكان الشعبي يقول أيضا : لأن أجلس حمام أحب إلى من اقامتى بمكة[1] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ولعل ذلك راجع إلى قول الله تعالى :

« إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » .

والإلحاد فى اللغة هو العدول عن القصد والمراد بهذا الإلحاد هو الظلم على أى وجه كان سواء كان شركا أو قتلا أو إستحلال محظورات الإحرام أو استحلال الحرام تعمداً أو غير ذلك من إحتكار الطعام إلخ . .

من أنواع الظلم .

ويقول الإمام أبى الفرج عبدالرحمن بن الجوزى : فإن قيل : هل يؤاخذ الإنسان إن أراد الظلم بمكة ولم يفعله ؟

فالجواب من وجهين :

أحدهما : أنه إذا هم بذلك فى الحرم خاصة عوقب وهذا مذهب ابن مسعود فإنه قال : لو أن رجلا هم بخطيئة ، لم تكتب عليه مالم يعملها ولو أن رجلا هم بقتل مؤمن عند البيت، وهو بـ « عدن أبين » أذاقه الله فى الدنيا من عذاب أليم .

وقال الضحاك : إن الرجل ليهم بالخطيئة بمكة وهو بأرض أخرى ، فتكتب عليه ولم يعملهـا .

وقال مجاهد : تضاعف السيئات بمكة ، كما تضاعف الحسنات. وسئل الإمام أحمد: هل تكتب السيئة أكثر من واحدة ؟ فقال : لا ، إلا بمكة لعظيم البلد . وأحمد على هذا يرى فضيلة المجاورة بها ، وقد جاور جابر بن عبدالله ، وكان ابن عمر يقيم بها .

والثانى : أن معنى : « ومن يرد » : من يعمل .

قال أبو سليمان الدمشقى : هذا قول سائر من حفظنا عنه .

ومن أخلاقهم : عدم الاحتفال ببناء المساجد إلا إن وسع الله تعالى عليهم من الـكسب الحلال

وأما بناؤها من أموال الولاة ، وأعوانهم فهو عندهم فى غاية القبح ، وهذا الأمر قل من يتفطن له من الفقراء ، فيعمر أحدهم المساجد من الأموال التى يغلب فيها الحرام، والشبهة ، ويفرحون بإضافته ذلك المسجد إليهم ، وقول الناس إن سيدى الشيخ عمّر عدة جوامع مع أنه ليس له مال ولا كسب ، وأنه ينفق من الغيب .

ولما عمر سيدى أحمد الزاهد جامعه بخط المقسيم بمصر لم يدع أحدا من الولاة يساعده فيه بحجر واحد ، وكذلك سيدى محمد الغمرى .

فمن وصل إلى مقام هذين الشيخين ، فليعمر له زاوية فيبعد بيت الله تعالى عن الحرام والشبهات .

والمساجد كثيرة ، وغالبها الآن مهجور وقد قال الإمام الغزالى : من علامة الرياء فى بناء المساجد أن يكون فى بلد البانى لها فقراء ومساكين وأيتام محتاجون فلا يهون عليه الانفاق عليهم ، ويسهل عليه صرف ذلك فى الماء والطين .

ولا شك أن صرف ذلك إلى من ذكر أفضل ، ولو أنه طلب الأجر والثواب فما جعله ينفق المال على ذلك المسجد إلا محبته لثناء الناس عليه ، وذلك لا أجر فيه بل فيه الوزر لاسيما إن زخرف المسجد ، وزوقه بالرخام الملون ، فإنه يشغل قلوب المصلين عن الخشوع فى صلاتهم الذى هو المقصود الأعظم من الصلاة ، ويكتب ذلك فى صحائف البانى .

وقد قال الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه : لما أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يبنى المسجد بالمدينة أتاه جبريل عليه السلام وقال : ابنه سبعة أذرع طولا فى السماء ولا تزخرفه ، ولا تنقشه انتهى قال : وغرور هذا البانى للمسجد من حيث أنه رأى المنـكر معروفا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : النصح لإخوانهم من الأغنياء

فلا يقنعون منهم بحضور مجالس ذكرهم ، ووعظهم من غير صدقة على الفقراء وعدم إقراء الضيوف ، ومساعدة أرباب الديون ، وكسوة الأرامل ، والأيتام ، والعميان ، فإن المطلوب الأعظم من صاحب المال إنفاقه على نفسه ، وغيره من المحتاجين .

وربما كان ذلك الشيخ يقبل زكواتهم لنفسه ، فيستحى أن يأمرهم بإخراج زكاتهم كاملة ، ويقنع منهم بما يعطونه له ولا عليه بعد ذلك من الفقراء .

وكثيرا ما يمسك الغنى المال بخلا ، وحرصا وشحا ، ويشتغل بالعبادات البدنية التى لا يحتاج فيها نفقة مال ، كصيام النهار ، وقيام الليل ، وختم القرآن ، ويظن أنه صار من عباد الله الصالحين مع أن البخل المهلك قد استولى على قلبه ، وهو مناف للصلاح وفى الحديث « ماجبل ولى لله تعالى إلا على السخاء وحسن الخلق » انتهى .

فعلم أنه لايبرأ من ذلك إلا بإخراجه المال فى مرضاة الله تعالى ، وأما العبادات من صوم وصلاة فإنه لا يشفيه من هذه العلة .

وقد قيل لبشر الحافى رحمه الله : أن فلانا الغنى كثير الصوم والصلاة فقال : هذا مسكين ترك الأمر الأهم ، وفعل غير المهم ولو أنه أطعم أحدا من الفقراء لقمة أو تصدق بدرهم لـكان أفضل له من ذلك الصوم لأنه غايته تعذيب نفسه بالجوع اختيارا ، وذلك غير مطلوب .

قال : وإنما سامح العلماء فى تعذيب النفس بالجوع فى الصوم المشروع فقط بخلاف ما زاد على المشروع والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم القناعة بمجلس الذكر صباحا ومساء مع الغفلة
عن الله تعالى فيما بينهما كما يقع فيه بعض المغرورين

ويحتج بحديث : « إذا ذكر العبد ربه أول النهار ساعة وآخر النهار ساعة غفر الله له ما بينهما » إذ المغفرة لا ترق فيها ، ونهايتها أن تلحق المذنب بمن لم يذنب ذلك الذنب لا أنها تلحقه بمن فعل الطاعات فافهم .

ومراد القوم فى هذه الدار دوام الترقى مع الأنفاس فى المقامات ، ومع ذلك ، فلا يرون أنهم قاموا بواجب حق الله تعالى ، كما هو معروف عند أهل الطريق والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم الإغترار بمراسم الصالحين الظاهرة والوقوف معها

كلبس الصوف ، وإرخاء العذبه ، وحف الشوارب ، والتكلم على الخواطر من غير معرفة المجال التى تنبعث الخواطر منها من حضرات الأسماء الالهيه بل بعضهم يتكلم على الخواطر مع جهله بالشريعه ، وهذا كله غرور .

وقد ذكر الإمام الغزالى فى كتابه المسمى (بالكشف والتبيين عن غرور الخلق أجمعين إلا الأنبياء ، وكل الصالحين) .

إعلم يا أخى أن المغترين من المتصوفة على فرق كثيره لا تنضبط ولكن نذكر لك طرفا صالحا منها ونبدأ بمتصوفة زماننا ، فنقول ، وبالله التوفيق : قد اغتر متصوفة زماننا إلا من حفظه الله تعالى بالزى ، والمنطق والهيئه ، فساعدوا الصادقين من الصوفيه فى هيئتهم ، وزيهم وألفاظهم ، وآدابهم ، ومراسمهم ، واصطلاحهم ، وأحوالهم الظاهرة فى السماع ، والرقص والطهارة ، والصلاه ، والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخال فى الجيب كالمتفكر فى أمر ، وتنفس الصعدا ، وخفض الصوت فى الحديث ، وغير ذلك وظنوا أن ذلك ينجيهم ويكفيهم وغاب عنهم أن ذلك لايكفيهم إلا مع شدة المجاهدة للنفس ، والصبر على رياضتها ، ودوام ربط القلب مع الله تعالى فى عموم الحالات ، وطهارة الظاهر والباطن من سائر الخبايث ، والزلات ، وغير ذلك من منازل التصوف .

قال : وقد رأيت من تحقق بمراسمهم الظاهرة ، وهو متكالب على الحرام ، والشبهات ، وأموال الولاة ، وأعوانهم ، ويشاحح على الحديد ، والرغيف فى وظيفه ، ويحسد أقرانه على النقير والقطمير ، ويمزق عرض كل من خالفه فى شىء من أغراضه الفاسدة ، فقلت له : هذه الأمور تخالف ماتظاهرت به من مراسم الصالحين ، فلم يلتفت لقولى ، فمثل هذا هالك من حيث يظن النجاة .

قال : ورأيت فرقه أخرى زادت على هؤلاء فى الغرور لما صعب عليها الاقتداء بالصادقين فى بذاذة الثياب ، والرضا بالدون فى الملبس والطعم والمنكح والمركب

والمسكن ، فأخذت تلبس المرقعات النفيسه، والجبب الرفيعه ، والسجادات المصبوغة، وقيمتها أغلى من قيمة الخز والإبريسم ، فإن جالسوا الاغنياء نظروا إلى قيمتها ، وإن جالسوا الفقراء نظروا إلى لونها ، وقالوا : هى جبه صوف ، وذلك ، حتى لا يعترض عليهم الفقراء ، ولاتزدريهم أعين الأمراء ، فلبّسوا على الفريقين=الفقراء بظنهم أنهم منهم ، والأمراء ، حتى مالوا إليهم ، وأخذوا أموالهم ، وربما كانوا مع ذلك مرتكبين جملة من المعاصى الظاهرة ، والباطنه مما لو اطلع الناس عليه لم يجالسوهم ، ولم يعتقدوهم .

قال : ولاشك أن ضرر مثل هؤلاء على المسلمين أشد من ضرر اللصوص ، لأن هؤلاء يسرقون القلوب بالزى ، وإظهار الصلاح ، فيقتدى الناس بهم فى الأعمال الناقصه فيكونون سببا لهلاك الناس ، وإن اطلع على فضايحهم أحد قالوا نحن من الملامتية الذين يظهرون القبيح ويخفون المليح ، أولنا حال مع الله تعالى خلاف ما يظهر لكم منا ، وقد كذبوا والله فإن الملامتية هم أكابر الأولياء والأكابر محفوظون من كل فعل يسيء إليهم أما هؤلاء فإنه يظن من اطلع على فضائحهم الباطنه أن السلف الصالح كانوا كلهم كذلك فيسيء ظنه بالصوفية على الاطلاق .

قال : ورأيت طائفة أخرى من هؤلاء المفترين ادعت علم المكاشفة ، ومشاهدة الحق تعالى ، ومجاوزة المقامات ، والأحوال ، والملازمة فى عين الشهود ، والوصول ، والقرب ، وهم كاذبون فى دعوى ذلك ، وليس معهم منه إلا الإسم ، فلفقوا من ألفاظ القوم كلمات شطح تلقبوا عنها الاستماع ، وظنوا أنها من علوم الأولياء أصحاب الأسرار والمعارف ، وربما ظن بعض الجاهلين صدقهم فى ذلك .

قال : وعلامتهم أنهم ينظرون إلى أئمة الشريعة بعين الازدراء مع أن أحدهم لايصلح أن يكون خادم حمار[؟]، وربما كان ذلك الشخص الذى ازدراه معدودا من أكابر العلماء .

قال : ومن علامة خروج هؤلاء عن الشريعة أن أكثر أتباعهم الفلاحون والحياكون دون أحد من طلبة العلم ، وكثيرا ما يقول العوام : إن هذا يتكلم بالعلم

الدنى ، والحال أنه من وسوسة إبليس له فى قلبه ، لأنه باض فيه وفرخ .

قال : ورأيت فرقة أخرى جاوزت حد هؤلاء فى الغرور ، فاستحيت من الخلق ، ولم تستح من الله تعالى ، فتراها تعمل أعمالا بينها وبين الله تعالى ولا تستحى منه ، وتستحى أن تفعلها بحضرة الخلق مع أن أحدهم يدعى محبة الله تعالى ، ولو أنه كان صادقا فى محبته لم يتعد حدوده ولو أنه كان عارفا به لفر مما يسخطه .

قال : ورأيت فرقه يقعون فى المحرمات بالإجماع فيما بينهم ، وبين الله تعالى ، ويتورعون عن فعل المكروه ، إذا رآهم الناس ، والحال فى ذلك ، ثم قال : وبالجملة فما ثم مقام من المقامات المنجيه إلا ، ويمكن أن يدخله الغرور .

قال : ورأيت فرقة أخرى تميل إلى القناعة،والتوكل من غير سلوك طريق الشريعة، فتراها تدخل البرارى بلا زاد بقصد تصحيح توكلها على الله تعالى ، وما علمت أن مثل ذلك بدعه لم تنقل عن أحد من السلف ، وقد كانوا أعرف بالتوكل منها ، ومع ذلك فما فهموا من التوكل أنه المخاطرة بالروح ، ولا السفر بلازاد ، لأن ذالك لم يرد بشرع، وإنما ورد الشرع بضده قال تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة[1] » وقال : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى[2] » أى خذوا معكم الزاد واتقوا أن يكون من حرام كأن السبب فى ترك هؤلاء الزاد اعتمادهم على سؤال الناس نظرا لاعتقادهم فيهم التجرد عن الدنيا ، فهو يعلم أنهم لايتركونه من غير افتقاد .

---

(١) وتمام لآية : « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بايديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » سورة البقرة آية : ١٩٥ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٩٧ .

وتمام الآية : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب » .

واتباع الشرع هو الدين ، وترك الاتباع خروج من الدين لمن تأمل .

قال : ورأيت طائفة أخرى ضيقت على نفسها فى القوت ، حتى اقتصرت منه على الحلال عندها ولـكنها مع ذلك تهمل تفقد القلب ، والجوارح فى غير هذه الخصلة ، ومن تعمق فى بعض المأمورات ، وترك التعمق فى بعضها تساهلا ، فهو مغرور .

قال : ورأيت فرقة أخرى ادعت السخاء وحسن الخلق ، وخدمة الفقراء ، والعميان والضيوف الواردين . فجمعوا لهم جماعة فى زاويتهم ، وصاروا يتكلفون لهم الطبيخ ، والعجين ، والـكسوة ، ولعلهم إنما فعلوا ذلك شبكة لجمع حطام الدنيا من التجار ، والولاة تـكثرا ، وتبسطا ، فترى أحدهم يبالغ فى خدمة الفقراء ، ومهما حصل من الأغنياء ، والولاة يفرقه على الفقراء ، ولا يلحس منه لحسا ، ثم بعد ذلك يرفع القواعد ، ويصير يختص بما نصبه ، وأخذه على اسم الفقراء ، حين شاع اسمه بالإيثار ، والسخاء وربما أنه لو جاءه شيء سترا لم يعط الفقراء منه شيئاً ، فمثل هـــذا شيطان فى صورة إنسان .

قال : ورأيت طائفة أخرى أشغلت نفسها بالرياضة ، وتهذيب الأخلاق ، وتطهير النفوس من العيوب ، وتعمقوا فى البحث عن العيوب ، واستنباط الدقيق من دسائسها الـكامنة فيها ، وقطعوا عمرهم كله فى ذلك ، فمثل هؤلاء اشتغلوا بأنفسهم عن ربهم ، ولو أنهم أنصفوا لا تخذوا لهم شيخا ، فأغناهم عن مثل ذلك ، فأشغلهم بالله عز وجل .

قال : ورأيت طائفة أخرى اشتغلت بمطالعة كتب الرقايق ، ولفقوا لهم منها بعض كلمات ، وصاروا يذكرونها للناس ، ويهزون رؤوسهم كالمتعجبين منها ، وصار معهم من كل مقام من مقامات الطريق بعض كلمات ، حتى ربما ظن بعض السامعين بهم أنهم سلـكوا الطريق ، والحال أنهم لم يشموا منها رائحة ، وبعضهم أفنى عمره فى سماع حكايات القوم ، وكتابتها ولم يتخلق بشيء مما قالوه فيها ، وهم يظنون بأنفسهم أنهم صاروا من الصوفية ، ومثالهم مثال من سافر إلى ملك ليجتمع به ، ويصير من جلسائه ،

فلما وصل إلى باب الميدان رأى روضة ذات أزهار ، فوقف يتعجب منها ، ومن روائحها حتى جاءه الموت ، ولم يجتمع بالملك .

وقال : ورأيت طائفة وقفت فى مبادىء الطريق حين تجلى نور طريق الحق ، فظنوا أنهم وصلوا إلى مقامات العارفين التى ينتهون إليها فى سلوكهم ، والحال أن بينهم وبين حضرة الحق تعالى سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب إلا وظن أنه ليس بعده حجاب ، ولعل ذلك النور الذى تجلى لهم إنما هو نور من أنوار القلب ، فإنه إذا ظهر أدركوا فيه الوجود كله على ما هو عليه ، فظنوا أن ذلك إشراق نور الله تعالى عليهم وربما دهش أحدهم من حال ذلك النور ، وسمع النداء منه أنا الحق لا إله الا أنا ، والحال أنه شيطان تجلى ، فى قلبه حين رأى الوجود كله مرتسما فى قلبه ، ومن جملة الوجود إبليس ، فإن لم يتداركه الحق تعالى هذا الشخص ، والا هلك فى دينه ، وبهذه العين كان نظر النصارى الى المسيح عليه الصلاة والسلام فإنهم لما رأوا إشراق نور الله تعالى عليه أكثر من غيره ظنوا أنه هو الله تعالى فعبدوه ، فهم كمن رأى كوكبا فى مرآة أو فى ماء فظن أن الكوكب فى المرآة ، أو الماء ، فصار يمد يديه إليه ، ليأخذه ، فهكذا غرور من دخل الطريق بلا شيخ ، فإنه يضل ، ويضل غيره[1] انتهى كلام الغزالى رحمه الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ولعل قراءة متأنية لكتب الإمام أبى حامد الغزالى كالمنقذ من الضلال وغيره توضح لنا صفات هذه الفئات الضالة وتبين لنا فساد منهجهم وكيفية هدايتهم .

وقد قال أبو نصر السراج الطوسى فى كتابه اللمع : باب فى ذكر : من غلط من المترسمين بالتصوف ومن أين يقع الغلط وكيف وجوه ذلك :

قال الشيخ رحمه الله : سمعت أحمد بن على الكرخى يقول : سمعت أبا على الروذبارى رحمه الله يقول : قد بلغنا فى هذا الأمر إلى مكان مثل حد السيف ، فإن قلنا : كذا ففى النار وإن قلنا : كذا ففى النار .

. . . . .

يعنى : إن غلطنا فيا نحن فيه بدقيقة فنصير من أهل النار ، لأن الغلط فى كل شىء أهون من الغلط فى التصوف وفى علمه ، لأنها مقامات ، وأحوال ، وإرادات ومراتب ، وإشارات ، فمن تخطى فى ذلك إلى ماليس له فقد اجترأ على الله فيكون الله خصمه ، فإن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه بما شاء كيف شاء

وكل من ترسم برسوم هذه العصابة أو أشار إلى نفسه بان له قدماً فى هذا القصة ، أو توهم أنه متمسك ببعض آداب هذه الطائفة ، ولم يحكم أساسه على ثلاثة أشياء فهو مخدوع ولو مشى فى الهواء ونطق بالحكمة ، أو وقع له قبول عند الخاصة أو العامة .

وهذه الثلاثة أشياء :

أولها : إجتناب جميع المحارم : كبيرها وصغيرها .

والثانى : أداء جميع الفرائض : عسيرها ويسيرها .

والثالث : ترك الدنيا على [أهل] الدنيا : قليلها وكثيرها إلى إمالا بد للمؤمن منها .

وهو ماروى عن النبي ﷺ ، أنه قال : أربعة فى الدنيا ، وليست هى من الدنيا : كسرة تسد بها جوعتك ، وثوب توارى عورتك ، وبيت تسكن فيها ، وزوجة صالحة تسكن إليها .

فاما سوى ذلك : من الجمع والمنع والإمساك ، وحب التكاثر ، والمباهاة ، فجميع ذلك : حجاب قاطع يقطع العبد عن الله عز وجل .

فكل من ادعى حالا من أحوال أهل الخصوص ، أو توهم أنه سلك منزلا من منازل أهل الصفوة ، ولم يبن أساسه على هذه الثلاثة فإنه إلى الغلط أقرب منه إلى الإصابة فى جميع مايشير إليه أو يدعيه أو يترسم برسمه ، والعالم مقر والجاهل مدع .

ومن أخلاقهم : عدم التقيد على أحد من مشايخ العرب أو الأمراء إذا صحبهم بأن لا يصحب غيرهم

لأن التقييد إنما يكون المريد الصادق الذى يطلب طريق القوم ، وأما هؤلاء الأمراء ومشايخ العرب ، فإنما هم معتقدون من خارج الطريق .

وما رأيت قط أميراً ولا شيخ عرب ، صار شيخا يسلك الناس فى الطريق ، كمشايخ القوم أبدا ما دام كل منهما باق على وصفه .

وإنما يصح منهم طلب الطريق لو خرجوا عن مناصبهم ، وأرضوا خصومهم كما هو مقرر فى رسائل القوم .

وقد حدث فى زماننا هذا جماعة تشيخوا من غير إذن من أحد ، وصاروا يصطادون كل من حوله بر وإحسان من الكشاف ، ومشايخ العرب ، وغيرهم ، ويرسلون نقباءهم لاستجلابهم إليهم ، ويزعمون أنهم إنما يفعلون ذلك بقصد ائتلافهم عليهم ، ليشفعوا فى المظلومين عندهم ، لا بقصد علة أخرى ، ولو أنهم صحبوا غيرهم من أقرانهم لتميزوا من الغيظ .

فليمتحن من عمل شيخا فى النصف الثانى من القرن العاشر نفسه إذا استجلب صحبة أمير ، فربما يكون ذلك لغير الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إجلال أشياخهم فى غيبتهم وعدم الوقوع فى شىء يكدر قلوب أشياخهم عليهم عادة

فإنهم بذلك يدوم عليهم الترقى على يدهم ، ومن غير قلب شيخه ، فقد قطع حبله منه ، وقد ورد مرفوعا « رضى الله تعالى فى رضى الوالد وسخط الله تعالى فى سخط الوالد » ، ولا شك أن أبا التربيه يلحق بأب الولادة فى ذلك .

وأجمع القوم على وجوب التأدب مع الوسائل .

وقالوا : من لم يتأدب مع الوسائل لايصح له الدخول إلى المقاصد ، فإن الوسائل كالطهارة للصلاة .

وقالوا : من تهاون بغضب شيخه عليه مقته الله عز وجل وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم تكدرهم من مريدهم إذا زار شيخا آخر

إلا إذا علموا من طريق كشفهم أنه ليس لذلك المريد نصيب عندهم ، فهم يظهرون لهم التكدر فيحصل لهم وله الخير .

فمن منع مريده من زيارة غيره من غير كشف ، فهو فارق فى حظ نفسه ، وعلى ذلك يحمل أحوال الأشياخ من السلف الصالح ، ولا يجوز حملهم على أنهم إنما منعوا مريدهم رغبة فى الرياسه كما بسطنا الكلام عليه فى كتاب العهود وغيره والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم: انشراح صدرهم لكل شيخ عقد له مجلس ذكر تجاه مجلسهم الذى عملوه فى الجامع مثلا

وذلك لعدم محبتهم فى الرياسة ، وكيف يليق بمن يدعى محبه الله تعالى أن يتكدر ممن يذكره تعالى .

وقد وقع لبعض الصادقين أنه كان يذكر الله تعالى فى جامع ، فجاء شخص بجماعته ، وجلس تجاهه يذكر الله تعالى فقام بجماعته ، وجلس فى حلقة الشيخ الجديد ، وقبل رجله ، وأمر جماعته بذلك ، وهذا خلق غريب لايوجد إلا فى أفراد من الفقراء بل ربما غضبوا من ذلك الشيخ الطارىء ، وربما ترافعا للحكام كما وقع لبعض المتمشيخين ممن يذكر الله تعالى فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم التميز فى الجلسة بفرش سجادة تحتهم إلا لضرورة شرعية

ثم إن جلسوا بالشرط المذكور أعلموا أصحابهم بذلك خوفا أن يقعوا فى عرضهم ، ولو فى نفوسهم إذ من شأن البشر كراهة شفوف نفس غيره عليه إلا من حفظه الله تعالى .

وكذلك من العذر تميزهم فى الجلسه ليعرفهم الغريب فيسألهم عن أمور دينه إقتداء ًا بسيدنا رسول الله ﷺ ، ولا يحتاج أن يقول الشيخ .

وتقدم أول هذه الأخلاق أن الأعراب كانوا يأتون النبى ﷺ ، ليتعلموا منه أمور دينهم فلا يعرفونه ، حتى يسألوا عنه ، فتكلم الصحابة فى أن يجعلوا له ﷺ مكانا مخصوصا يميزه عن أصحابه ، فعملوا له دكانا من طين ، وفرشوا له فيه حصيرا من خوص ، فصار يجلس عليها ، فللفقراء الأسوة فى ذلك ، برسول الله صلى الله عليه وسلم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كراهتهم لأكل طعام مريديهم قبل أن يتمكن أحدهم من محبتهم ويرى أن جميع ما هو فيه من فضل أستاذه

وذلك أن الأكل من طعام المريد المذكور ، وقبول الإحسان منه يورثه إذلالا على الشيخ ، فيقل نفعه على يديه ، وهذا خلق غريب فى هذا الزمان ، فلا يكاد أحد يفتش على مثل ذلك .

وكان سيدى محمد الشناوى يقول : مال المريد حرام على الأشياخ قلت : وهو محمول على التفصيل الذى ذكرناه وعليه يحمل حال من امتنع من السلف من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : فرحهم بتحويل من صحبهم من الولاء إلى غيرهم من الأقران وإن رأوهم قليلون الاعتقاد ، فيمن انتقلوا إليه حسنوا اعتقاده فيه حسب الاستطاعة ، وهذا خلق غريب لا يصح وقوعه إلا ممن فطم عن الدنيا ، وشهواتها ، وزهد فى حلالها فضلا عن شهواتها ، وقد تخلقنا بذلك والحمد لله ، ولم أجد له ذائقا من الأقران إلا قليلا بل بعضهم يفسد ذلك الأمير على ذلك الفقير ، ويقع فى عرضه ، حتى يتركه ، ويصحبه هو ، وذلك خروج عن أداب أهل الطريق والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : رجوعهم باللوم على أنفسهم إذا خالف أحد أغراضهم من زوجة أو خادم أو ولد أو صاحب

ويقولون فى أنفسهم : لو استقمنا مع الله تعالى لاستقام الناس معنا ، ولو أطعنا الله تعالى فى امتثال أمره لأطاعنا الناس ، وإن لم يكن ذلك قاعدة كليه .

وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول :

إنى لأعصى الله تعالى فأعرف أثر ذلك فى خلق حمارى ، وخادمى ، وزوجى ، فيشمص الحمار ، ويخالف الخادم ، وتنشز الزوجة ، فإذا رجعت إلى نفسى ، وشرعت فى تقويم عوجها رجع الحمار عن شموصه والخادم عن مخالفته ، والزوجه عن نشوزها انتهى

وقد تقع مثل هذه الأمور للمستقيم من الأولياء ، ليقتدى الناس به فى الصبر لا لإعوجاج يكون هناك ، أو يبتلى بها ليعرف صبره أقوى هو أم ضعيف حين ادعى أنه من الصابرين والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : صبرهم على تحمل الأذى لهم من الناس وعدم صبرهم على من أذى أحدا من أصحابهم

لأن غالب أصحابهم إنما يصحبهم ليحموه من الأذى الهم إلا أن يكون أصحابهم في مقام الرياضة لنفوسهم ، فهناك يأمرونهم بالصبر كما يأمرون نفوسهم .

وكثيرا ما يأخذ الله تعالى لأصحابهم ثأرهم ممن أذاهم من غير سؤال من الشيخ انتصارا من الحق تعالى له ، وذلك إما بعزله من وظيفته التي بها معاشه عادة ، أو مرض شديد ، أو بمصادرة من الحكام ، ونحو ذلك .

فالعاقل من لم يؤذى للفقراء صاحبا ، وقد سمعت سيدى محمد الشروى يقول : الفقير إذا غلب عليه الحال كان كالسبع الضارى الذى تغلب من صاحبه فربما كسر صاحبه وولده والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تبجيل كل من أذاهم فى غيبته وحضوره
وذكر محاسنه دون مساويه .

وقد تخلقت بذلك ولله الحمد ، فذكرت مناقب الجماعة الذين أذونى ، ودسوا فى كتبى العقائد الزائفة ، حتى أتلفوها فى كتاب الطبقات[1] ، فلله الحمد على ذلك ، ولم أر له فاعلا من أهل عصرى ، إنما يذكرون فى كل من أذاهم العجر والبجر ، ولا تكاد نفوسهم تسمح بذكر شىء من محاسنهم للناس ، وذلك دليل على بقاء الرعونة فى النفس ، واقتد يا أخى بالسلف الصالح فى ذلك والحمد لله رب العالمين .

(١) يقصد بذلك كتاب « الطبقات الكبرى » للشعرانى .

ومن أخلاقهم عدم تساهلهم — كلما طعنوا فى السن — فى الأكل من هدايا الولاة ومن لايتورع فى مكسبه ليفارقوا القوم لأنه من كمال الورع .

وهذا يقع فى الإخلال به خلائق من الفقراء .

وقد تساهلت مرة فى أكل بعض حبات من عنب أرسله لنا عيسى شيخ العرب بالبحيرة لما اشتهر عنه من الدين ، وكثرة الكرم ، فرأيت تلك الليلة كأنى راكب جملا عظيما وأنا طالب أرض مكة ، فرجعت من الطريق ، وحولت وجهى إلى بحرى مصر طالبا ناحية برشوم التين ، وأنا جنب أريد أن اغتسل من ساحل بحرها ، ثم استحال الجمل بغلة ، فمررت على أرض فيها برسيم ربه ، فسمحت لها بالأكل من ذلك البرسيم ، فأكلت منه شيئا يسيرا ، ثم تذكرت الحساب عليه فكففتها عنه ثم رجعت إلى مصر قبل أن أصل إلى برشوم ، وأنا جنب ، ثم أركبت البغلة ولدى عبد الرحمن ، ورجعت ماشيا ، ثم استيقظت فتقيأت تلك الحبات العنب ، حتى خرج معها ما أكلته أمس ، فكأنه خرج من بطنى حجر مظلم مسموم ، وكان اعطائى البغلة لولدى عبد الرحمن كناية عن إذنى له فى الأكل من العنب .

فانظر يا أخى فى هذا المنام الغريب والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لا يسكتوا الجماعة إذا كانوا فى مجلس الذكر
إلا بعد أن يستأذنوا الحق تعالى بقلوبهم

أو يستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستأذن لهم ربهم أن يسكتوا الجماعة بعد أن يأخذوا من الذكر حظهم ، ويظهر للشيخ ملهم من ذلك ليشغلهم فى مهم آخر من أمر دنياهم ودينهم . . . . [1] أو آخرتهم .

فإن الله تعالى ما نوع لعباده المأمورات إلا لما سبق فى علمه من مللهم من نوع واحد ، وإلا فإذا حصلت مجالسة الحق تعالى بنوع من المأمورات ، فماذا يطلب العبد بعد مجالسة سيده ، فإنها محط رجال الأولين والآخرين ، وأشرف حالة تكون ، وأعظم ثمرة تحصل لهم من سائر أعمالهم فافهم .

فعلم أنه لا ينبغى لشيخ المجلس أن يسكتهم غافلا عن الاستئذان ، فإنه معدود من سوء الأدب عند العارفين ، وما وجدت لهذا الخلق فاعلا من أقرانى إلا قليلا فالحمد لله رب العالمين .

(١) بياض بالأصل .

ومن أخلاقهم أن لا يظهروا للناس من إخوانهم من آداب الطريق إلا مايعلمون من الناس القدرة على العمل به إلا لغرض صحيح

وذلك أن يكون لهم عذرا عند الله تعالى بنحو قولهم يا ربنا (   )[1] ذلك خير لنا ولو علمناه خيرا لنا لاتبعناه ويؤيد ذلك قول القائل : إن من البيان لسحرا قال : سفيان ولا نرى السحر إلا حراما انتهى .

وقد كان المريدون فى الزمن الماضى لا يقنعون بالآداب القليلة لعلو همتهم ، فصار أحدهم اليوم إذا سمع من شيخه بعض آداب يقول : يكفينى هذا ، فللناس حال فى حال إدبارهم وحال فى حال إقبالهم .

وتأمل يا أخى الناس حين يسافرون إلى الحج كيف يكرهون التقطير ، ولو أن شخصا طلب أن يقطر جمالهم يبذلون المال لمن يقطرهم ، وإذا رجعوا وأشرفوا على أوطانهم كيف يكرهون التقطير ، ولو أن شخصا طلب أن يقطر جمالهم كرها لبذلوا له المال على عدم التقطير ، فهكذا حال الناس اليوم ، فإن الدنيا الآن ، كأنها مركب موسقة أشرفت على أن ترسى على بر الآخرة وما يقع لنا من الأهوال فى هذه الدار ، فهو كالإدمان لأمور الآخرة ، والتمهيد لطريق مقاساة أهوالها والحمد لله رب العالمين .

---

(١) مطموس من الأصل

ومن أخلاقهم إذا ظلم حكامهم رعيتهم أن ينصحوا الرعية ليرجعوا عن معاصي الله تعالى ويأمروا الولاة بالرفق بالرعية ، والرحمة لهم حسب الطاقة ، ولا يشتغلوا قط بسب الولاة كما عليه المحجوبون عن معرفة أسرار الله تعالى فى خلقه ، فالظلم أمر مركب من الرعية ، والولاة فيقدر الله تعالى على الرعية الوقوع فى ما سبق به علمه من المعاصى ثم يسلط الولاة عليهم علي حسب ما سبق فى علمه ، ولا . . . .[1] لسبيل لترك الرعية ما سبق فى علم الله تعالى من المعاصى ، ولا سبيل إلى ترك الولاة مجازاة العصاة باستخلاص ما بأيديهم من نعم الدنيا ، وعزلهم عن وظائفهم جزاء وفاقا .

فمن أراد من فقراء الزمان عدم جور الحكام ، فلينادى فى رعاياهم معاشر الناس لا يعصى أحد منكم ربه لا سرا ولا جهرا ، فإن سمعوا ، وتركوا المعصية ، كما ذكر ، فإن الحكام يرجعون عن جورهم .

فإن قال الرعية : للولاة ارجعوا عن ظلمنا قالوا لهم : استقيموا ونحن نرجع عنكم فإذا قالوا : ليس ذلك بأيدينا قال لهم الولاة : وكذلك رجوعنا عن ظلمكم فى هذا الزمان ليس بأيدينا .

وبالجملة فهذا أمر مابقى يرجى تركه مابقيت الدنيا إلى ظهور المهدى رضى الله تعالى عنه بحكم الوعد الصادق من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك فاللوم على كل الرعية والولاة شرعاً .

وتأمل يا أخى الحكام تجدهم كاللجام للدابة الحرون ، وإذا كان الناس يتعدون الحدود مع هذا اللجام ، فكيف لو ترك الحكام مؤاخذتهم على ظلمهم ، ولعلهم كانوا يأخذون أموال بعضهم بعضاً ويفسقون فى حريمهم جهراً ويقتلون بعضهم بعضاً .

فعلم أن وقوع المصلحة بوجود الحكام أعظم من مفسدة جورهم مع أنهم نواب القدرة فى تنفيذ أحكامها فى الخلق .

فارجع يا أخى باللوم علي نفسك إذا ظلمك حاكم قبل أن تلوم الحاكم والحمد لله رب العالمين .

---

(١) مطموس من الأصل .

ومن أخلاقهم : تعظيم أولاد مشايخهم فى العلم والطريق والقيام لهم فى المحافل ، وغيرها ولو كانوا عواماً إجلالا لوالدهم .

وممن أدركته على هذا القدم سيدى محمد الشناوى ، وسيدى على المرصفى والشيخ سليمان الخضيرى ، والشيخ شهاب الدين الرملى ، والشيخ ناصر الدين الطبلاوى ، رضى الله تعالى عنهم ، فما رأيت أحداً يعظم أولاد مشايخهم ؛ وأصحابهم مثلهم ؛ وذلك دليل على موت نفوسهم وفلاحهم فإن أصحاب الرعونات لم يزل بينهم الوقفة ؛ وبين أولاد مشايخهم وذلك لأن كل واحد يطلب أن يكون شيخاً على الآخر ؛ فالتلميذ يقول :

أنا صرت فى رتبة الشيخ وولده بالنسبة إلى كالمريد .

وولد الشيخ يقول : أنا مكان والدى ؛ فأنا شيخ على جميع تلامذته ؛ ولو أن هؤلاء فطموا عن الرعونات على يد شيخ ماوقعوا فى ذلك ، فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم شهود فضل تعلمهم عليهم فى حياته وبعد مماته

فلا يرون أنهم شموا رائحة مقامه فضلا عن مساواته ؛ حتى إن بعضهم سمع شخصاً يقول : إن فلاناً خليفة شيخه ، فزجره عن ذلك ؛ وقال : لست بخليفة له ؛ وإنما أنا من معارفه ؛ لأن شرط الخليفة أن يكون على قدم من استخلفه فى الورع ؛ والزهد ؛ وقيام الليل ؛ وعدم وضع جنبه إلى الأرض .

وقد كان شيخى على هذا القدم ؛ ولم أتبعه فى واحدة من هذه الخصال ؛ فكيف تسميني خليفة له؟! انتهى .

وهذا الخلق قد صار غريباً فى فقراء هذا الزمان بل سمعت بعضهم يقول : أنا بحمد الله أعلم من شيخى بالكتاب والسنة ؛ وبأحوال الطريق ؛ ومثل ذلك لا يقع إلا ممن مقته الله عز وجل ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم هدايتهم من جاءهم يسألهم فى أن يحملوا حملته من الأمراء والمباشرين

لما دارت رحائهم شمالا إلى التوبة والاستغفار من كل ذنب فعلوه إلى وقتهم ذلك قبل أن يدخلوا فى حملتهم .

فكم ضرب أحدهم مسلما حتى دمى لحمه ، وكم حبسوه ظلما ، وكم شربوا الخمر ، وكم زنوا وكم لاطوا ، وكم تعاونوا فى الناس عند الظلمة ، وكم ، وكم ، وكم .

وهذا أمر قد أغفله غالب المتمشيخين فى هذا الزمان ، فيدخل أحدهم فى حملة من عزل من ولايته أو وظيفته مثلا ، وربما كان ذلك عقوبة له على ذنوب مضت ظن أن الله تعالى قد غفرها ، والحال أنها لم تغفر .

فالعاقل من أمر صاحب الحاجة بكثرة الاستغفار والندم ، ثم بعد ذلك يدخل فى حملته بشرط أن يكون الشيخ الآخر تائبا من كل ذنب يعلمه الله ، وليس له سريرة سيئة يفتضح بكشفها فى الدنيا والآخرة .

ومتى كان الشافع أو المشفوع له مرتكبا ذنبا فليس هما من أهل هـذا المقام والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : ملاحظة مريديهم إذا سافروا أو إذا أقاموا فى بيوتهم

فلا يزال أحدهم يراعى مريده ويحفظه عن الوقوع فى المعاصى المعلقة على ملاحظة الشيخ ، ودعائه ، وأما الأمور المبرمة ، فلا قدرة للشيخ نفسه على دفعها عنه ، فكيف يدفعها عن غيره .

فعلم أن كل من عمل شيخا على مريد ، وغفل عن حفظه كان خائنا للعهد ، والله لا يحب الخائنين .

وكذلك إذا راسل أحدهم أميرا فى قضاء حاجة لمكروب لايزال أحدهم يلاحظ حامل الكتاب ، حتى يجتمع بالأمير وتقضى حاجته ، ومتى غفل أحدهم عن القاصد ، ربما لم تقض له حاجة .

وكثيراً ما أقول لمن طلب منى كتابا يسافر به للكاشف أو شيخ العرب بعد ثلاثة أيام مثلا اصبر ، حتى تريد الخروج للسفر ، فإنى لا أقدر على ملاحظتك ثلاثة أيام .

وهذا سر قل من يعرفه فضلا عن أن يعمل به ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : اتهام نفوسهم فى إمكان الوقوع فى سائر الكبائر فضلا عن الوقوع فى الصغائر

فلا يخلوا أحدهم قط بامرأة أجنبية ويقول بعيد على مثلى بأن أقع فى الزنا بها ، فإن فى الحديث « ماخلا رجل بأمرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » ومن كان الشيطان معه خيف عليه من الوقوع فى كل معصية .

بل العاقل لاينبغى له أن يفعل شيئاً يكون ابليس جليسه فيه ابدا بل يفر من مجالسته من حيث أنه عدو لله ملعون ، فإن مجالسته مذمومة ، ولو لم يقع بمجالسة فى معصية أخرى .

ويتعين اجتناب مثل ذلك على أمثالنا ممن نفسه لا ترتد عن المعاصى إلا إذا لم تجدها. وقد خالف فى ذلك أقوام ، وقالوا للعجوز : أنت أختنا وللصغيرة : أنت بلتنا ، فوقعوا فى مالا ينبغى ، فالعاقل من بعد عن مثل ذلك ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أنهم لايتزوجون لشيخهم زوجة سواء طلقها فى حال حياته أو توفى عنها .

ولو موطؤة بملك ، أدبا معهم أو خوفا من قتلهم كما وقع لسيدى محمد الشويمى ، وسيدى بهاء الدين ، فطعنا ذلك الزوج فى المنام ، فاستيقظ ،وأخبر الناس ، ثم مات لوقته وأما سيدى محمد بن عنان ، فطعن الذى عقد على زوجته أم أبى العباس ، فاستيقظ والطعنة فى جنبه ، كالكبد المشوى ، فحمل من جامع المقسم إلى بلاده بالشرقية ، فمات فى الطريق .

وكذلك وقع لسيدى نور الدين الشونى ولكن حصل فيمن أخذ امرأته شفاعة من سيدنا رسول الله ﷺ ، لكون التى تزوجها من المكثرين من الصلاة عليه ﷺ .

ثم إن المعول فى الزجر عن مثل هذا الأمر التجربة بحصول الضرر من الأولياء إذا حصل عندهم غيرة على عيالهم وإلا : فذلك جائز فى الشرع ومن شك ، فليجرب لا سيما فى حق أرباب الأحوال .

وقد تقدم أن سيدى محمد المغربى الشاذلى كان يوصى أصحابه أن يتزوجوا حلائله بعد موته ويقول : لا أحب أن أشارك رسول الله ﷺ فى هذه الخصوصية أدبا معه ﷺ والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا دخلوا محفلا وجلسوا عند النعال لايرون نفوسهم بذلك على المتصدرين فى المجلس من حيث مواضعهم أو غيره

ولو أنهم كانوا فى صدر المجلس ، فدخل شخص من أراذل الناس ، فزحزحهم صاحب الدار إلى أسفل المجلس لايتأثرون ، وذلك لأن نفوسهم قد ماتت إلا فيما يرضى المولى عزل وجل .

وتقدم أن من شأنهم أنهم يرون نفوسهم أقل الناس ، وأن حكمهم مع الناس كحكم التلامذة مع شيخهم ، فلو زحزحهم أحد من مكانهم لأجل شيخهم لاينكدرون بل يفعلون ذلك اختياراً وينشرحون له ، فكذلك الحكم مع جميع المسلمين .

وسمعت سيدى على الخواص رضى الله عنه يقول : ليس التواضع أن يثبت الفقير له مقاما عاليا ثم يتنزل منه للناس كما قد يشعر لفظ التواضع كالبلاء أن لايرى له مقاما على أحد من المسلمين يتنزل منه ، ولو أن أحداً رفعه على أقرانه فى مجلس أو غيره لايرى أنه ارتفع بل هو دائماً تحت نعال أقرانه ، وأعدائه فضلا عن غيرهم انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا قرءوا القرآن أو سمعوه أن يجعلوا جميع مواعظه
وزواجره فى حق أنفسهم

وكذلك إذا سمعوا خطيباً أو واعظاً يأخذون جميع ما وبخ به الناس فى حق أنفسهم دون غيرهم ، وقليل من يتخلق بهذا الخلق ، وإنما يأخذون الكلام الصعب فى حق غيرهم ، ثم ينصرف أحدهم ، ويقول :

أفلح الخطيب أو الواعظ اليوم فى حق هؤلاء الفسقة ، والظلمة ، ولا يكاد يأخذ له فى حق نفسه كلمة واحدة ، وغاب عنه كونه فاسقا ، أو ظالما لأن الفسق هو خروج عن السنة ، والظلم هو ظلم النفس بارتكاب المخالفات سرا وجهراً .

فأى عاقل يدعى سلامته من هذا الفسق والظلم .

فعلم أن من كان همه الفهم فى معانى القرآن ، وما فيه من الزواجر ، والقوارع ، فهو غائب عن الوسوسة فى مخارج الحروف ، وعن الإدغام ، والاقلاب ، والترقيق ، والتفخيم إلا بقدر ما جرت العادة ، إذ إلقاء الذهن إلى مثل ذلك يغيب به العبد عن كمال الحضور مع الله تعالى .

وقد قالوا : ليس من قدرة النفس أن تشتغل بشيئين معا فى آن واحد إلا إن أمكنها الحق تعالى بقوة إلهية ، ولذلك كانت قراءة السلف الصالح ساذجة خالية عن الأنغام التى ابتدعت والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : الاحتجاب عن كل من أتاهم لغير غرض شرعى

فلا يفتحون له الباب عملا بالإحتياط فى ذلك ، وأعرف جماعة يأتونى كل قليل ولا يحفظون لسانهم عن وقائع الناس وزلاتهم ثم يجىء يحكى ذلك لى ، وعجزت عن أن أردهم فكأنهم رسل ابليس إلى .

وقد كان سيدى يوسف العجمى مع تمكنه فى الطريق لا يفتح باب الزاوية إلا لمسترشد أو مكروب أو لمن معه بر للفقراء ويقول :

إن أعز ما عندنا وقتنا ، وأعز ما على أهل الدنيا دنياهم من مال ، وطعام ، وكلام فى غير ضرورة ، فما كان عندهم حسنا ، فهو قبيح عندنا ، وإنما فتحنا الباب لمن أتى ببر للفقراء جبرا لخاطره ، ومجابرة لبره ، لكونه بذل لنا أحسن ما عنده ، فتنزلنا لعقله ، وإلا فالفقراء فى غنى عما أتى به .

وقد قدمنا أنه لا ينبغى دق الباب على فقير لأنه ربما كان فى جمعية قلب مع الله تعالى لا وجهة له إلى الخلق فينشى الداق عليه الباب الأدب معه .

وربما غارت عليه القدرة ، فأدبته بمرض ، أو زوال وظيفة ، ونحو ذلك .

وفى القرآن العظيم : (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم)[1] .

وفى الحديث « لى وقت لا يسعنى فيه غير ربى » أى لا يسعنى من الله تعالى أن اشتغل بغيره فيه والحمد لله رب العالمين .

---

(١) وتمام الآية : ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم ، سورة الحجرات آية : ٥

ومن أخلاقهم : كراهتهم لقيـــام الليل قبل أن يصطف كبراء الحضرة الإلهية

بل يصبر أحدهم حتى يصطف الجماعة الذين هم أ كبر منه عادة وعلى ذلك أهل حضرة ملوك الدنيا ، فلا يقف الأدون إلا بعد وقوف الأ كبر .

وقد وقع لى أننى قمت أتهجد ليلة قبل دخول النصف الثانى فما كنت إلا هلـكت

فاعلم ذلك يا أخى واعمل عليه ولا تغتر بمن تراه يقوم من العباد قبل نصب الموكب الإلهى ، فليس من يعلم كمن يجهل والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : محبة مناجاة الله تعالى فى الأسحار

من حيث مجالسته فيها لا لعلة أخرى من حصول أنس ، وانتعاش قلب ، وانفساحه فمن قام الليل لأجل ذلك ، فإنما قام لحظة نفسه .

وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام :

قل لفلان العابد أخلص عبادتك لله تعالى ، فإنك إنما تقوم فى الأسحار لمن تجده من لذة مناجاتى ، وأنا لا مجانسة بينى وبينك ، حتى تستلذ بى ، أو تأتسى فلنفسك قمت لا لى انتهى .

وسيأتى ذلك بأبسط مما هنا قبيل الباب السابع إن شاء الله تعالى .

وقد قال الشيخ فى الفتوحات : لا تكون إلا بالمناسب والمشاكل والحق تعالى لا مناسبة ولا مشاكلة بينه وبين خلقه ، وما حصل له من الأنس فى عباداته ليس هو فى عباداته ليس هو بالله تعالى ، وإنما هو بما من الله تعالى لا بالله تعالى .

قال : وهذا سر يغلط فيه كثير من الناس انتهى .

فعلم من باب أولى أن الفقراء الصادقين غائبون عن طلب الثواب بعباداتهم إذ لا يطلب الأجر على عبادته لربه تعالى إلا كل محجوب عن حضرة الأدب مع الله تعالى ، وما طلب أحد من الأكابر الأجر إلا من باب المنة والفضل .

وقد قدمنا أن الله تعالى قال فى بعض الكتب الالهية : ومن أظلم ممن عبدنى لجنة ونار ، لو لم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا لأن أطاع ، انتهى فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن لا يزوروا وليا أو عالما حيا أو ميتا إلا بقصد
أن يمدهم بمدده أو لغرض شرعى صحيح دون أن يروا نفوسهم
عليه بالزيادة

وكذلك كانوا لا يخرجون من عند من زاروه إلا بمدد وخير بخلاف من يروا نفوسهم على من يزوروه من جملة الزائرين ، فإنهم إما يمقتوا ، وإما يخرجوا بلا مدد ، وممن رأيته فى عصرنا هذا يزور الفقراء بقصد الاستمداد من مددهم الشيخ ناصر الدين الطبلاوى ، وسيدى محمد الرملى ، والشيخ نور الدين الطنطاوى ، والشيخ شمس الدين الخطيب ، والشيخ نجم الدين الغيطى ، والشيخ سراج الدين الحانوتى رضى الله تعالى عنهم فاقتد يا أخى بهؤلاء الأشياخ .

وكان بعضهم إذا زار وليا ، ورآه ناقصاً فى مقام كمله له فى البرزخ .

ووقع لى مع سيدى عمر بن الفارض رضى الله تعالى عنه ذلك وشكرنى على ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : تصديقهم للفقراء فيما يخبرون به عن أنفسهم من الأمور التي تحيلها العقول عادة

وقد وقع لسيدى على المرصفى أنه قرأ القرآن الكريم فى يوم وليلة ، ثلاثمائة ألف مرة وستين ألف مرة كل درجة ألف ختم . كما سمعته منه مراراً .

ووقع أن أخى الشيخ أبا العباس الحريثى صلى المغرب فى خلوتى فى رمضان وتمشيت أنا وإياه ثم افتتح القراءة فقرأ القرآن قبل مغيب الشفق خمس مرات .

ووقع لى أننى صليت خلف الشيخ عمر الامام عندنا بالزاوية فى صلاة الصبح . فافتتح بسورة المزمل ، فسهوت عن سماعه وافتتحت من سورة البقرة فوصلت إلى الآية التى هو فيها فى الركعة الأولى هذا أمر شهدته من نفسى وآمنت به ، فإنه كما يجب الايمان بكرامات الأولياء ، كذلك يجب على العبد الايمان بكرامة نفسه التى أكرمه الله تعالى بها لأن كلا الكرامتين بأقدار الله تعالى للعبد لا مستقلا .

وإذا نظر العبد إلى كون الكرامة فعل الله تعالى ، وخلقه لا يقع فى تعجب يعنى استبعاداً على القدرة ، فان القدرة لا يعجزها شيء ، والله على كل شيء قدير ، وإنما تعجب الناس من مثل ذلك لوقوفهم مع نسبة ذلك للولى ، وهو حجاب عظيم إذ لو كانت الكرامة من قدرة العبد مستقلا لم يمت إذا حضر أجله ، وكان يحيي نفسه إذا مات ويفعل كل ما يريده فافهم[1] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الإمام الطوسى فى كتاب اللمع :

باب : فى معانى الآيات والكرامات وذكر من كان له شيء من ذلك :

قال الشيخ رحمه الله: حكى عن سهل بن عبدالله رحمه الله أنه قال : الآيات لله والمعجزات للأنبياء ، والكرامات للأولياء ولخيار المسلمين .

وحكى عن سهل بن عبدالله رحمه الله أنه كان يقول : من زهد فى الدنيا أربعين يوما صادقا مخلصا فى ذلك تظهر له الكرامات من الله عز وجل ومن لم يظهر له ذلك فإنما عدم فى زهده من الصدق والإخلاص ، أو كلاما نحو ذلك .

. . . . . .

وعن الجنيد رحمه الله أنه قال : من يتكلم فى الكرامات ولا يكون له من ذلك شىء منه مثل من يمضغ التبن . قيل لسهل رحمه الله فى الحكاية التى قبل هذه فيمن زهد فى الدنيا أربعين يوما : كيف يكون ذلك ؟ فقال : يأخذ مايشاء من حيث يشاء .

وسمعت ابن سالم يقول : الإيمان أربعة أركان . ركن منه الإيمان بالقدر ، وركن منه الإيمان بالقدرة ، وركن منه التبرىء من الحول والقوة ، وركن منه الإستعانة بالله عز وجل فى جميع الأشياء .

وسمعت ابن سالم رحمه الله وقيل له : مامعنى قولك الإيمان بالقدرة ؟ فقال : هو أن تؤمن — ولا ينكر قلبك — بان يكون له عبد بالمشرق ويكون من كرامة الله تعالى له أن يعطيه من القدرة ومايتقلب من يمينه على يساره فيكون بالمغرب، يعنى تؤمن بجواز ذلك وكونه.

والصحيح عن سهل بن عبدالله أنه كان يقول لشاب كان يصحبه : إن كنت تخاف من السبع بعد ذلك فلا تصحبنى .

ودخلت مع جماعة بتستر قصر سهل بن عبدالله رحمه الله ، فدخلنا فى القصر بيتا كان الناس يسمونه بيت السبع فسألناهم عن ذلك فقالوا : كان تجىء السباع إلى سهل بن عبدالله رحمه الله فكان يدخلها هذا البيت ويضيفها ويطعمها اللحم ثم يخليها ، والله أعلم بذلك ، ومارأيت أحدا من صالحى أهل تستر ينكر ذلك . وسمعت أبا الحسين البصرى رحمه الله يقول : كان بعبادان رجل أسود فقير يأوى الخرابات ، فحملت معى شيئا وطلبته ، فلما وقعت عينه على تبسم وأشار بيده إلى الأرض ، فرأيت يعنى الأرض كلها ذهبا تلمع ثم قال لى : هات مامعك فناولته ما كان معى ، وهربت منه وهالنى أمره .

وسمعت الحسين بن أحمد الرازى رحمه الله يقول : سمعت أباسليمان الخواص رحمه الله يقول : كنت راكبا حمارا لى يوما ، وكان يؤذيه الذباب فيطاطىء رأسه فكنت أضرب رأسه بخشبة كانت فى يدى ، فرفع الحمار رأسه إلى وقال : اضرب فإنك هوذا تضرب على رأسك ، فقال أبو عبدالله . فقلت لأبى سليمان : ياأبا سليمان وقع لك ذلك أو سمعته ؟ فقال: سمعته يقول كما تسمعنى .

وسمعت أحمد بن عطاء الروذبارى يقول : كان لى مذهب فى أمر الطهارة فكنت ليلة من الليالى أستنجى — أو قال : كنت أتوضأ — إلى أن مضى من الليل ربعه ولم يطب قلبى فضجرت ، وبكيت ، وقلت : يارب العفو ، فسمعت صوتا ولم أر أحدا يقول: يا أباعبدالله

. . . . . .

الصفو فى العلم ، وكان عند جعفر الخلدى رحمه الله فص ، وكان يوما من الأيام راكبا فى سمارية فى الدجلة ، فاراد أن يعطى الملاح قطعته ، فحل الشبكة ، وكان الفص فيها ، فوقع الفص فى الدجلة ، وكان عنده دعاء للضالة مجرب فكان يدعو به فوجدا الفص فى وسط أوراق كان يصفحها ، والدعاء (اللهم ياجامع الناس ليوم لاريب فيه اجمع على ضالتى ، قال : ثم أرانى أبو الطيب العكى جزءا قد جمع فيه ذكر كل ضالة رد الله إلى من دعا بهذا الدعاء فى مدة قليلة ، فنظرت فيه وكان أوراقا كثيرة .

وسمعت حمزة بن عبدالله العلوى يقول:دخلت على أبى الخير التيناتى وكنت قد اعتقدت فى سرى فيما بينى و بين الله تعالى أن أسلم عليه وأخرج ، ولا أتناول عنده طعاما،ثم دخلت فسلمت عليه وودعته وخرجت من عنده ، فلما تباعدت من القرية فإذا به وقد حمل معه طعاما فقال لى : يا أخى، كل هذا ، فقد خرجت الساعة من اعتقادك ، أو كلاما هذا معناه وهؤلاء القوم مشهورون بالصدق والديانة ، وكل واحد منهم إمام مشار إليه فى ناحيته ، ومقتدى به فى أحكام الدين ، فقد صدقهم المسلمون فى أحكام دينهم ، وقبلوا شهادتهم على رسول الله ﷺ فيما رووا عنه وأسندوا إليه من الأخبار والآثار ، ولايجوز أن يكذبهم أحد ويتهمهم فى هذه الحكايات ومايشبه ذلك ، وإذا كانوا صادقين فى واحد ، ففى الجميع كذلك .

باب : فى حجة من أنكر كون ذلك من أهل الظاهر والحجة عليهم فى جواز ذلك للأولياء والفرق بينهم و بين الأنبياء عليهم السلام فى ذلك :

قال الشيخ رحمه الله : قال أهل الظاهر : لايجوز كون هذه الكرامات لغير الأنبياء عليهم السلام لأن الانبياء مخصوصون بذلك ، والآيات والمعجزات والكرامات واحدة ، وإنما سميت معجزات لإعجاز الخلق عن الإتيان بمثلها،فمن أثبت من ذلك شيئا لغير الانبياء عليهم السلام فقد ساوى بينهم ولم يفرق بين الانبياء وبينهم .

قال الشيخ رحمه الله : من أنكر ذلك فإنما أنكرها احترازا من أن يقع وهن فى معجزات الانبياء عليهم السلام ، وقد غلط قائل هذا القول لان بينهم و بين الانبياء عليهم السلام فى ذلك فرقا من جهات شتى !

فوجه منها أن الانبياء عليهم السلام مستعبدون بإظهار ذلك الخلق ، والإحتجاج بها على من يدعونهم إلى الله تعالى ، فمتى ما كتموا ذلك فقد خالفوا الله تعالى فى كتمانها ،

. . . . .

والاولياء مستعبدون بكتمان ذلك عن الخلق ، وإذا أظهروا من ذلك شيئا للخلق لاتخاذ الجاه عندهم فقد خالفوا الله وعصوه بإظهار ذلك .

والوجه الآخر فى الفرق بينهم وبين الانبياء عليهم السلام : أن الانبياء عليهم السلام يحتجون بمعجزاتهم على المشركين لان قلوبهم قاسية لا يؤمنون بالله عز وجل والاولياء يحتجون بذلك على نفوسهم حتى تطمئن وتوقن ولا تضطرب ولا تجزع عند فوت الرزق لانها أمارة بالسوء ، جاحدة مشركة ، مجبولة على الشك ، ليس عندها يقين بما ضمن لها خالقها من الرزق وذكر القسم عليها .

وقد سألت ابن سالم عن ذلك فقلت له : مامعنى الكرامات وهم قد أكرموا حتى تركوا الدنيا اختيارا ! فكيف أكرموا بأن يجعل لهم الحجارة ذهبا ، فما وجه ذلك ! فقال : لا يعطيهم ذلك لقدرها ، ولكن يعطيهم ذلك حتى يحتجوا بكون ذلك على أنفسهم عند اضطرابها وجزعها من فوت الرزق الذى قسم الله لهم فيقولوا الذى يقدر على أن تصير لك الحجارة ذهبا كما هو ذا تنظر إليه ، أليس بقادر ان يسوق رزقك إليك ومن حيث لا تحسبه ؟ فيحتجوا بذلك على ضجيج نفوسهم عند فوت الرزق ، ويقطعوا بذلك حجج أنفسهم ، فيكون ذلك سببا لرياضة نفوسهم وتأديبا لها .

وقد حكى لنا ابن سالم فى معنى ذلك حكاية عن سهل بن عبدالله رحمه الله أنه قال : كان رجل بالبصرة يقال له إسحاق بن أحمد ، وكان من أبناء الدنيا ، فخرج من الدنيا — أعنى من جميع ما كان له — وتاب ، وصحب سهلا رحمه الله فقال يوما لسهل رحمه الله : ياأبا محمد ، إن نفسى هذه ليس تترك الضجيج والصراخ من خوف فوت القوت والقوام ، فقال له سهل رحمه الله : خذ ذلك الحجر وسل ربك أن يصيره لك طعاما تأكله ، فقال له : ومن إمامى فى ذلك حتى أفعل ذلك ، فقال سهل : إمامك إبراهيم عليه السلام حيث قال :

(رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن ! قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى) .

فالمعنى فى ذلك أن النفس لا تطمئن إلا برؤية العين لأن من جبلتها الشك ، فقال إبراهيم عليه السلام : أرنى كيف تطمئن نفسى ، فإنى مؤمن بذلك ، والنفس لا تطمئن إلا برؤية العين .

فكذلك الاولياء يظهر الله تعالى لهم الكرامات تأديبا لنفوسهم ، وتهذيبا لها ، وزيادة لهم ، ويكون فى ذلك فرق بينهم وبين الانبياء عليهم السلام ، لأنهم يعطون المعجزة للاحتجاج بها فى الدعوة ، والدلالة على الله تعالى ، والإقرار بوحدانيته تعالى .

. . . . . .

والوجه الثالث : فى الفرق بينهم وبين الانبياء عليهم السلام لان الانبياء كلما زيدت معجزاتهم ، وكثرت ، يكون أتم لمعانيهم وأثبت لقلوبهم كما كان نبينا ﷺ قد أعطى جميع ماأعطى الانبياء عليهم السلام من المعجزات ثم زيادة أشياء لم يعط أحد غيره مثل : المعراج ، وانشقاق القمر ، ونبع الماء من بين أصابعه .

وشرح ذلك يطول ، ومقصودنا من ذلك أن الانبياء عليهم السلام كلما زيدت لهم من المعجزات يكون أتم لمعانيهم وفضلهم ، وهؤلاء الذين لهم الكرامات من الاولياء كلما زيدت فى كراماتهم يكون وجلهم أكثر حذرا أن يكون ذلك من المكر الخفى لهم والإستدراج وأن يكون ذلك نصيبهم من الله عز وجل ، وسببا لسقوط منزلتهم عند الله عز وجل .

باب فى الادلة على إثبات الكرامات للأولياء ، وعلة قول من قال لا يكون ذلك إلا للأنبياء عليهم السلام : قال الشيخ رحمه الله : والدليل على جواز ذلك من الكتاب والاثر ، قال الله تعالى (وهزى إليك بجذع النخلة . تساقط عليك رطبا جنيا) ومريم لم تكن نبية .

وحديث النبي ﷺ فى قصة جريج الراهب ، وكلام الصبى ، وجريج لم يكن نبيا .

وقال النبي ﷺ فى قصة الغار : (بينا ثلاثة يمشون إذ آواهم الليل إلى غار) الحديث

وماروى عنه ﷺ (بينا رجل يمشى ومعه بقرة فركبها فقالت : ياعبدالله ماخلقنا لهذا إنما خلقنا للحرث فقال القوم : سبحان الله فقال النبي ﷺ : آمنت به أنا وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما وليس هما فى القوم ، ولم يذكر أن الراكب للبقرة كان نبيا ، وكذلك حديث الذئب الذى كلم الراعى ، ولم يذكر أنه كان نبيا .

وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال :(إن فى أمتى مكلمون ومحدثون وإن عمر رضى الله عنه منهم) والمكلم والمحدث أتم فى معناه من جميع الكرامات التى ذكر الله عز وجل على البدلاء والأولياء والصالحين ، وحديث عمر رضى الله عنه أنه قال فى خطبته : (ياسارية الجبل) فسمع صوته بالعسكر على باب نهاوند .

وقد روى فى الحديث لعلى بن أبى طالب ولفاطمة رضى الله عنهما كرامات وإجابات كثيرة .

وقد روى عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ فى مثل ذلك أشياء مثل حديث أسيد بن حضير وعتاب بن بشير أنهما خرجا من عند رسول الله ﷺ فى ليلة مظلمة فاضاء لهما رأس عصا أحدهما كالسراج ، على حسب ماروى فى الخبر .

• • • • • •

وحديث أبي الدرداء وسلمان الفارسي رضي الله عنهما أنه كان بينهما قصعة فسبحت حتى سمعا تسبيحها ، وقصة العلاء بن الحضرمي حيث بعثه رسول الله ﷺ في غزاة فحال بينهما وبين الموضع قطعة من البحر فدعا الله تعالى باسمه الأعظم ومشوا على الماء كما جاء في الخبر ، وكذلك دعاؤه لما استقبله السبع .

وحديث عبدالله بن عمر رضي الله عنه حين لقي الجماعة الذين وقفوا على الطريق من خوف السبع فطرد السبع من طريقهم ثم قال : إنما يسلط على ابن آدم من يخافه ولو أن ابن آدم لم يخف شيئاً غير الله لم يسلط الله عليه شيئاً يخافه غيره ، ومثله في الاخبار كثير .

والصحيح عن رسول الله ﷺ ما قال: (رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبر قسمه وإن البراء بن مالك منهم ؛ ولا يكون في الكرامات شيء أتم من أن يقسم العبد على الله تعالى فيبر قسمه وقد قال الله عز وجل (ادعوني أستجب لكم) ولم يقل في شيء دون شيء .

وقد روى أيضا لجماعة من التابعين بالأسانيد الصحيحة كرامات وإجابات يطول ذكرها إن ذكرنا بعضها فكيف كلها !! وقد صنف العلماء في ذكرها ورواياتها عنهم مصنفات

وقد روى أشياء في الحديث من الكرامات كثيرة من ذاك لعامر بن عبدالقيس والحسن بن أبي الحسن البصري ولمسلم بن يسار ولثابت البناني ولصالح المري ولبكر بن عبدالله المزني ولأويس القرني ولهرم بن حيان ولأبي مسلم الخولاني ولصلة بن أشيم وللربيع ابن خثيم ولداود الطائي ولمطرف بن عبدالله بن الشخير ولسعيد بن المسيب ولعطاء السلمي ولغيرهم من التابعين ، قد رووا عن كل واحد من هؤلاء وغير هؤلاء كرامات كثيرة وإجابات وأشياء قد ظهرت لهم ، لا ينبغي لأحد أن يدفع ذلك لصحتها عند أهل الرواية ، وكذلك الطبقة أخرى بعدهم ، مثل مالك بن دينار وفرقد السبخي وعتبة الغلام وحبيب العجمي ومحمد بن واسع ورابعة العدوية وعبدالواحد بن زيد وأيوب السختياني وغير ذلك ممن كان في عصرهم فإذا روى عنهم العلماء والأئمة الذين كانوا في عصرهم وقد صح عنهم ذلك عندهم وقد حدثوا بها ، مثل أيوب السختياني وحماد بن زيد وسفيان الثوري وغيرهم من الأئمة والثقات ولم ينكر ذلك واحد منهم ، وهم أئمتنا في الدين ، وبرواياتهم صح عندنا علم الحدود والأحكام وعلم الحلال والحرام ، فكيف يجوز أن نصدقهم في بعض ما يروون ولا نصدقهم في بعض ذلك !!

• • • • • •

وقد رأيت جماعة من أهل العلم جمعوا مايشاكل هذا الذى ذكرنا من كرامات الأولياء والإجابات والذى ظهر لهم فى الوقت فى هذا المعنى ، فذكروا أنهم قد جمعوا فى ذلك أكثر من ألف حكاية وألف خبر ، فكيف يجوز أن يقال : ذلك كله كذب موضوع ؟

وإن صح من الجميع واحد فقط صح الكل فإن القليل والكثير فى ذلك سواء .

والذى يحتج بأن الذى كان قبل النبي ﷺ من ذلك كان إكراما لنبي ذلك الزمان الذى كان ذلك فى وقته والذى كان لأصحاب رسول الله ﷺ كان إكراما للنبي ﷺ فيقال له : فالذى كان أيضا للتابعين ولمن بعدهم وما يكون من مثل ذلك إلى يوم القيامة من الكرامات فكل ذلك إكراما للنبي ﷺ لأنه أفضل الأنبياء عليه السلام وأمته خير الأمم .

وكما استحال أن يكون لنبي من الانبياء عليهم السلام شيء من المعجزات إلا وقد كان للنبي ﷺ من مثل ذلك أو أتم من ذلك أو أكثر ، فكذلك يستحيل أن يكون فى الأمم السالفة لقوم منهم شيء من الكرامات إكراما لأنبيائهم إلا ويكون فى أمة محمد ﷺ أيضا لطائفة منهم أكثر من ذلك إكراما لمحمد ﷺ معا إن فى أمة محمد ﷺ من لا يرى ذلك حالا ولا مرتبة ولا كرامة ولا يرى ذلك إختبارا ومحنة موضوعة على طرق أصفيائه والمخصوصين من أوليائه فهم يخشون من ذلك إذا ظهر لهم سقوط منزلتهم عند الله تعالى ونكوصهم على عقبهم ونزولهم عن درجتهم ولايعدون من ركن إلى ذلك ورضى به حالا أنه من أهل الخصوص ، ونحن نذكر فى ذلك بابا نبين فيه ذلك إن شاء الله . وإنما أردنا بذكر ذلك جواز كونه وبطلان قول من زعم أن كون ذلك غير جائز فى الأمة .

ومن أخلاقهم : أنهم يكرهون من يقبل يدهم أو يقوم لهم أو يمشى معهم من غير غرض شرعى

كما أنهم يحبون من لم يقبل يدهم : ولم يقم لهم ، ولم يستقدم أكثر ممن كان بالضد من ذلك ، وهذا خلق غريب فى هذا الزمان لا يوجد إلا فى أفراد من الناس .

وكان هذا الخلق من أخلاق سيدى على الخواص وأخى الشيخ أفضل الدين رحمهما الله تعالى ، ولا يقدر على المشى عليه إلا من غلبت عليه مراقبة الله تعالى ، وكان فى حضرته على الدوام كشفا وشهودا لا ظنا وغفلة ، فأشد ما على العبد من يعظمه بحضرة الله تعالى ، فيكاد يذوب من الحياء والخجل لا سيما إن كان ذلك الوقت مشهوده زلاته السابقة ، وهو يطلب من الله تعالى أن يعفو عنه ، ويسامحه ، فإنه يهلكه بالكلية كما جربنا ذلك وما يعقلها إلا العالمون والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إكرام أهل الحرف النافعة

كالقنواتى ، والفرآن ، والمداوى ، والجزار ، والطباخ ، ونحوهم

فإنهم من أهل الفضل علينا ، وإن قال العلماء بكراهة كسب بعضهم ، أو كانوا عواما ، ونحن علماء .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقوم للقنواتى ، والزبال الحمام ويقول : إن هؤلاء لهم الفضل علينا فى نزحهم قاذوراتنا وتسخينهم الماء فى الشتاء لطهارتنا ، والقيام لأهل الفضل محمود .

وهذا خلق غاب أصحاب الأنفس عنه ، ولو نظر أحدهم إلى نفسه هو فى الكون لوجده كلاً نفع منه ، وأين هو من الطباخ الذى يقوم من نصف الليل يهىء الطعام للعزاب الذى ليس لهم أحد يخدمهم ، فكم يأكل من طعامه فقير ومسكين وعاجز بفلوس ، وغير فلوس كما بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : تصبرهم على المرض

وعدم الضجيج من الألم فى حال بدايتهم ، وعدم الصبر ، وإظهار الضجيج أيام نهايتهم ، فإن الكمل من شدة لطافة أبدانهم بالرياضة والمجاهدة صاروا يتألمون من قرصة برغوث ، ولا هكذا حالهم أيام بدايتهم لشدة كثافتهم ، وكثرة دعوى نفوسهم القوة ، كالفراعنة إذ النفس تريد بتصبرها مقاومة القهر الإلهى ، والكامل ظهر له ضعفه ، وألقى سلاحه ، ومابقى معه قوة تقاوم بها القهر الإلهى .

فكان من فضل الله تعالى على العبد أنه يحبسه فى مقام الصبر والتجلد وتحمل المرارة ، ليحصل له أجر الصابرين ، ثم ينقله أواخر عمره إلى مقام الرضى ، ليجعل له أجر الراضين ليحوز الكمال فى المقامين .

وقد سئل أبو عبد الله الحكيم الترمذى عن صفه الخلق ؟ فقال : ضعف ظاهر ودعوى عريضة انتهى .

ولما علم العارفون ذلك من نفوسهم طلبوا من الله تعالى التخفيف عن مرضهم فإن مثالهم إلى ذلك السؤال كما وقع للسيد أيوب عليه الصلاة والسلام بقوله أواخر المرض (رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين)[1] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٨٣

ومن أخلاقهم : أنهم لايقبلون هدية من لايتورع فى مكسبه

ثم إن قبلوا هدية من يتورع كافئوه على هديته ، وإن علموا أنه لايقبل مكافأتهم ردوا هديته عليه هروبا من تحمل منن الخلق فى الدنيا والآخرة .

فعلم أن كل فقير قبل هدية من لايتورع كبعض الولاة ، والقضاة ، والتجار الذين يبيعون على الظلمة ، فهو لم يشم لطريق القوم رائحة .

وكان سيدى على الخواص لايبتدىء أحدا بهدية إلا إن كان فقيراً ، فيهديها إليه ، ويسامحه بالمكافأة عليها ، وإن أهدى أحدا له ممن لايقبل مكافأة افناه أو تكبره مثلا ردها عليه ويقول للرسول : قل له : أن يهديها إلى من هو أحوج إلى ذلك منى كما أوضحت ذلك فى كتاب العهود والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : هروبهم من تحمل منن من زارهم من الأكابر

لا سيا العلماء والأولياء فإن جميع رأس مال الفقير من أعمال لايجيء حق طريق أحدهم هذا مع ازدرائهم نفوسهم ، وعدم رؤية استحقاقهم لمجئ أحد اليهم .

وكثيراً ما أسأل الله تعالى أن ينسى أخوانى من طلبة العلم أن يزورونى خوفاً أن ينقص أجر زيارتهم لى عن أجر اشتغالهم بالعلم الذى فوتوه بمجيئهم إلى .

وكثيراً ما أجعل ثواب عملي ذلك اليوم إن كان سبق فى علم الله تعالى أن فيه ثواباً فى صحايف من زارنى ذلك اليوم من العلماء، والصالحين .

وهذا خلق لم أر له فاعلا إلا القليل والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : الإكثار من الأعمال الصالحة

ثم لا يرون أنهم قاموا بشيء من واجب حقوق الله عز وجل ، ولو صام أحدهم وصلى وتورع وزهد . حتى ، صار كالشن البالى .

وقد غاب عن مثل هذا غالب أولاد المشايخ ، فا كتفوا عن العمل بالاتكال على أعمال سلفهم ، وشهرتهم بالصلاح ، ففاتهم خير كثير .

وقد أخبرنى شيخنا الشيخ محمد الشناوى رحمه الله تعالى : أن شريفا دخل على سيدى ياقوت العرشى ، فرأى الناس يقبلون رجل سيدى ياقوت ، ولا يلتفت إليه أحد ، فتكدر الشريف فى نفسه .

فقال له سيدى ياقوت : ياشريف أنا كلى بأكارعى وجميع أعضاى الناشفة المزيلة لو وضعونى فى السوق ما أقبل أحد على شرائى بعشرة دنانير ، ولكن لما تبعت أخلاق سلفك الطاهر اكتسبت الشرف والعز ، وأنت لما خالفت أخلاقهم ، واتبعت أخلاق الأرازل أكتسبت الذل ، فتنبه ذلك الشريف لنفسه ، وتاب إلى الله تعالى ، وأخذ الطريق عن سيدى ياقوت انتهى .

وتقدم بعض ذلك .

فعلم أن كمال مروءة الفقير أن يكون فى حرز أعماله الزكية لا فى أعمال سلفه الذين ماتوا .

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

أكثروا من الأعمال الصالحة على نية أن تعطوها لخصمائكم يوم القيامة ، ولا تطمعوا نفوسكم منها بشيء إلا بعد استيفاء الخصوم منكم الحقوق ، ولعله لا يفضل عنهم شيء لكم ، وربما أعمالكم الكثيرة لا تكفيهم ، فيضع الملائكة من أوزارهم على ظهوركم انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : مراعاة حق الجار

حتى إن أحدهم يود أن يتحمل عن جاره كل بلاء نزل عليه ويود أن يدخل عليه كل شيء يسره ، وإذا كان سا كنا على الخليج ، وطلب جماعة الوالى منه أن ينزح ماء خرارته ، فمن المعروف أن يجعلها الفقير خرارته ، ويقول : هذه خرارتى وينزحها عنه لا سيما إن كان الجار فى كدر من ولد مات أو مال ضاع ، أو عنده مريض أو ضيوف يستحى منهم أو طلبوه للتفتيش ليعمل حسابه فى الوقف الذى تحت نظره أو جبايته فإنه يكون فى أعلا طبقات النكد .

وقد عملت ذلك مرة ، ونزلت بالمجاورين ، فنزحنا خرارة الحمام ، والجامع الذى بجوارنا ، ونزل معنا الشيخ رضى الدين قاضى قليوب نفع الله به المسلمين كل ذلك خوفا من أعوان الوالى أن يرعبوا صاحب الحمام ، وناظر جامع الميدان من جماعة الوالى فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : اشتغالهم بتوديع الدقائق والدرج والساعات

وخروج أوقات الصلوات ، وتوديع الأيام والليالى ، والجمع والشهور ، والسنين ، بالأعمال الصالحة ، فلا يصير لهم وجهة ، لأحد من الخلق ، وكيف حال من تشهد عليه هذه الأوقات كلها بما عمل فيها من السيئات .

فإن حكم العبد حكم مجرم اجتمعت عليه شهود عدول عند ملك جبار يشهدون عليه بتعدى حدوده التى نصبها ، ونهاه عن تعديها وقالوا له : إنه استهان بنظرك إليه ، وخاف من نظر عبيدك ، وذكروا فيه الهجر والبجر ، حتى اشتد غضب ذلك الملك عليه ، ولله المثل الأعلى ، فإن نظر لعدد مفاصله التى تشهد عليه وجدها ثلاثمائة ، وستين شاهدا فى كل وقت عصى الله تعالى فيه ، وإن نظر للأيام والليالى وجدها عند قرب انسلاخ السنة ، كأنها سبعمائة وعشرون شاهدا ، وإن نظر إلى الكرام الكاتبين فى اليوم ، والليلة وجدهم ألفاً وأربعمائة وأربعين شاهدا ، وهكذا القول فى المفاصل والدقائق والثوانى والساعات وإذا ضربتها صارت كذا كذا ألفاً يشهدون عليك وهذا الخلق ما رأيته إلا فى أفراد قليلة ومن عرف عذر الفقير فى هروبه من الناس فى وقت من الأوقات من الدقايق إلى السنين ، فربما يكون مشغولا بتوديع ما فارقه من الزمان فى ذلك الوقت ، لأن كل وقت ورد عليه رسول من عند الله عز وجل ، فإما يرجع شاكرا ، وإما كفورا لاسيما أواخر السنة ، فإن الفقير يكاد يذوب من الخجل والحياء من الله تعالى ، حين تصعد رسل جميع الأوقات المذكورة إلى حضرة الله تعالى ذامة أفعاله ، وأقواله .

وقد دخل على أواخر سنة أحدى وستين وتسعمائة الأخ الصالح الورع الزاهد الشيخ بدر الدين الشهاوى الحنفى زايرا ، فما وجدت لى وجهة إليه ، فلو لا أنه يعرف أحوال الفقراء ، لخرج نادما على زيارته لمن لا يلتفت إليه ولا أنصفه فى السلام .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : زيادة العمل للطاعات بحضرة مريدهم

لينهضوا همتهم ، حتى يصير المريد يجهد فى أثرهم فلا يلحقهم بحكم الإرث لرسول الله ﷺ فقد قام ، حتى تورمت قدماه .

والله إنى لأخرج إلى الزاوية فى الليل ليس لى حاجة إلا أن أعلم الفقراء إنى مستيقظ خوفا أن يظنوا أننى نائم ، فيناموا .

فعلم أنه متى كان المريد أكثر عملا من الشيخ ربما رأى نفسه على الشيخ ، فلا يفلح بعد ذلك على يديه .

قال الجنيد رضى الله عنه : مارأيت أعبد من السرى السقطى أتت عليه ثمان وتسعون سنة مارؤى مضطجعا إلا فى علة الموت .

قال : وكان يقول لنا أعملوا يا أولادى قبل أن يصير أحدكم عاجزا مثلى .

قال الجنيد : وكنا نجهد أن نعمل مثل عمله فى ذلك السن ، فلا نلحقه انتهى .

وهذا الخلق قد أخل به مشايخ الزوايا ، فإنهم فى النهار مع الناس ، وفى الليل مع النساء ، والنوم ، ومع ذلك ، فربما يزعم أحدهم أنه فى مقام لا يشغله الخلق عن الله تعالى ، وربما كان كاذبا كجلوسه للمشيخة بلا إذن من شيخه ، وقبل خمود نار بشريته ، ورعوناته ، ويؤيد ذلك تكديره إذا سمع أحدا يذمه ، ويمدح أقرانه ، وتكدره إذا كان الباشا ، والدفتدار ، وقاضى العسكر يزورونه ، ويعتقدونه ، ثم فارقوه إلى أحد من أقرانه ، وصاروا ينكرون عليه ، ويذكرون نقائصه فى المجالس ، فإن علامة الصادق الذى لا يشغله عن الله تعالى شىء أن ينشرح صدره إذا أنكر عليه الولاة ، وذموه ، وأعتقدوا أقرانه ، ومدحوهم ، وهذه ميزان تطيش على الذر ، فليمتحن المدعى نفسه ، ثم بعد ذلك يدعى أنه لا يشغله عن الله تعالى شىء والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إكرامهم لحملة القرآن والشريعة المطهرة

وإن لم يعملوا بما حملوا كما مر ، فيكفينا منهم كون الحق تعالى جعلهم عرشا بكون القرآن العظيم ، والعلم الشريف فى قلوبهم ، وإن كان غير حال فى القلوب كما هو مقرر فى كتب قواعد العقائد ، ولم يزل علم الناس فى كل عصر أكثر من عملهم ، ومن توقف فى إكرام عالم على عمله بكل مايعلم ، فاته خير كثير .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

ينبغى للعبد أن يعظم حملة شريعة رسول الله ﷺ من حيث كون الحق تعالى أهلهم لحملها ، فمتى خرج فى الدين مبتدع قاموا عليه ، وقطعوه بالحجج .

وهذا القدر كاف لنا فى الحث على إكرامهم ، فعلم أن أهل الله تعالى لا يتوقفون فى محبتهم لعالم على إحسانه إليهم ، أو مصاحبته لهم ، ونحو ذلك من الأغراض الدنيوية بل يحبونه ، ولو لم يجالسهم قط محبة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا غير والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة مدترتهم لطالب العلم إذا دخـــل عليهم وهم يقرؤون فى كلام أهل الطريق

فلا يعزمون عليه أنه يقرر إلا إذا علموا منه باصطلاح القوم خوفا عليه أن يضحك عليه المريدون ، وهو يقرر الـكلام على خلاف مراد القوم .

ثم إذا خفنا عليه ما ذكروا قررنا نحن .

فن الأدب أن نصير نستشيره فى المعانى التى نبديها ، فإن قال : هى حسنة كان ، وإلا رجعنا إلى ما فهمه هو ، ثم إذا خرج من عندنا قررنا للفقراء الـكلام على مصطلح القوم ، وذلك لأن بعض طلبة العلم الآن علمهم موضوع فى نفوسهم لا فى أرواحهم ، فلا يزداد أحدهم بكثرة العلم إلا تـكبرا ودعوى ، فهو الشجر الحنظل كلما ازداد ريا من الماء كلما ازداد مرارة بخلاف من كان علمه موضوعا فى روحه ، فإنه يزداد تواضعاً ويدعى الجهل كما درج عليه السلف الصالح ، فـكان من حسن سياسة الفقراء العمل مثل هؤلاء القوم ، وإلا خرج أحدهم يمزق فى أعراض أهل الطريق ويدعى أنهم خارجين عن الشريعة بحسب فهمه السقيم ، ولو أنه اهتدى لتلمذ لأهل الطريق ، حتى عرف مصطلحهم ، ثم بعد ذلك جالسهم وحضر دروسهم .

قال سيدى عمر بن الفارض رضى الله تعالى عنه ونفعنا به :

دع عنك تعنيفى وذق طعم الهوى　　فإذا عشقت فبعد ذلك عنف

أى فإنك إذا ذقت طعم الهوى لم تعنف أحدا من أهل الطريق عن طريقه ، وإنما يعنف من اعترض عليهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : شدة كراهتهم للتقدم للأمامة فى الفرايض والجنايز والاستسقاء ونحو ذلك

حياء من الله تعالى ، وأخذا لأنفسهم بالاحتياط ، ويقولون : يكفى أحدنا وزر صلاة نفسه .

وكان سيدى ابراهيم المتبولى رضى الله عنه يقول :

لا ينبغى أن يتقدم للامامة فى الفرائض والجنائز إلا من كان ظاهره مثل باطنه ، وليس له سريرة يفتضح بها فى الدنيا والآخرة أما من كان مرتكبا فى الباطن شيئاً بحيث لو اطلع عليه المأمومون لكرهوا الصلاة خلفه ، فلا ينبغى له التقدم .

فليعرض من يطلب التقدم على الناس فى الإمامة ذلك على نفسه ، ويقدر أنه لو أظهر المأمومين على جميع زلاته التى عملها طول عمره هل كانوا يصلون خلفه أو يمتنعون ؟ ويفعل بمقتضى ذلك .

وأظنه لو أطلعهم على جميع زلاته لم يكن أحد منهم يحب أن يصلى خلفه .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

لا ينبغى أن يزاحم على الإمامة فى الجنايز إلا من لم يكن عليه ذنب ، حتى يقبل الله شفاعته ، فإن من عليه ذنب يحتاج عادة إلى من يشفع فيه ، فكيف يكون شافعا لا سيما الصلاة على المكاس ، ومقدم الوالى ، وغيرهم من الظلمة ، فإنه يحتاج إلى جاه عريض عند الله تعالى ، حتى يرضى عنهم جميع خصمائهم .

فقلت له : فإن كان ذلك مشهد جميع الكافرين . (المصلين؟)

فقال : يتقدم أحد المذنبين منهم ، ويدعوا لنفسه ، ولذلك الميت قياما بحق الشرع وبفرض الكفاية ، وبحق أخيه المسلم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : مبادرتهم للشكر لله تعالى إذا قدر لهم طاعة ومبادرتهم للاستغفار إذا قدر عليهم معصية

ولا يقولون : هذا قدره الله تعالى علينا إلا بعد الندم والاستغفار ، ومن أين لأمثالنا أن يأذن الحق تعالى له فى الوقوف بين يديه ، ولو لحظة ، فلذلك بادروا إلى الشكر ، وإن كانوا يستغفرون من طاعاتهم من حيث نقصها ، وعدم خشوعهم فيها ، ويرضون عن الله تعالى من حيث قضائه عليهم المعصية لا من حيث المقتضى الذى هو من كسبهم ، فافهم.

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

ينبغى للعبد أن يشكر الله تعالى على يسير الطاعات ويحمده على يسير المعاصى التى لم تكن أكثر مما وقع له ، فيقول : الحمد لله الذى قسم لى شيئاً من الطاعات ، ولم يحرمنى منها بالكلية ، الحمد لله الذى لم يقدر على من المعاصى أكثر مما وقعت فيه ، ويحتاج صاحب هذا المقام إلى منزع دقيق بحيث لا يكون له رغبة فى المعاصى شىء من المعاصى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : المبادرة للشكر إذا غلا السعر

ويقولون : الحمد لله الذى لم يقدر علينا غلاء أعظم من هذا ، ثم بعد ذلك يكثرون من الاستغفار لأن الغلاء لا يقع بالعباد إلا بعد إغضاب خفى للحق جل وعلا وأقل ما هنالك استهانة العباد بنعم الله تعالى على معاصيه ، وقلة الاعتراف بأنهم لا يستحقون من تلك النعم ذرة واحدة لكثرة عصيانهم ، ومخالفاتهم .

وقد وقع غلاء على عهد سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه ، فأتوه يسألونه عن سبب ذلك فقال سببه الاستهانة بالقمح والدوس عليه بالأقدام انتهى .

وقد وقع فى زمن السلطان شعبان : أن الناس أكلوا الكلاب ، وحفروا على الأموات ، وأكلوهم ، وأكلوا أولادهم ، فصار الأب والأم يذبحون ولدهم ، ويأكلونه ؛ فقل (فكل) غلاء لم يصل إلى مثل ذلك ؛

فينبغى لنا الشكر عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أنهم لا يخرجون من بيتهم إلا بعد أن يقول أحدهم
بقلبه اللهم : إن كان أحد قد عزم على زيارتى وخرج
فى الطريق عوقنى له حتى يجيىء

وإن لم يكن خرج ، فعوقه فى بيته أو فى الطريق ، حتى أرجع من حاجتى هذه ، وذلك شفقة على أخيهم خوفا أن يتكلف أو يجيء إلى بيتهم فلا يجدهم لا سيما إن جاء من موضع بعيد بنية خالصة .

وهذا خلق غريب قل من يفعله الآن فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : فعل الأمور التى أخبر الحق تعالى أنه يحبها

وتقديمها على ما لم يرد فيه شيء بخصوصه فيأتونها من حيث كون الحق تعالى يحب ذلك الأمر لا لعلة أخرى .

فيحبون العفو عن عباده ولولا ذلك ما أحبوا العفو عنهم والعافية لأبدانهم من حيث كون الحق تعالى أخبر أنه يحب العفو عن عباده ، ولولا ذلك ما أحبوا العفو عنهم .

وهذا خلق غريب لم أجد له ذائقا من أهل عصرى إلا قليلا ، وأكثر الناس إنما يحب الطاعات لما فيها من الثواب ، أو لما فيها من مجالسة الحق جل وعلا ، وربما رجع ذلك لحظ النفس فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم مؤاخذة أحد بجنايته عليهم

بل يرجعون على نفوسهم باللوم ، ويقولون لو أننا وافقناه على طلبه منا من الأغراض المباحة ما أذانا ، ولا جنى علينا لا سيما إن كان من أذاهم يحضر مجالس الذكر أو مجالس الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه يجب إكرامه لله تعالى ، ثم لرسوله صلى الله عليه وسلم ، لمجالسته لربه تعالى ، أو نبيه صلى الله عليه وسلم .

وتأمل يا أخي لو أذاك شخص ممن يجالس السلطان ، لأكرمته غاية الإكرام ، وسامحته تعظيما له فالله تعالى ورسوله أحق بذلك ، وربما غفر الله تعالى لذلك الشخص الذى جالسه فى ذكره جميع ذنوبه ، وأرضى عنه جميع خصمائه ، وأذن بالحرب كل من أذاه ، فإن الذكر منشور الولاية أى مرسوم من الله تعالى بها كما قاله أبو على الدقاق رضى الله تعالى عنه ، فمن وفق لمجالس الذكر فقد أعطى ذلك المرسوم .

فإياك يا أخي أن تؤذى ذاكرا ثم إياك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم دعائهم على شريف أذاهم

بل يرون أذاه لهم من جملة المقادير الآتية إليهم من قبل الحق بلا واسطة فإما الرضى وإما الصبر لما أنزل من ذلك .

وكيف يدعوا مؤمن على بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا تخاصم الشرفاء مع بعضهم بعضا لا ينتصرون لأحد منهم على الآخر بل يتوجهون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : يارسول الله نسألك أن تصلح بين أولادك ، فعلم أن من أذى الشريف أو اشتكاه من بيوت الحكام ، فقد مرق من الأدب من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد جاءنى شرفاء يسألونى أن أتوجه الى الله تعالى فى ولدهم فقلت لهم : ليس لفقير توجه الى الله تعالى الا بواسطة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وكيف يقول أحدنا يا رسول الله سل ربك أن يميت ولدك فلان لأجل ولدك فلان والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : فرحهم بنفرة أبناء الدنيا عنهم

من المباشرين ، والتجار ، والأمراء ، ومشايخ العرب ، والفلاحين ، وكل من لا يرجى منه خير أخروى .

ويحبون كل من نفر مثل هؤلاء عنهم .

ويكرهون من يرغب مثل هؤلاء فيهم عملا بالاحتياط لأنفسهم لعجزهم عن القيام بواجب حق المستقيم من إخوانهم ، فكيف بالمعوجين منهم .

وكل فقير لا يعزم على تحمل بلاء كل من أراد التعرف به جميع عمره ، فلا ينبغى له التعرف به .

وفى الحديث « خص البلاء من عرفه الناس » يعنى من غير تعرف منه ، فكيف بمن يتعرف هو بهم .

فكل يوم لا يرى الفقير الصادق فيه أحد من أبناء الدنيا ، فذلك عنده يوم عيد .

وقد رأيت من ادعى الإنقطاع إلى الله تعالى ، وصار يعتب على الناس فى عدم ترددهم إليه ، وصلاتهم الجمعة عنده .

فقلت له : عتابك هذا يخالف دعواك لمحبة العزلة ، والإنقطاع إلى الله تعالى ، فما درى ما يقول .

فليمتحن كل من ادعى الصدق فى التوجه إلى الله تعالى نفسه فإن رآها تفرح إذا نسيها الناس ، حتى كأنهم لم يعرفوها ، وصاروا ينسبونها إلى عمل الزغل مثلا ، فليعلم أنه مخلص ، وأنه صادق فيه ، فليشكر الله تعالى وإلا ، فليعلم أنه كاذب مراء مخادع لله تعالى ولعباده .

وقد كان الفضيل بن عياض يقول لنفسه :

كنت فاسقا فى شبيبتك ، ثم صرت مرائيا فى كهولتك والله المرائى شر من الفاسق انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم الاهتزاز بكثرة المعتقدين فيهم

من الأمراء ، والأكابر ، والفلاحين ، ومشايخ العرب ، وغيرهم ، ولو صاروا ، يحلفون بحياة أحدهم فإن غاية أحدهم حسن الظن بالفقراء ، فهم مأجورون بذلك .

وقد يكون الفقير على خلاف ما ظنوه فيه من الصفات ، وفى كلام الإمام الشافعى رضى الله عنه : أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس انتهى .

لكى ينبغى لأحدهم الشكر لله تعالى إذ ستر عليهم نقايصهم بين الناس ، حتى صاروا يعتقدونهم ، ويحلفون بأسمائهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عـــدم اعتنائهم واهتمامهم بشيء من أمور الدنيا إلا بنية صالحة

وذلك كحضور مطبخ عرس أو وليمة أو إنشاء مركب أو غرس بستان أو بناء دار ونحو ذلك من ما هو من شأن الغافلين عن أمور الآخرة

فإن الدنيا ليس لها حكم إلا على أبنائها وأما من كشف له عن أهوال يوم القيامة ، فهو فى غفلة عن الاهتمام بشيء من أمور الدنيا .

وقد نزلت درجة من غرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانفكت فأرادوا أن يلصقوها بالطين ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : الأمر أسرع من ذلك انتهى وفى الحديث : « فإنى بعثت بخراب الدنيا ولم أبعث بعمارتها » رواه البيهقى وغيره .

وهذا الخلق قد صار غريبا ، حتى بلغنى أن بعض من ينسب إلى المشيخة اشتغل بطعام عرس ولده ، حتى عدوا عليه تفويته لثلاث صلوات .

فإياك يا أخى من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : اذا استوى طعام وليمة العرس أو غيره أن يأذنوا الناس فى أكله

ولا يتوقفون على نظام ، ولامد سماط ، ولا يدعون أحداً من الأكابر بل كل من حضر أكل ، وحمل لعياله ما شاء إلى أن يفرغ الطعام .

وقد أغفل هذا الخلق غالب الفقراء ، فدعوا الأكابر وحجروا على الفقراء ، وصار المسكين المعيل يحضر بإنائه يطلب لهم شيئاً ، فيمنعونه ، وربما دفعوه ، فوقع على وجهه ، وكسروا وعاءه ، وذلك خروج عن الطريق .

ورأيت شخصا يدعى للشيخة هجر نقيبه ، الذى أعطى فقيراً مأمونية أو شيئاً من أطايب الطعام .

وقال : هؤلاء لا يستحقون ذلك ، وإنما عملناه لوجوه الناس .

فقال النقيب : أنا قصدت بذلك عظم الأجر لكم .

فقال : أنا قلت لك إننى محتاج إلى أجر انتهى .

ونعوذ بالله تعالى من الوقوع فى مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كراهة من يرفعهم على أقرانهم

وزجرهم له ، وعدم اتخاذه صاحبا ، فإن فى تقريبه مفاسد كثيرة منها تكدير الأقران الذين لم يفطموا على يد شيخ ، ومنها تعاطى أسباب شهرته بالصلاح ، حتى تكثر اتباعه ، فينفيه الولاة بحكم قانونهم . ومنها ميل النفس سراً إلى ذلك ، ومنها عماه عن عيوب نفسه بكثرة مدح الناس له ، واعتقادهم فيه ، حتى يهلك ولا يشعر ، وربما قال فى نفسه : لولا أنى عند الله من الصالحين ما أكب الناس على اعتقادى هذا الإنكباب ، وهذا شىء من الله تعالى ما هو منك ، ولا أنت تعاطيت أسبابه ، وغير ذلك من المفاسد التى ذكرناها فى كتاب المنن الكبرى .

وهذا خلق غريب قل من يتنبه له من فقراء عصرنا .

وممن أدركته عليه أخى الشيخ أفضل الدين كان إذا ذمه أحد ، وأنكر عليه ونفر الناس عنه يقول :

والله إن قلب هذا نير الذى عرف حالى الذى أنا منوط عليه .

وسبقه إلى مثل ذلك مالك بن دينار ، والفضيل بن عياض كانا يقولان :

والله لو علم الناس منا ما نفعله فى بيوتنا لرجمونا ، ولم يجالسونا كل ذلك سدا لباب الشهره عنهم ، وإلا فهم منزهون عن ما أشاروا إليه ، فافهم .

وقد قال شخص لمالك بن دينار :

رأيتك الليلة ، وأنت تتبختر فى الجنة .

فقال : أما وجد إبليس أحد يسخر به غيرى ، وغيرك .

وكان كثيراً ما يقول : والله لو أن الناس يشمون رائحة ذنوبى كما أشمها ما استطاع أحد أن يجلس إلى لنتن ريحى رضى الله عنه .

فاعلم ذلك واهضم نفسك ما استطعت والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كراهة سماعهم للغناء والآلات المطربة

خوفا أن يتبعهم الناس على ذلك من غير ذوق مشاهدهم فى ذلك ، فيهلكون ، ويصير وزر ذلك عليهم ، كما عليه بعض جماعة ، ممن يدعى الفقر فى هذا الزمان

وكان أخى الشيخ أفضل الدين يقول :

من ادعى أن سماع الآلات المطربة لا تورث عنده غفلة عن الله تعالى ، فأغضبوه على غفلته ، فإن ملك نفسه عند الغضب ، فهو يملك نفسه عند سماع الآلات انتهى

وبالجملة فلا يسمع آلات اللهو والغناء فى هذا الزمان إلا كل مطموس القلب عن مصالح الدنيا والآخرة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم المبادرة إلى الإنكار على أحد من الفقراء بحكم العموم والإشاعة

فإنه ما من طائفة من طوائف الفقراء من الأحمدية ، والبرهانية والمطاوعة مثلا إلا وفيهم الجيد ، والردىء ، فالحكم على الجميع بما تراه وقع من واحد منهم جور ، وتهور في الدين ، وإن كان ولا بد لك يا أخي من الإنكار ، فخالط هذه الطوايف ومهما تراه منهم يخالف الشريعة فأنكره علي فاعله ، ولا تقس بقية خرقته عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم عتابهم لأحد فى عدم التردد إليهم

لأنه نوع من الكبر إلا لغرض شرعى ، وهذا يقع فيه كثير من المتمشيخين بغير إذن من أشياخهم ، فترى أحدهم لا يتردد إلى أحد من إخوانه ويعتب عليهم إذا لم يترددوا إليه ، ولولا ما عنده من الكبر ما تجرأ على النطق بمثل ذلك ، كأنه يقول :

أنا كبير وأنتم صغار

فليتنبه الغافل لمثل ذلك ولا يعاتب أحدا فى وجهه ، ولا يقول : أوحشنا فلان ، ولنا زمان ما رأيناه ، فإنه إذا سمع بذلك ربما تكلف المجىء وجاء ، وما كان فى عزمه أن يجىء ، وربما كان وراءه حاجة أهم من مجيئه إلى سيدى الشيخ الذى يأكل من قتة محلولة علي إسم دينه وصلاحه .

فإياك يا أخى إذا عملت شيخا أن تعتب على أحد فى عدم زيارته لك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن لا يتكدروا من تلميذهم إذا تركهم .

ومضى إلى الاشتغال بالعلم فى مثل جامع الأزهر بل يفرحون له لأنه مشى على قواعد الصوفية ، وهو تفقههم قبل طلب الطريق .

فمن أنكر على تلميذه الاشتغال بالعلم ، فهو مبتدع كذاب لم يشم رائحة الإخلاص ، ولو أن تلميذه رأى عنده من علم الشريعة ما يكفيه ما فارقه ، واللوم عليه الذى عمل شيخا من غير تبحر فى الشريعة ، وأحوج مريديه أن يذهبوا إلى غيره

وكذلك ينبغى الفقيه إذا رأى صاحبه فى الفقه اجتمع بأحد من مشايخ الصوفية أن لا ينكر عليه إلا إذا رآه وقع فى بدعة .

وهذا خلق غريب لأن غالب المتمشيخين يكرهون من ينتقل عنهم إلى غيرهم ، حتى ربما قالوا : إن فلانا ارتد عن دينه ، وذلك يؤدى إلى الكفر والعياذ بالله تعالى ؛ وكيف يكون مرتدا من يتعلم علوم الشريعة أو يجلس فى مجالس الذكر ، ويجالس ربه عز وجل .

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

لا يجوز المبادرة إلى الإنكار على الصوفية إلا بعد أن يشاهد منهم أمرا يخالف ظاهر الشريعة .

قال : وما بلغنا عن أحد منهم أنه نهى أحدا عن الوضوء أو الصلاة مثلا أبدا إنما يتكلمون فى أمور دقيقة عن الأفهام ، فأحسن أحوالهم فيها الوقف عنهم ، ووكول أمرهم إلى الله عز وجل انتهى .

فإياك يا أخى ثم إياك من الوقوع فى مثل ذلك ، وكل من جاء يجىء ، وكل من راح يروح .

وقد ذكر النووى فى أدب العالم من مقدمة شرح المهذب ما نصه :

ومن أهم ما يؤمر به المعلم أن لا يتأذى ممن يقرأ عليه إذا قرأ على غيره ، وهذه مصيبة يبتلى بها جهلة المعلمين لغباوتهم وفساد نيتهم ، وهو من الدلائل الصريحة على عدم إرادتهم بالتعليم وجه الله تعالى انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : حفظهم لمن أكلوا عنده خبزا

أو ذاقوا عنده ملحا أو شربوا عنده ماءاً ، ولا يخونونه ، ولو بالغيب حفظا للخبز والملح .

وهذا الخلق من أغرب الغرايب فى الفقراء ، فربما أكل الواحد عند صاحبه أردب من العيش ، ثم إذا وقع بينهما تنافر يصير كل واحد يحط فى الآخر لا بكيل ولا بميزان، وقد كان هذا من جملة أخلاق اللصوص من أيام السلطان قايتباى رحمه الله تعالى ، فحكى لى سيدى على الخواص :

أن الشاطر حمور كبير اللصوص دخل على تاجر كبير بمصر ، وهو نائم مع سريته على السرير ، ففتح عينيه فناطرب فقال له حمور : لا تخف ياخواجا على نفسك فإن الصبيان إنما يطلبون منك الفداء فقط فقال : كم أنتم فقال : عشرة أنفس ، فأخرج لهم ألف دينار لكل واحد منهم مائة دينار ، وزاد الشاطر من ورائهم أربعمائة دينار فقال له حمور : عداك العيب ياخواجا ما كان أملنا فيك هذا كله ، فوضع كل واحد نصيبه فى عبه ، ثم شرعوا فى الخروج فرأى واحد منهم حقا أبيض يضىء على رف البيت ، فأخذه ووضعه فى عبه ثم حدثته نفسه وهو خارج فى الجاز البيت أنه يفتحه وينظر مافيه ، فرأى فيه شيئا أبيض ناعما فقال أن هذا ملح فسمع بذلك الشاطر حمور فقال إن هذا ملح فسمع بذلك الشاطر حمور فقال : ردوا مامعكم حيث ماذاق صاحبنا الملح عند هذا الرجل ، فما بقى ينظر منا سوءاً مدة حياتنا ، فردوا المال كله ، فحلف عليهم أن يأخذوا منها مائة دينار ، فأبوا انتهى .

فانظر ياأخى أحوال زمانك ، ولا تقتد بأهل الخارجين عن الاستقامة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : شدة زجرهم لمن ينقل إليهم نقائص الناس وماقاله الناس فيهم

فإنه رسول أبليس ، ولم يزل الناس يقعون فى حق بعضهم بعضا من ورائهم ، حتى السلطان ، ثم إذا واجهوهم مدحوهم ، وعظموهم ، فشىء لاتصح سلامة السلطان منه من ورائه ، فكيف يطلبون منه .

وكان مالك بن دينار إذا قال له شخص إن فلانا يذكرك بسوء .

يقول له : أما وجد أبليس أحدا أحقر فى عينيه منك ، حتى استعملك فى هذه القاذورة ، ثم يزجره ، ويقول :

لاتعد تأتينى أبدا بشىء من ذلك .

وهذا الخلق غريب قل من يعمل به من الفقراء بل رأيت بعضهم يستجلب من الداخل عليه مثل ذلك ويقول :

إيش أخبار الناس اليوم ، فيقول : إنه وقع لفلان كذا مع قاضى العسكر ، ووقع لفلان كذا مع الدفتدار ، ووقع لفلان كذا مع أهل جامع الأزهر ، وكبسوا اليوم فلان وذكروا عن فلان أنه يعمل الزغل ، ايقول له شيخ الزاوية :

هيه ماأنت الا حكيت لى ، ثم يصير يشخص نقائص الناس فى ذهنه ، ويزدريهم بقلبه ، ويقع فى أعظم الذنوب بعد الشرك بالله تعالى لأن فيه إضرار الناس،حتى لو أراد أن يجعل من حكى عنه النقائص مثل ما كان قبل أن يحكى له لايقدر بل يحكم عليه الازدراء له وفى الحديث الصحيح : لايدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر .

فقال رجل : يارسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا .

فقال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى جميل يحب الجمال .

وفى رواية : (إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده إنما الكبر بطر الحق وغمط الناس .

قال العلماء : بطر الحق رده وغمط الناس استحقارهم وازدراؤهم .

فيكفى شيخ الزاوية من الإثم أنه يصير بسماع نقائص الناس يرى نفسه أحسن حالا منهم ، فيستحق بذلك اللعنة ، ودخول النار كما وقع لإبليس فى قوله : « أنا خير منه » .

فاعلم ذلك وإياك وتقريب من ينقل إليك أخبار الناس ، وتواريخهم ، فإنه عدو فى صورة صديق والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم وتأليفهم بين المتشاحنين معا

أو بين من وقع فى حق أحد من العلماء ، والصالحين ، فيقولون للعالم أو الصالح : أنتم بحمد الله تعالى ، كالبحر تحملون الرمم والجيف ، وإن لم تحملوا أنتم مثل ذلك ، فمن يحمله ، ويقولون للفاسق الذى وقع فى حق من ذكر : ياولدى إن لحوم الأولياء والعلماء سم ، وإنا خائفون عليك من المقت ، ولا يقولون قط للعالم أو الصالح : مالك ولفلان تشاحنه أواصطلح أنت وإياه ،فإن ذلك يؤذن بأنه مشاحن يقع فى عرض الناس كما يقع فيه الفاسق،وفيه ازدراء للعالم أو الصالح بين الناس ، وربما سمع بعض الساذجين كلام من أمره بالصلح مع الفاسق ، فيكشف رأسه له ، ويصالحه ، فيخالف قول الامام الشافعى :

لاتبدأ بالصلح من خاصمك بغير حق ، فتذل نفسك فى غير محل ، وتكبر نفسه بغير حق انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم موافقتهم لغرض صاحبهم فيما يضره

وصبرهم على جفاه لأجل ذلك فإن كان داؤه يحب القيام له ، ولو لم يقوموا له لمزق أعراضهم ، فيصبرون على تمزق أعراضهم ويسامحونه بما وقع فيه من عرضهم خوفا عليه أن يتبوأ مقعده من النار ، اللهم إلا أن يترتب على عدم القيام له مفسدة هي أعظم من مفسدة قيامنا له ، فنقوم له مشيا على قواعد الشريعة ، ثم لنسأل الله عز وجل أن لايؤاخذه بذلك ، وأن يكشف حجابه حتى يرى نفسه أحقر خلق الله تعالى ، وأنه لايستحق القيام له من أحد من العوام فضلا عن غيرهم بل يصير يتكدر كلما دخل مجلسا وقام له منهم أحد .

فإياك ياأخي أن تبادر إلى الانكار على أحد من العلماء إذ رأيته قد قام لظالم أو ذي لسان يتقى كالشعراء أو نحوهم فإن ذلك القيام إنما هو لغرض صحيح لاتعظيما له من حيث كونه من أبناء الدنيا ، وربما يقومون لذلك الظالم لكونهم رأوه من أهل الفضل عليهم في الدين ، كما هو الغالب عليهم ، فإنهم يرون نفوسهم من أفسق الناس ، وإن ذنوب الناس كلهم مغفورة بخلاف ذنوبهم ، فإنها باقية إلى يوم القيامة هضما لنفوسهم لاسوء ظن بالله عز وجل كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

الباب السابع

فى جملة أخرى من الأخلاق

فمن أخلاقهم : عدم المبادرة إلى تزكية الولاة بالكتابة فى المحاضر إلا إن اضطروا إلى مثل ذلك بطريقه الشرعى

إذ لايبادر إلى الكتابة إلى مثل ذلك إلا من خبر الناس ، ونظر إلى عيوبهم ومساويهم ، والفقراء ليس لهم خلطة بالناس فى العادة ، ولا نظر لهم إلى مساويهم لأنهم يلحظونهم بعين الوداد والتعظيم ، فلايكادون يرون فيهم عيبا ، ولا فعلا مفسقا،وذلك يخالف الحال الغالب على الناس اليوم .

وقد صحب رجل سيدى إبراهيم بن أدهم فلما أراد فراقه قال له : إنك لم تلبهنى على شىء من عيوبى مدة صحبتك .

فقال : ياأخى إنى ألحظ إخوانى بعين التعظيم ، والوداد ، فلا أرى فيهم عيبا ، فاسأل عن ذلك غيرى انتهى .

فإن اضطرك الأمر ياأخى إلى تزكية أحد من الولاة أو غيرهم فاستخر ربك فى ذلك ثم زكه بطريقه الشرعى والحمدلله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إذا كان لهم خراج أن يوصوا الجابي أن يرفق بالفلاحين ويطالبهم بسياسة من غير عنف ، فإن العنف إنما يكون من جماعة جبابرة العمال ، وأما الفقراء فلا يليق ذلك بهم .

وإذا عملوا للجابي ضيافة بطيب نفوسهم ، فالياً كل منها ، وإلا تركها ، وأكل من غلة الوقف بالمعروف ، حتى يرجع ، ثم إن في أكل جابي الفقراء من ضيافة الفلاح ، تضييع لمال الوقف غالباً ، فكل من أكل طعامه يستحي أن يطالبه بحكم الطبع ، فليحذر الجابي من مثل ذلك .

وكان عندي جابي اسمه الشيخ إبراهيم السنه وكان على قدم العفة عن طعام الفلاحين والولاة فكان يأخذ معه من مصر ما يأكله ، وإن فرغ اشترى له ما يأكله ، ولا يأكل لفلاح طعاما أبداً ، وهو نادر في جماعة الفقراء .

وقد بلغني من شيخ من أولاد مشايخ مصر أنه كان ينزل معه بجنازير للفلاحين فينجزر كل فلاح عجز عن الخراج ، ويمشيه معه في الحر حافيا اليومين ، والثلاثة ، وإذا جاء الفلاح بطعام قليل الدسم أو بعسل ردىء يصب الطعام أو العسل على وجهه ورأسه ، ويصير الذباب يمص عليه ، وهذا أمر لا يجوز فعله ، فليحذر الفقير أو المسلم أن يفعل ذلك مع من له عليه خراج ، فإنه خروج من حدود الشريعة ، ولو أن جابي الفقراء كان عنده سياسة لهم لقامت سياسته مقام الزنجير والحبس ، وغير ذلك وحماه ذلك من الوقوع في الإثم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم حسن سياستهم لفقراء الزاوية إذا تركوا قراءة الأوراد والعبادات واتخذوها مقيلا ومراحا

وطلبوا ما نارم مما يقوم بهم من الخبز والطعام، فيسوسون الرجال بحسن الكلام، والترغيب فى مجالسة الله عز وجل فى الأوراد ، والأطفال بقطع خبزهم ، وطعامهم ، حتى يجوعوا ، فيحضروا مجالس الأوراد ، ويشتغلوا بالعبادة لأجل أن يصرف لهم الطعام والخبز .

وذلك نظير من يعبد الله تعالى لأجل الثواب الأخروى على حد سواء ، وماأقبحها من خصلة تقع ممن طلعت لحيته من فقراء الزاوية ، فيحضر الحزب خوفا من قطع خبزه لا محبة فى الخير ، ومجالسة الله عز وجل ، ومن فعل مثل ذلك ، فهو أغلظ حجابا من الحمار ، حيث احتاج فى جذبه إلى مجالسة ربه لقطع خبزه[1] .

ثم إذا قطع الشيخ خبز كبير أو صغير للتأديب ، فليس لكبراء الزاوية أن يعترضوا على الشيخ فى ذلك ، فإنه سعى فى الفساد ، والله لا يحب المفسدين ، فإن خبز الزاوية ، وطعامها بالأصالة إنما جعل للمقبلين على عبادة ربهم جل وعلا ، فالمدبر لاحق له فى خبز الزاويه ، وطعامها ، ومايأكله من ذلك حرام لكن ينبغى للشيخ أن يعطى ما توفر من خبز المريدين المقبلين فى الزاوية ، ويؤخره عنده على اسم من يحدث من المجاورين المقيمين .

---

(١) عن الإمام الجنيد رضى الله عنه قال : من النذالة أن يأكل الرجل بدينه .
وكان رضى الله عنه يقول : بصفاء المطعم والملبس والمسكن يصلح الأمر كله .
وقال السرى السقطى رضى الله عنه : أكلهم أكل المرضى ونومهم نوم الغرق .
وكان يقول : آه على لقمة ليس لله على فيها تبعة ، ولا لمخلوق على فيها منة .

فى الزواية إلا أن يكون ذلك لجماعة معينين فى كتاب الوقف وذلك يكون واجب الناظر إن كان له الإدخال والإخراج والتغيير والتبديل .

فاعلموا ذلك أيها الاخوان ، وكونوا أعوانا لكم لإخوانكم على الأدب دون الغضب مع أحد بالباطل ، يرجع وبال ذلك عليكم فى دينكم ، وقد نصحتكم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم: إذا ضيق الله تعالى على أحدهم الرزق الذى ينفق منه على إخوانه أن يكتسب لهم بالحرفة والزراعة وسؤال السلطان

فإن الفقير كالأمير إن لم ينفق على غلمانه فروا منه إلى غيره ممن يقوم بطاعمهم .
فعلم أنه لا اعتراض على من سافر إلى الروم مثلا فى طلب رزقه أو جوالى ، لينفق على جماعته ، فإن فى الحديث (إن كان أحدكم ولا بد سائلا فليسأل الصالحين أو ذا سلطان) انتهى .

فأما الصالحون الآن فى العرب فقد تودع من صبرهم لإخوانهم غالبا أو مقاسمتهم فى ما بأيديهم بل كل واحد يقول : نفسى نفسى ، فلا هم يقاسمون إخوانهم ، ولا هم يسكتون عن الاعتراض عليهم، فما بقى للفقراء ملجأ إلا باب السلطان نصره الله تعالى ، لكونه يعطى ، ولا يمن بما يعطى كالصالحين الكرام على حد سواء ، ولا يقال الواجب على الفقير إنما هو الاشتغال بالعبادة ، والاقبال على الله تعالى ، حتى تصير الدنيا تتبعه ، فإن ذلك أمر قد تودع منه مابقيت الدنيا لقلة صبر الناس اليوم ، وقلة صدقهم فى طلب الطريق بخلاف السلف الصالح كان أحدهم يشتغل بالله تعالى ، حتى تأتيه الدنيا ، وهى راغمة فإن شاء أخذ منها كفايته ، وإن شاء ردها .

فينبغى لكل من ليس عنده صبر الآن على ضيق المعيشة أن لا يسأل الناس إلا بعد عجزه عن عمل الحرف والصنايع ، فإن تحصيل القوت مقدم على نوافل العبادات فى كل زمان .

وإنما ذم أشياخنا من يسافر إلى الروم مثلا فى طلب الرزق فتحا لباب رفع الهمة لأصحابهم ، فإن علو الهمة من الإيمان .

وقد يكون الشيخ الذى سافر من مصر إلى الروم مثلا إنما يسافر بعد اطلاعه من طريق كشفه على ماقسمه الله له من الرزق فى الروم ، فسافر إليه على كشف ، وبصيرة وفى الحديث (ومن يستعفف يعفه الله تعالى .

فارفعوا هممكم أيها الأخوان عن طلب ما زاد على ضروراتكم فإنكم لو ترفعتم عن جمع المال للإستمتاع به فى المأكل والملبس وسعيتم لكسب الخيرات على وجه الإخلاص لا غير ولم تسيئوا فى حق أهل الحرف جهدكم ، فإنه لولا استغناؤكم بوقف أو قناعة لكنتم أشد سعيا فى الدنيا منهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا صحب أحد من أشياخ الطريق أحداً من الأمراء فمن الأدب عدم مزاحمتهم لذلك الشيخ فى صحبة ذلك الأمير

بل يحسنوا إعتقاد الأمير فى ذلك الشيخ ، وإن دعاهم الأمير إلى صحبته تعللوا بالعلل المقبولة ، واستخفوا خوفا من تكدير ذلك الجزء البشرى الذى فى الشيخ إذا نقص إقبال ذلك الأمير عليه ، وصار يقبل على أقرانه لاسيما إن كان الأقران حديثى عهد بالطريق ، وذلك الشيخ فى رتبة أشياخهم .

وقد فعلت أنا مثل ذلك لما عزم الباشاة اسكندر على زيارتى بعد زيارة الشيخ سليمان الخضيرى ، حتى لا أشاركه فى نزول الباشاه له ، فوعدته بأنى أطلع له ، وأسلم عليه فى القلعه ، فرضى منى بذلك ، حتى تناسى العهد ، وكان ذلك الوعد منى صوابا من وجوه منها .

أن الواسطة لما سأله الباشاه المذكور عن الصلحاء والزهاد ايزورهم ذكرنى من جملتهم فما كان الباشاه يزورنى إلا لكونى صالحا زاهدا ، وأنا أعلم من نفسى ضد ذلك الصلاح والزهد بخلاف الشيخ سليمان الخضيرى فسح الله تعالى فى أجله ، فإنه أسن منى بنحو خمسين سنه ، وأكثر عبادة منى بيقين ، وإن لم يكن هذا الشيخ صالحا ، فما بقى فى مصر صالح .

ثم الذى ينبغى للفقير إذا آثر أصحابه بصحبة ذلك الأمير أن لا يكون عنده حزن ، ولا تأسف فى الباطن على ذلك بل يرى الفضل لله تعالى عليه الذى أبعده عنه ، ثم يسأل الله تعالى لذلك الشيخ الذى صحبه أن يحميه من الآفات ، ولم تكن المزاحمة على صحبة الأمراء فى أحد من أشياخ الطريق الذين أدركناهم فى النصف الأول من القرن العاشر إنما حدث ذلك فيمن بعدهم ، وهو عنوان على عدم فطامهم عن محبة الدنيا فصار الشيخ إذا اجتمع بأمير واعتقد فيه يود أنه لا يجتمع على غيره ، وإنما تليق المزاحمة على العلماء الذين يرشدون الطالب إلى مايقربه إلى الله تعالى ، وأما الأمراء فإنهم

يبعدون الفقير عن حضرة الله تعالى لاسيما إن أكل من طعامهم وأخذ من مالهم .

وقد كان الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى يقول :

لولا علمي بسيدي رسول الله ﷺ يكره اجتماعي على الأمراء ، والملوك لاجتمعت بهم ، وقد اجتمعت به في اليقظة خمسا وسبعين مرة انتهى .

وبلغنا عن سيدي محمد بن زين النحراوي رحمه الله تعالى أنه كان يرى النبي ﷺ كثيرا ، فأخذه أهل النحارية في شفاعة إلى حاكم البلد وأجلسه على بساطه فانقطعت عنه الرؤيه ، ثم إذ رأى النبي ﷺ ، وهو يمر بعيدا عنه ، فتبعه ، وقال : يا رسول الله ما ذنبي ؟ فقال : تجلس على بساط الظالمين ، وتطلب رؤيتي لاسبيل إلى ذلك ، فلم ير رسول الله ﷺ بعد ذلك إلى أن مات انتهى .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان ولا تميلوا إلى القرب من الأمراء ، فإنه سم قاتل والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن يأمروا إخوانهم أن لا يجلس أحد منهم عند شيخ من أشياخ الطريق إلا على طهارة من الحدث الظاهر والباطن

فإن حضرة الفقراء هى حضرة الحق تعالى لغلبة مشاهدتهم للحق جل وعلا وربما نزلت علي أهل المجلس الأمداد الالهيه ، فلا تجد محلا يصلح لنزولها فيه ، فتصير واقفه بين السماء والأرض ، حتى تجد أحدا خاليا من الحدث الظاهر والباطن .

فإن حكم الأمداد كالمسك وحكم الحدث الظاهر والباطن كالقذر فإياكم أيها الإخوان من الجلوس عند الأشياخ على حدث ، وأصلحوا قلوبكم ، وطهروها كما تطهروا أجسامكم للصلاة ، فإن نفحات الحق جل وعلا لعباده لا تنقطع فى الليل والنهار .

وقد رأيت سيدى الشيخ على النبتيتى رحمه الله تعالى لم تزل يده ممدودة إن جلس أو مشى أو ركب فقيل له فى ذلك .

فقال : إن أمداد الحق تعالى لم تزل نازلة فى الليل والنهار ، فأنا أتعرض لأن ينالنى منها شىء انتهى .

فعلم أن من جالس شيخا على حدث ظاهر أو باطن حرم مدده والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم : أن يزجروا كل من رغب أحدا من الأمراء فى زيارتهم ويحبوا كل من نفرهم عنهم ، ثم إن وقع أن أحدا من الأمراء زارهم باستجلاب أحد من أصحابهم أو غيره .

قالوا له : يا أمير نحن لانستحق زيارة مثلك ولكن إن كان لك ولا بد لك من زيارة الصالحين فزر فلانا وفلانا من الصالحين ، ويذكرون له من فى بلدهم أو إقليمهم من أقرانهم ، ويقولون له من دلك علينا قد غشك وغشنا فالله تعالى يغفر لنا وله .

وقد فعلت أنا مثل ذلك مع الدفاتر والصناجق الذين يزورونى ، فبحمد الله تعالى انقطعوا عنى ، وصاروا يزورون أقرانى إلى وقتى هذا .

ولم أجد لهذا الخلق فاعلا فى مصر إلا القليل كسيدى على الخواص ، والشيخ ناصر الدين اللقانى ، والشيخ شهاب الدين بن الشلبى رضى الله تعالى عنهم فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم: أن يتنزلوا لعقل نسائهم فإذا غارت زوجتهم من كلامهم لجاريتهم أو التبسم لها مثلا فمن العقل ترك ذلك وإلا خربت الدار

وضاعت مصالحها وقد فعلت أنا مثل ذلك مع أمتي وزوجتي ، وذلك أني شممت من فم الجارية لما طأطأت تصب على يدي الماء رائحة ثوم أو بصل فقلت لها : اغسلي فمك من ذلك فقالت زوجتي : لأي شيء تقول لها اغسلي فمك ، فمن ذلك الوقت ، وهي عندي كالحرة الاجنبيه مراعاة لخاطر زوجتي المذكورة ، ولو أنني لم أوافقها لربما غلبت عليها الغيرة ، حتى ظن الناس أنه لولا رأتني أقبلها مثلا ما غارت مني .

فاتبعني يا أخي في ذلك ولا تراع ناموسك وتقول أنا شيخ مشايخ وكيف يظن بي سوء ، فتخرب دارك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن يرشدوا فقراء الزاويه إلى كمال الأدب
في المشي وفتح الخزائن بلا صوت

فيفعلوا ذلك بالهوينا ولا يصوتوا بالدك على الأرض بأقدامهم ولا يلقلقوا الضبة بالمفتاح بالقوة ، فإن ذلك يشوش على قلوب الفقراء حال جمعية قلوبهم لاسيما في وقت إحرامهم بالصلاة أو قراءة الأوراد .

وممن إدركته يزجر أصحابه عن التصويت بأقدامهم إذا مشوا في الزاوية الشيخ تاج الدين الذاكر رحمه الله ، ثم إنه فرش الزاوية كلها بلبابيد سود ، حتى لا يسمع وقع الأقدام من أحد منهم ، وهذا من محاسن آداب الفقراء فإن أصعب ما على الفقير إذا كان في جمعية قلب مع ربه تعالى أن يسمع صوتا يفرقه عنه ، وكثيرا ما أحس بتعب في كبدي وقلبي إذا دق أحد من الجهلة على الباب فاحذروا أيها الفقراء أن تفعلوا مثل ذلك مع أحد من الفقراء والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا جاءهم أحد يطلب على يدهم الطريق أن يعلموه عما يستقبله فيهم من أنواع الإمتحان

فإن كل مدع ممتحن بخلاف من سبق له من الله تعالى المحبة ، فإنه لا يحتاج إلى امتحان إذ لا يمتحن إلا المحب لا المحبوب .

وقد جاءني أخونا الشيخ محمد الغوى يطلب طريق الخواص .

فقلت له : أنت الآن فى راحة وخير بتأديتك الفرض ، وعملك ما تقدر عليه من الطاعات ، فإن طريق الخواص لابد لك فيها من الجذام والبرص ، وتحويل النعم مع قساوة قلوب العباد عليك ، ونحو ذلك .

فعرض ذلك على نفسه ، فرجع عما كان طلبه .

فإن قلت : إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد ابتلوا مع أنهم محبوبون بالاختصاص الالهى فلا يحتاجون إلى امتحان قلنا كل نبي محب من وجه ومحبوب من وجه ففيه جزء بشرى يطلب الحق تعالى ، ومنه ابتلى اختبارا له كما قال تعالى فى السيد أيوب عليه الصلاة والسلام بعد ابتلائه « إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب[1] » فى قول الحق سبحانه إنا وجدناه صابرا رائحة من الاختبار بالنظر لمقام النبوة[2] .

وسمعت سيدي على الخواص رحمه الله يقول : فى ابتلاء الأنبياء أمور كثيرة : منها

---

(١) سورة ص آية : ٤٤

(٢) ومن ذلك المقام أيضا سيدنا إبراهيم عليه السلام حيث ابتلى عدة مرات منها : يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الصافات : (وإن من شيعته لإبراهيم ، إذ جاء ربه بقلب سليم ، إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ، أئفكا آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العالمين ، فنظر نظرة فى النجوم ، فقال إنى سقيم ، فتولوا عنه مدبرين ، فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ، مالكم لا تنطقون ، فراغ عليهم ضربا باليمين ، فأقبلوا إليه يزفون ، قال أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون ، قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ، فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين) سورة الصافات الآيات ٨٣ ـ ٩٨ .

أختبار أحدهم من حيث الجزء البشرى المشار إليه بحديث (إنما أنا بشر مثلكم أغضب كما يغضب البشر ، وأرضى كما يرضى البشر) لا الوحي .

ومنها اقتداء قومهم بهم فى الصبر ، والتجلد .

لقد استمر سيدنا إبراهيم عليه السلام ، يدعو قومه إلى عبادة الله ، ويقيم لهم الحجة تلو الحجة ، على فساد ما هم عليه من العبادة .

لقد أنكر عليهم عبادة الاوثان فقال :

(ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) أى معتكفون عندها و خاضعون لها ، فما كان ردهم عليه إلا أنهم فعلوا ذلك تقليدا لآبائهم وأجدادهم ، (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) فقال لهم : (لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) كما فى قوله تعالى : (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ، أئفكا آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العالمين) .

قال قتادة : (فما ظنكم أنه فاعل بكم اذا لقيتموه وقد عبدتم غيره) .

وسألهم سيدنا إبراهيم عليه السلام عن آلهتهم هل يسمعونهم إذا دعوهم أو ينفعونهم أو يضرونهم فكانت إجابتهم أنهم : وجدوا آباءهم كذلك يفعلون .

ويظهر لنا من هذا أنهم سلموا له ، أنها لا تسمع داعيا ولا تنفع ولا تضر ، وأن عبادتهم محض تقليد لاغير ، ولهذا قال لهم :

(أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين) .

وهذا برهان قاطع على بطلان إلاهية ما ادعوه من الأصنام ، لأنه تبرأ منها فلو كانت تضر لضرته .

واستمروا فى عنادهم فقالوا :

(أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين !

فرد عليهم قائلا : بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين) يعنى بل أقول لكم ذلك جادا محقا ، وإنما إلاهكم الله الذى لا إله إلا هو ربكم ورب كل شيء ، وخالق السموات والأرض ، فهو المستحق للعبادة وحده لاشريك له ، وأنا على ذلك من الشاهدين :

كل ذلك : أبان لسيدنا إبراهيم عليه السلام ، أنه لا ينفع معهم حجة ولا برهان ، وأن عقلهم لا يزن الأمور بميزان المنطق الصحيح ، فعمد عليه السلام ، إلى برهان عملى قام به

ومنها رفع درجاتهم اللائقة بهم انتهى .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان ولا تدخلوا فى عهد شيخ إلا إن وطنتم نفوسكم على تحمل البلايا والمحن فإن الله تعالى يحب من عباده الراضى بما أعطاه ، حتى يكون الحق تعالى هو الذى يبتديه بالمقامات ، والأرزاق المحسوسة ، والمعنويه والحمد لله رب العالمين .

فى جد جاد ، وتغلب غالب ، لايثنيه عنه سلطانهم ، فترك القوم ينصرفون إلى عيد من أعيادهم معتذرا عن الذهاب معهم بقوله : إنى سقيم .

وبعد أن خرجوا راغ إلى آلهتهم ، أى ذهب إليها مسرعا مستخفيا ، فقال لها على سبيل التهكم والإزدراء ، وقد وجد أن قومه قد وضعوا بين أيديها أنواعا من الأطعمة قربانا لها فقال :

(ألا تأكلون مالكم لاتنطقون ؟ فراغ عليهم ضربا باليمين) .

لقد حطم سيدنا إبراهيم عليه السلام الأصنام فجعلها أجذاذا ، أى حطاما كسرها كلها، ولم يترك منها سوى كبير هذه الأصنام .

فلما رجع القوم من عيدهم ، ورأوا ماحل بآلهتهم قالوا :

(من فعل هذا بآلهتنا ، إنه لمن الضالين .

قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم :

ـ أى يذكرها بالعيب والتنقص والازدراء بها ، فلابد أن يكون هو الفاعل لهذا ـ

قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون

ـ نادوا بأن يأتوا به على أعين الناس ليشهدوا عليه بمقالته ، ويروا مايحل به من شديد العقاب .

ولاشك أن اجتماع القوم فى صعيد واحد كانت أمنية لسيدنا إبراهيم عليه السلام ليقيم لهم الحجة جميعا على بطلان مايعتقدون ويريهم البرهان على فساد ماهم عليه عاكفون .

المحاكمة : تقدم سيدنا إبراهيم عليه السلام للمحاكمة وهنا شخصت الأبصار لسماع الجواب والنقاش وعرضت عليه تلك الأسئلة ! (أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم ؟ !) .

ولكن سيدنا إبراهيم عليه السلام كان حكيما ذكيا صاحب عقل ومنطق سار بهم فى الجدال إلى ناحية أخرى ليبلغ رسالته مهما كانت النتائج ، وبرهن بطريق الحكمة إلى جواب لم يقصدوه ، ليلزمهم الحجة لعلهم يرجعون إلى صوابهم فقال :

. . . . . .

(بل فعله كبيرهم هذا . فاسألوهم إن كانوا ينطقون) .

صفعهم بهذه الحجة الدامغة ، التى نبهتهم من غفلتهم ، وأيقظتهم من غفوتهم فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، وقالوا :

(إنكم أنتم الظالمون) .

لقد تركتموها لاحافظ لها ولا رقيب عندها ، فحطمها من لايؤمن بها ، ثم أدركتهم الحيرة وعقدت ألسنتهم فأطرقوا مفكرين ، ثم توجهوا بالكلام مع إبراهيم :

(لقد علمت ماهؤلاء ينطقون)

لقد عرفت ياإبراهيم أن هذه الأصنام لاترد سؤالا ولا تسمع كلاما ، فكيف تأمرنا بسؤالها وهى حجارة صماء جامدة ؟

ولما أقروا بعجز الآلهة ، وقصورها عن معرفة مايجرى حولها ، وجردوها من القدرة على دفع العدوان ، ورد كيد المعتدين، حينئذ ظهرت حجة سيدنا إبراهيم عليه السلام واضحة. ورأى الفرصة سانحة لإلزامهم بالمنطق السوى السليم قال لهم : (أفتعبدون من دون الله مالاينفعكم شيئا ولا يضركم ! أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون)

فلما غلبوا على أمرهم ، وخافوا افتضاح حالهم ، ولم تبق لهم حجه أو شبهة يكابرون بها ، عمدوا إلى القوة يسترون عزيمتهم ، ويخفون باطلهم ، فقالوا : (حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) .

وشرع القوم يجمعون حطبا من جميع مايمكنهم من الأماكن فمكثوا مدة يجمعون له حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبا لحريق إبراهيم عليه السلام ، ووضعوا ماجمعوا من الحطب فى المكان المعد له ، وأشعلوا فيه النار فاضطربت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله ، ثم وضعوا الخليل فى كفة منجنيق وألقوه فى النار .

روى البخارى بسنده عن ابن عباس أنه قال عندما ألقى إبراهيم فى النار قال : (حسبنا الله ونعم الوكيل)، واستجاب الله له . فقد كان فى رعاية الله وكلئه فلم تحرق منه إلا الوثاق :

(قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم) .

وهكذا رد الله كيدهم فى نحورهم ، وأبان عن خسرانهم، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين .

ومن أخلاقهم : الخروج عن محبة أولادهم بالطبع إلى المحبة الدينية حتى تصير أولادهم عندهم بمثابة الأجانب على حد سواء

فكل من كان أكثر طاعة لله عز وجل قدموه فى المحبة .

وقد تحققت بذلك ولله الحمد ، فربما يترك ولدى الشيخ عبد الرحمن حضور درس أو مجلس ذكر ، فأقدم عليه فى المحبة جميع من كان حاضرا فى المجلس من الرجال ، والأطفال ، وأريد أن أرجحه بحكم الطبع ، فلا أقدر ، وهذا من أفضل نعم الله على العبد فإنه من أوثق الايمان فيحب العبد أخاه لله تعالى لا لحاجة إليه ، ولا لكونه والداله ، ويبغضه كذلك إذا عصى ربه حتى لو كان من المحسنين إليه ، وفى القرآن العظيم (فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحيوة الدنيا[1]) . . . الآية إذ الإعراض عادة لا يكون إلا عن مبغوض .

فاعلم ذلك يا أخى وكن دائرا مع مرضاة الله تعالى لا تحب ، ولا تبغض إلا تبعا لقواعد شرعه والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة النجم آية : ٢٩ .

ومن أخلاقهم : إذا صار أحدهم موردا للإخوان ومقصودا فى قضاء حوائجهم وأهلا لزيارة الناس له من الأكابر والأصاغر أن يقدم العكوف فى بيته على زيارة إخوانه وعيادتهم

فلا يذهب إلى زيارة أحد ، ولا إلى عيادته إلا إن كان فارغا وغلب على ظنه أن أحدا لا يأتى إليه من الأكابر ، فيكون عمله على الترجيح دائما .

وقد خرجت مرة إلى عيادة شخص كان به وجع فى رأسه ، فجاءنى الدفتر دار ، وجماعة من الأمراء ، فلم يجدونى فلا تسأل يا أخى ماجرى لى من التشويش ، ثم خرجت إلى زيارتهم فى بيوتهم مكافأة لهم لبعض ما فعلوا معى ، ومن ذلك اليوم ما عزمت على خروج من الزاوية إلا بعد قولى (اللهم ان كان أحد خرج لزيارتى ، وهو فى الطريق فعوقنى له ، حتى يحضر ، أو كان عازما على الخروج لى ، فعوقه فى بيته ، حتى أرجع انتهى) ووجدت بركة ذلك .

فاعملوا بمثله أيها الإخوان اذا صار أحدكم موردة للاخوان ، والزوار ، وأعلموا إخوانكم بعذركم فى عدم زيارتهم ليقل عتبهم عليكم ولايحملوكم على التكبر عليهم ، ويقولوا إنما يترك فلان زيارتنا استهانة بحقوقنا ، وربما قالوا إن فلانا يقدم الأمراء على الفقراء فى الاعتناء ، والإقبال ، ولو كان من الصالحين ، لعظم الفقراء أكثر كما أوضحنا ذلك فى المنن الكبرى .

وقد كان الشيخ عبد القادر الدشطوطى إذا سلم عليه فقير لا يعتنى به كل ذلك الإعتناء ، وإذا سلم عليه أمير أوجندى يعتنقه ، ويقبله فى عنقه ويظهر له المحبة ، فقيل له فى ذلك فقال إن الفقير لايظلم أحدا ولا أنفع عنده فى مظلوم بخلاف هؤلاء الأمراء فنحن نحملهم على المحامل السيئة ثم إياك واتباع الهوى والحمد لله رب العالمين

ومن أخلاقهم : (   )[1] الذى أرسل لهم السلام ثم لا يرون أنهم كافؤه بالمشى إليه فإن خطورهم على قلبه أكثر فضلا من مشيهم إليه .

ومن هو ذلك الفقير حتى يخطر على قلب ذلك الأمير هذا ما علمنا أشياخنا من الأدب مع الأكابر فى هذه الدار والحمد لله رب العالمين .

(١) مطموس من الأصل .

ومن أخلاقهم : إذا كان طعام زاويتهم لكل وارد عليهم بشرط الواقف
أو بإشارة الناظر الذى له الإدخال والإخراج أن لايردوا
من جاء يطلب المجاورة عندهم

توفيرا لطعام الزاوية عليهم بل يقروا كل من جاور عندهم علي المجاورة إلى حد يبلغوا به إلى أوائل مرتبة الاضطرار ، فهناك يمنعون من يجاور خوف الإضرار به ، وبهم ، فلاهم يصبرون على الجوع الشديد ولا هو يرجع عن طلب الخبز والطعام هذا كله فيما إذا لم يكن المجاورين عدد معلوم .

وقد كثر المجاورون عند سيدى الشيخ أبى الحسن الغمرى فعزم على إخراج بعضهم فقال له الشيخ يوسف الحريثى رحمه الله تعالى : أنظر فكل من رأيت رزقه عليك ، فأخرجه إن شئت ، وأما من رزقه على الله تعالى فدعه فى بيته يعبده ، فرجع الشيخ عما كان عزم عليه ، وبالجملة مرتبة الفقراء فى كل عصر الإيثار والقناعة ، فإذا فعل كل واحد منهم ذلك أسبغ الله تعالى عليهم النعمة ، ورزقهم من حيث لا يحتسبون ، وحماهم من المخاصمة على الطعام ومن الشرور الواقعة بسبب ذلك عادة .

ومن تأمل وجد سادة الفقراء ولحتهم تحمل شدائد وكروب ماداموا فى هذه الدار إلا من شاء الله تعالى ، كسيدى محمد الحنفى وسيدى على بن وفا ، وسيدى مدين ، وأضرابهم فإن هؤلاء رباهم الله تعالى على وصف الدلال .

وكان سيدى على بن وفا يقول : ما عرفنا ولا ألفنا سوى المواتاة والوصال .

وكان سيدى محى الدين بن عربى رحمه الله يقول : ما تجلى الحق تعالى لقلبى بمظهر قهر قط ، وما سمعت بالقهر إلا من غيرى ، فما قهرنى تعالى قط انتهى .

وفى عصرنا هذا جماعة على هذا القدم الشريف فى سعة الرزق منهم سيدى محمد البكرى فسح الله فى أجله فإن ملبسه ومأكله ومسكنه ومنكحه كالملوك مع عدم حصول ذل فى طريق ذلك الغنى ، ومن أراد من فقراء العصر أن يتبعه فى ذلك هلك ولم ينله من ذلك إلا التعب ، والعناء والله ينفعنا ببركته ويعدنا بإمداده والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا هجر أحدهم مريدا بطريقه الشرعى أن لا يكون في باطنه له حقد ولا غل ولا مكر

وهو معنى قوله تعالى « واهجرهم هجرا جميلا[1] » أى هجرا لا حقد فيه ، وإيضاح ذلك :

أن الكمل لا ينظرون من الخلق بالأصالة إلا حقائقهم ، وهو القدر المدبر لأرواحهم من سر الحق جل وعلا ، فهو خاص بمن غلب عليه شهود الحق قبل الخلق ، وهو مقام السيد أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه كان يقول :

ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من شرط الكمال أن لا يكون عنده حقد ولا مكر ولا استهزاء لأن عبوديته كشهوده له وأما وجه سيادته المعبر عنه برياسة الروح ، فهو مستور عنه لأنه يؤدى إلى الزهو والعجب ، والكبر ، وذلك ينافى الكمال وفى الحديث (من تواضع لله رفعه الله عز وجل انتهى) فجعل الحق تعالى رفعة عبده بذله ، وانكساره وملازمة عبوديته لا تكبره ، ودعواه ، ومن حقد على أخيه المسلم أيام هجره ، وقال : ما حقد منى عليه الاسوه الخلق القائم بى فسر الحق حقد على سر الحق كما يقع فيه بعض أهل الشطح الخارجين عن الأدب .

قلنا له : هذا جهل منك بوجه الأدب ولو كنت كاملا اشهدت ذلك وانكسارك يقينا بلا حجاب ، وشهدت كالاتك ايمانا مع الحجاب هذا حكم هذه الدار ، وفى الدار الآخرة ينعكس هذا الحكم ، فيكون وجه سيادته مشهودا ووجه عبوديته ايمانا ، وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب الجواهر والدرر والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة المزمل آية : ١٠ .

ومن أخلاقهم : إذا دخلوا على سلطان أو وزير أن يسلموا عليه
بالفظ الوارد فى السنة

فيقول أحدهم السلام على مولانا السلطان مثلا ورحمة الله وبركاته وليحذر من الخضوع له بالصدر أو العنق كما عليه جهلة المتصوفة من إدمانهم حب الدنيا وتعظيم أهلها فيكاد أحدهم يركع للوزير إذا رتب له جوالى أو رزقه ونحو ذلك ، وقد نقل الحافظ الجلال السيوطى رحمه الله ( )[1] فى كتاب التحيات له أنه كان يقول تحية العرب ( )[2] وهى أشرف التحيات ، وتحية الأكاسرة السجود قدام الملك ، وتقبيل الأرض ، وتحية الفرس طرح اليد على الأرض قدام الملك ، وتحية الحبشة عقد اليدين على الصدر بين يدى الملك بسكون ، وتحية الروم كشف غطاء الرأس من بعد مع تنكيس الرأس ، وتحية النوبة إيماء الداخل بالدعا بالإصبع ، كأنه يقبله ، مع جعل يديه جميعا على رأسه ، ووجهه ، وتحية حمير إيماء الداخل بالدعا بالاصبع . وتحية البجه وضع يد الداخل على كتف الملك فإن بالغ فى الخدمة رفعها ووضعها مرارا انتهى .

قال الجلال السيوطى رحمه الله . وقد تأملت فى هذه التحيات فرأيت غالبها مجموعة فى الصلاة التى هى خدمة ملك الملوك سبحانه وتعالى ، فلهذا ناسب أن يقال فى آخر جلوسها التحيات لله إشارة إلى أنه المستحق ، لجميع التحيات انتهى .

فاعلم يا أخى ذلك وسلم على الملوك، فمن دونهم بسلام أهل الإسلام فإنه هو المشروع ، وإياك ، وفعل الأعاجم ، وغيرهم مما ابتدع أو خالف السنه ، فإنه لا يليق بمن يدعى طريق القوم أن يخالف السنه ، ولا يغتر بما يفعله مشايخ الروم والعجم مما يخالفها والحمد لله رب العالمين .

(٢،١) مطموس من الأصل

ومن أخلاقهم : كثرة الخوف من الله تعالى كلما دنى أجلهم

فإن ما قارب الشيء أعطى حكمه ، ومعلوم أن الدار الآخرة هي محل الخوف لأنها دار كشف السرائر على رؤس الاشهاد فيا فضيحة من كانت له سريرة سيئة بينه ، وبين الله تعالى ، وظهرت في الآخرة بين يدى من كان يعتقد فيه الولاية والصلاح في دار الدنيا .

وبلغنا أن من الناس من يسقط لحم وجهه هناك من الخجل من الله تعالى ومن الخلق.

وسمعت الأخ العزيز سيدى شرف الدين شيخ جامع أمير الجيوش بمصر يقول : مما يدل على شدة كرب يوم القيامة ، وأنه أكثر من كرب الدنيا بدرجات أن الواحد منا في هذه الدار كلما تأخر الزمان إزداد كربا فلو كان يوم القيامة يوم راحة لكنا كلما دنى أجل الواحد منا ازداد راحة انتهى ، فأعجبني حذقه ، وإدراكه لهذا السر العظيم وهذا خلق قل من يتنبه له من الفقراء فضلا عن غيرهم بل المشهود منا أننا كلما دنى الأجل وقرب قل خوفنا وورعنا ، وزهدنا وتقوانا .

وسمعت سيدى عليا الخواص يقول : الخوف حقيقة إنما هو في هذه الدار ، حتى إن كل عبد لا يمشى على الصراط يوم القيامة إلا بحسب مشيه هنا على قواعد الشريعة ، ومن زاغ عن الشريعة هنا زاغ وزلق على الصراط هناك ، فزلقة هناك بعد زلقاته هنا فالعاقل من جاهد نفسه هنا ، حتى استقامت ولم يقل لكل شيء وقت ورحمة الله واسعة ، وإن كان ذلك صدقا انتهى .

فاعلموا ذلك يا أيها الإخوان واعملوا به[١] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ومما يساعد على دراسة نص الإمام الشعراني هذه الدراسة عن البحث نبدأها بالتالي : الحياة : (الحياة تعلق الروح بالبدن واتصاله به) تفسير فتح البيان ﺣ ٤ ص ٦٧ . أو هي : الصفة التي يكون الموصوف بها ذا علم وقدرة ، تفسير الفخر الرازى ﺣ ٢٠ ص ٥٤ هذه هي الحياة في تعاريف العلماء ، والواقع أن الله سبحانه وتعالى خلقنا في هذه الحياة الدنيا لنعرف كمال قدرته ، وإحاطة علمه ، فنعبده وحده لا شريك له ، فإنه خلقنا

من بطون أمهاتنا لانعلم شيئا ، ولا نقدر على شيء ، ولا نملك شيئا ، ولا نقدر على منع ضر ، ولا دفع شر ، ثم مكننا الله سبحانه وتعالى من هذه الحياة الدنيا ، وسخر لنا ما في بحرها وبرها وجوها ، وجعل لنا السلطان على دواب الماء وعلمنا مالم نكن نعلم ، ومع ذلك كفرنا نعم الله ، ولم نضع في اعتبارنا : أنه لم يخلقنا إلا لنعبده وحده لاشريك له ، بل اندفعنا وراء شهواتنا ، ووراء مصالحنا الدنيوية إندفاعا أنسانا كل ما يتعلق بحق الله سبحانه وتعالى ، وجعلنا الحياة الدنيا هي كل مطلبنا ، وهي الأمل الذي تهفو إليه النفوس في كل وقت وحين ، ونسينا الحياة الآخرة التي هي الحياة الحقيقية لو كنا نعلم .

روى الإمام أحمد في مسنده - من حديث بشر بن جحاش القرشي - أن رسول الله ﷺ ، بصق يوما في كفه ، فوضع عليها أصبعه ، ثم قال : قال الله تعالى : (يا ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين ، وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق وأنى أوان الصدقة) مسند الإمام أحمد بن حنبل حـ ٤ ص ٢١٠ .

والواقع : إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، فينسى أصله ، ويكذب بالحسنى ، ويجهل أنه راحل من هذه الدنيا إلى الحياة الأخرى ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : (لولا ثلاث ماطأطأ ابن آدم رأسه ، الفقر والمرض ، والموت ، وإنه مع ذلك لوثاب) أنظر تفسير القرطبي حـ ١٨ ص ٢٠٦ .

وفي شرح الصدور للسيوطي بسنده ، إلى ابن أبي شيبة في مصنفه ، والإمام أحمد في كتاب الزهد ، عن حبيب بن الشهيد ، عن الحسن قال : لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة :

إن الأرض لاتسعهم

قال : إني جاعل موتا

قالوا : إذا لايهنأ لهم العيش

قال : إني جاعل أملا أخرجه ، الإمام أحمد وابن أبي شيبة .

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ :

قال : (يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان : الحرص ، وطول الأمل) رواه البخاري

• • • • • • •

ومسلم فى صحيحيهما .

وعن الإمام على كرم الله وجهه يرفعه : (إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل) فى الصحيحين والنسائى وأحمد .

فإن اتباع الهوى يصد عن الحق وطول الأمل يقرب الدنيا ويبعد الآخرة ، ولا يدرى الإنسان أن الموت أقرب إليه من حبل الوريد ، ويوضح لنا ذلك الإمام الحسن البصرى بقوله : (من أراد الدنيا على الآخرة عاقبه الله بست عقوبات : ثلاث فى الدنيا ، وثلاث فى الآخرة :

أما التى فى الدنيا ، فأمل ليس له منتهى ، وحرص غالب ليس له حد ، وأخذ منه حلاوة العبادة .

وأما التى فى الآخرة : فهول يوم القيامة ، والحساب الشديد والحسرة الطويلة) من كتاب المنبهات لمؤلفه أحمد محمد الحجى .

وقد بين سيدنا رسول الله ﷺ ، أن طول الأمل فى الدنيا مذموم ، ويؤدى إلى أن ينسى الإنسان آخرته ويغتر بدنياه : (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك فى أهل القبور) روى أوله البخارى ، وآخره الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه ، وفى رواية : وعد نفسك من أهل القبور ، كما جاء فى مجمع الزوائد .

الموت : يقول الله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الاخرى إلى أجل مسمى) سورة الزمر آية : ٤٢

وقد بين لنا العلماء حقيقة الموت أخذا من النصوص الشرعية ، والبراهين العقلية ، فهو ليس بعدم محض ، ولا فناء صرف ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ظاهرا وباطنا ، ومفارقة وحيلولة بينهما ، وتبدل من حال إلى حال ، وانتقال من دار إلى دار ، بخلاف النوم ، فإنه انقطاع الروح عن ظاهر البدن من بعض الوجوه . (أنظر شرح الصدور وبشرى الكئيب للإمام السيوطى ص ١ — ١٢ .

يقول الإمام ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس .. الآية .

تلتقى أرواح الاحياء وأرواح الاموات فى المنام فيتساءلون ماشاء الله ، ثم يمسك الله أرواح الاموات ، ويرسل أرواح الاحياء إلى أجل مسمى ، لا يغلط شىء منها ، فذلك قوله تعالى : (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أخرجه بن مردويه ، وعبد ابن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو الشيخ فى العظمة .

• • • • • •

حقيقة الروح :

إختلف العلماء فى حقيقة الروح ، فريق أمسك عن الكلام والبحث فيها واعتبرها سرة من أسرار الله سبحانه وتعالى ، استأثر الله بعلمه ، ولم يؤته أحدا من البشر ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : (قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) سورة الإسراء آية : ٨٥ :

وعن ابن مسعود رضى الله عنه وأرضاه قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فى قرب المدينة ، وهو متكىء على عسيب ، فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح ، فقال بعضهم لاتسألوه ، فقالوا يامحمد ما الروح ؟

فمازال متكئا على العسيب فعلمت أنه يوحى إليه . فقال : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وماأوتيتم من العلم الا قليلا) أخرجه ابن أبى حاتم فى الصحيحين .

ومن هذه الطائفة أيضا الإمام الجنيد رضى الله عنه يقول : الروح شىء استأثر الله تعالى بعلمه ، فلم يطلع عليه أحدا من خلقه ، فلايجوز لعباده البحث عنه با كثر من أنه موجود .

وقد ثبت هذا الرأى عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما ، أنه كان لايفسر الروح ، فعن عكرمة قال : سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الروح قال . الروح من أمر ربى لاتنالوا هذه المسألة ، فلاتزيدوا عليها ، قولوا كما قال الله تعالى وعلم نبيه : (وماأوتيتم من العلم الا قليلا) أخرجه ابن أبى حاتم كما فى شرح الصدور .

أما الطائفة الثانية التى عرفت الروح فيعبر عنها الإمام ابن القيم فى كتابه الروح . والصحيح أن الروح جسم مخالف بالماهية ، لهذا الجسم المحسوس وهو — أى الروح — جسم نورانى علوى خفيف ، حى متحرك شفاف ، ينفذ فى جوهر الاعضاء ، ويسرى فيها سريان الماء فى العود الاخضر ، وسريان الماء فى الورد ، والدهن فى الزيتون ، والنار فى الفحم ، فادامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف ، بقى هذا الجسم اللطيف متشابكا بهذه الاعضاء وأفادها هذه الاثار من الحس والحركة ، والإرادة واذا فسدت هذه الاعضاء بسبب ينافى الروح كاستيلاء الأخلاط الغليظة عليها ، وخرجت عن قبول تلك الاثر فارق الروح البدن ، وانفصل الى عالم الارواح اهـ .

والواقع أن الرأى الاول هو الرأى الراجح فى نظرنا وهو يشمل الجو الإسلامى العام

• • • • • • •

فالله سبحانه وتعالى اعتبرها من أمره ، ولم يبين ماهيتها ، ولم يخبر بهذا رسوله ﷺ ، فلاندرى حقيقتها ولا كنهها .

البعث : ادعى المشركون والملحدون على مر العصور أنه لا يوجد بعث بعد هذه الحياة الدنيا ، فكان قولهم دائما (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا) سورة التغابن آية : ٧

(أئذا كنا ترابا ائنا لفى خلق جديد) سورة الرعد آية : ٥ (من يحيي العظام وهى رميم) سورة يس آية : ٧٨ .

(وقالوا ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر) سورة الجاثية آية : ٢٤ .

وكان رد الله سبحانه وتعالى مبطلا لزعمهم وزيف ادعائهم : (قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب) سورة غافر آية : ١٧

فالبعث كائن لا محالة ، وهو النشأة الآخرة ، التى يرجع فيها الانسان إلى الله سبحانه وتعالى ، فيحاسب على حياته التى أمضاها ، ففيه يكون سعادة الانسان أو شقاؤه خالدا فى أحدهما ، وقد بين لنا القرآن الكريم كيفية البعث عند الموت ، وكيفيته عند قيام الساعة ، يقول الله سبحانه وتعالى : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) سورة الروم آية : ٢٧

ويقول : (ثم انكم يوم القيامة تبعثون) سورة المؤمنون آية : ١٦

ويقول : (فإذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون) سورة يس آية : ٥١ .

ويقول : (فسيقولون من يعيدنا ؟ قل : الذى فطركم أول مرة) سورة الاسراء آية : ٥١ .

ويقول تعالى : (أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوى بنانه) سورة القيامة آية : ٣ ، ٤ .

ويقول تعالى : (كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا إنا كنا فاعلين) سورة الأنبياء آية : ١٠٤ .

. . . . . .

وقد ذكرت لنا الأحاديث النبوية الشريفة كثيراً مما يتعلق بهذا الشأن نذكر منها :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء العاص بن وائل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ، ففته بيده فقال : يا محمد أيحيي الله هذا بعد ما أرى ؟

قال : نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ، ثم يحييك ، ثم يدخلك نار جهنم ، فنزلت الآيات من آخر سورة يس : (أو لم ير الإنسان) الى آخر السورة) أخرجه ابن جرير وابن المنذر وأبو حاتم والإسماعيلى فى معجمه والحافظ بن مردويه والضياء فى المختارة والبيهقى فى البعث كما فى اللوامع ج ٢ ص ١٥٨ .

وعنه رضى الله عنهما قال :

قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال :

« يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا إنا كنا فاعلين » أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما ،

وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت :

فقلت الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم الى بعض ؟

قال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك .

نفخة الصور الأولى :

وهى نفخة الفزع ، والتى بها تنتهى أحوال العالم :

« ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله »

ويوضح لنا الحديث الشريف التالى : ما يحدث من هول ذلك اليوم :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخصاً ببصره الى العرش ينتظر متى يؤمر .

قلت : يارسول الله وما الصور ؟

قال : القرن :

قلت أى شيء هو ؟

. . . . . .

قال : عظيم ان عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض فينفخ فيه ثلاث نفخات :
الاولى : نفخة الفزع ، والثانية : نفخة الصعق والثالثة : نفخه القيام لرب العالمين .
فيأمر الله اسرافيل بالنفخة الاولى ، فيقول : انفخ نفخة الفزع ، فينفخ فيفزع أهل السماء والارض إلا من شاء الله ، فيامره فيمدها ويطيلها ولا يفتر وهى التى يقول الله تعالى :

« وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق » سورة ص آية : ١٥ .

فيسير الله الجبال فتمر مر السحاب فتكون سرابا وترتج الارض باهلها رجا فتكون كالسفينة الموقرة فى البحر تضر بها الامواج وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الارواح ، وهى التى يقول الله عنها :

« يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة »
سورة النازعات آية : ٦ : ٧ .

فتميل الارض بالناس على ظهرها فتذهل المراضع وتضع الحوامل ، وتشيب الولدان وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تاتى الاقطار فتتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ويولى الناس مدبرين ، وينادى بعضهم بعضا ، وهو الذى يقول الله تعالى :

« يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم » سورة غافر آية ٣٢ : ٣٣ .
فبينما هم على ذلك إذ تصدعت الأرض ، فانصدعت من قطر إلى قطر ، فرأوا أمرا عظيما ، ثم نظروا إلى السماء ، فإذا هى كالمهل ثم انشقت فانتثرت نجومها وانخسفت شمسها وقمرها .
قال رسول الله ﷺ : والأموات يومئذ لا يعلمون بشىء من ذلك .
قلت يارسول الله من استثنى الله تعالى فى قوله « إلا من شاء الله » ؟
قال أولئك الشهداء ـ إنما يتصل الفزع إلى الأحياء ، وهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وقاهم الله فزع ذلك اليوم ، وآمنهم منه ، وهو عذاب يبعثه الله على اشرار خلقه ، يقول الله :

« ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد » سورة الحج آية ١ ـ ٢ .
فيمكثون فى ذلك ماشاء الله :

. . . . . .

وفى حديث طويل وهو مخرج فى تفسير ابن جرير والطبرانى فى المطولات وفى مسند أبى يعلى وفى البعث للبيهقى وفى المطولات لأبى موسى المدنى وفى كتاب الطاعة والعصيان لعلى ابن معبد وعبد ابن حميد وأبى الشيخ فى العظمة كلهم عن أبى هريرة ، ينظر فى ذلك النهاية لابن كثير جـ ١ ص ١٧٢ واللوامع جـ ٢ ص ١٦١ .

النفخة الثانية :

وهى نفخة الصعق ، وهى المشار إليها فى قوله تعالى :

(ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) .

سورة الزمر آية : ٦٨ .

ويوضحها بقية الحديث المتقدم ذكره عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

ثم يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله فيقول الله — وهو أعلم — فمن بقى ؟

فيقول أى رب بقيت أنت الحى القيوم ، الذى لا يموت ، وبقيت حملة العرش ، وبقى جبريل وميكائيل ، وبقيت أنا فيقول الله تعالى :

فليمت جبريل وميكائيل فيموتان ، ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار فيقول : « رب قد مات حملة العرش فيقول : وهو أعلم فمن بقى ؟ فيقول :

أنت الحى القيوم الذى لا يموت وبقيت أنا .

فيقول : أنت خلق من خلقى خلقتك لما رأيت فمت فيموت ، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار وطوى السماء والأرض كطى السجل للكتب ، وقال :

أنا الجبار ، لمن الملك اليوم ، ثلاث مرات ، فلم يجبه أحد ثم يقول لنفسه : لله الواحد القهار ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات فيبسطها ويمدها مد الأديم لا ترى فيها عوجا ولا أمتا » أخرجه بنحوه مسلم بروايات أخرى ، وأخرجه بنحوه أيضا ابن ماجه وأبو داود ، باب الرؤيه .

الحشر :

والحشر معناه الجمع أى جمع أجزاء الإنسان بعد التفرقة وإحياء الأبدان بعد موتها وحضورها للحساب .

. . . . . .

يقول الله تعالى :

« يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا » سورة النبأ آية ١٨ .

أى زمراً تسوقهم الملائكة .

ومما يشرح ذلك قول رسول الله ﷺ :

يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم ينتظرون فصل القضاء .

أخرجه ابن أبى الدنيا والطبرانى من عدة طرق أحدها صحيح والحاكم وقال : صحيح الإسناد

وعن أبى هريرة رضى الله عنه :

يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعا ويلجمهم العرق حتى يبلغ آذانهم » . ورد فى الصحيحين

وعن المقداد رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين قال : فتصهرهم الشمس فيكونون فى العرق كقدر أعمالهم منهم من يأخذه إلى عقبيه .

ومنهم من يأخذه إلى حقويه .

ومنهم من يلجمه إلجاماً .

مسلم ومثله عن أبى بكر بن أبى الدنيا من رواية للمقداد بن الأسود كما فى النهاية لابن كثير ح ١ ص ٢٢٣ .

ومن أوصاف بعض من يحشر يوم القيامة التى ذكرها سيدنا رسول الله ﷺ .

وصف المتكبرين .

عن جابر رضى الله عنه مرفوعاً :

يبعث الله يوم القيامة ناساً فى صور الذر يطؤهم الناس بأقدامهم فيقال : ماهؤلاء فى صور الذر ؟

فيقال : هؤلاء المتكبرون فى الدنيا . رواه البزار .

. . . .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعاً :

يجاء بالجبارين والمتكبرين يوم القيامة رجال فى صورة الذر ، يطؤهم الناس من هوانهم على الله ، حتى يقضى بين الناس ، قال :

ثم يذهب بهم إلى نار الأنيار ، قيل يارسول الله وما نار الأنيار ؟

قال : عصارة أهل النار .

الإمام أحمد فى كتاب الزهد كما فى نهاية ابن كثير حـ ١ ص ٢٢٧ .

النفخة الثالثة :

وهى نفخة البعث والنشور ويقول عنها الله سبحانه وتعالى :

« ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون » . سورة يس آية : ٥١ .

ويقول الله تعالى :

« ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » الزمر آية ٦٨ .

« يوم يناد المناد » سورة ق آية ٤١ .

« يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج » سورة ق آية ٤٢ .

ولأبى هريرة حديث فى ذلك :

إن الله ينزل مطراً على الأرض ، فينزل عليها أربعين يوماً حتى يكون فوقهم اثنى عشر ذراعاًفيأمر الله تعالى الأجساد أن تنبت كنبات البقل حتى إذا تكاملت أجسادهم كما كانت .

قال الله تعالى :

« وليحيي حملة العرش ، ليحيا جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه ، ثم يدعو الأرواح فيؤتى بها تتوهج أرواح المؤمنين نوراً والأخرى ظلمة فيقبضها جميعاً ، ثم يلقيها فى الصور ، ثم يأمره أن ينفخ نفخة البعث فتخرج الأرواح كلها كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض ثم يقول الله تعالى :

« وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى جسدها » .

فتدخل الأرواح من الخياشيم ، ثم تمشى مشى السم فى اللديغ ، ثم تنشق الأرض عنهم سراعاً فأنا أول من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها إلى ربكم تنسلون ، أى تخرجون من الأجداث أحياء ، فيقول الكافرون والمنافقون حينئذ :

• • • • • • •

« ياويلنا من بعثنا من مرقدنا » سورة يس آية ٥٢ .

ويقول المؤمنون :

« هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون » .

للحديث شواهد مخرجه فى الصحيحين وغيرهما ، كما تؤيده الآيات القرآنية الكثيرة .

الحســـاب :

الحساب هو تعريف الله عز وجل الخلائق ، مقادير الجزاء على أعمالهم ، وتذكيره إياهم ما قد نسوه من ذلك . قاله الثقلى كما فى اللوامع ج ٢ ص ١٧١ .

وقد ثبت فى القرآن الكريم بقول الله تعالى :

« فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » . سورة الحجر آية : ٩٢ ، ٩٣ .

وقوله تعالى :

« أولئك لهم سوء الحساب » ، سورة الرعد آية ١٨ .

وقوله تعالى :

« ووجدوا ماعملوا حاضراً » ، سورة الكهف آية ٤٩ .

وقوله تعالى :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » الزلزلة آية ٧ ، ٨

وأصح الأقوال أن الله تعالى يحاسب عباده فى شأن أعمالهم وثوابها وعقابها .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« لاتزول قدماً عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال :

عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه وما عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه » . رواه الإمام أحمد وابن أبى الدنيا .

وعن عبد الله بن أنيس رضى الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول :

يحشر الله العباد يوم القيامة ، أو قال الناس : عراة غرلا بهما ، قال قلنا وما بهما ؟ قال : ليس معهم شىء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديان لاينبغى لاحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقضيه منه ، ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقضيه منه حتى اللطمة .

. . . . . .

قال : وكيف وإنما نأتى عراة غرلا بهما ؟

قال : الحسنات والسيئات » . رواه الإمام أحمد والترمذى وأبو بكر .

وروى الحسن قال : سمعت أبا موسى الاشعرى رضى الله عنه يقول :

قال رسول الله ﷺ :

يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فعرضتان جدال ومعاذير ، وعرضة تطاير الصحف : « فمن أوتى كتابه بيمينه وحوسب حسابا يسيراً دخل الجنة ، ومن أوتى كتابه بشماله دخل النار .

الإمام أحمد والترمذى وابن أبى الدنيا ولكنه ضعيف أنظر هامش العقيدة الطحاوية

الميزان :

وإذا انقضى الحساب كان بعده وزن الاعمال لان الوزن للجزاء ، فإذا كان بعد المحاسبة إذ المحاسبة لتقرير الاعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها » .

العقيدة الطحاوية .

ويقول الله تعالى فى ذلك :

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » سورة الأنبياء ، آية ٤٧ .

(والوزن يومئذ الحق) . سورة الأعراف ، آية : ٨

ويوضح ذلك ماروى عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله عنهما من حديث جبريل عليه السلام عن الإيمان قال :

أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان ، وتؤمن بالبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر ، خيره وشره .

قال : إذا فعلت ذلك فأنا مؤمن .

قال : نعم .

قال : صدقت .

. . . . . .

رواه البيهقى فى الشعب .

وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان » فى صحيح مسلم .

وفى خاتمة صحيح البخارى رضى الله عنه قوله : صلى الله عليه وسلم :

« كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان فى الميزان : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم .

وعن أنس رضى الله عنه قال :

سألت النبى صلى الله عليه وسلم أن يشفع فى يوم القيامة ، فقال : أنا فاعل .

قلت : يارسول الله فأين أطلبك ؟

قال : أطلبنى أول ماتطلبنى على الصراط .

قلت : فإن لم ألقك على الصراط ؟

قال . فاطلبنى عند الميزان .

قلت . فإن لم ألقك ؟

قال . فاطلبنى عند الحوض قال : فإنى لا أخطىء هذه الثلاثة المواطن .

أخرجه الترمذى وحسنه والبيهقى .

وصح « أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض ، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة .

أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

حقيقة الجنة :

والجنة التى وعد المتقون هى دار الثواب أعدها الله لهم وهى فى الأصل مأخوذة من الجن بمعنى الستر وتطلق على البستان الذى سترت أشجاره أرضه وعلى الأرض التى بها

. . . .

شجر ونخل كما تطلق على نفس الشجر ثم صارت علما على دار الثواب التى فيها من أنواع النعيم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

وجمعت الجنة جمع قلة لقلتها عدداً مع اشتمال كل واحدة منها على درجات متفاوته بحسب تفاوت درجات الأعمال .

وقد ورد أنها سبع جنات هى الفردوس والمأوى والخلد والنعيم ودار السلام ودار الإجلال وهذا رأى ابن عباس .

وذهب آخرون إلى أنها أربع فقط بدليل قوله تعالى فى سورة الرحمن (ولمن خاف مقام ربه جنتان) هما النعيم والمأوى .

ثم قال تعالى : (ومن دونهما جنتان) عدن والفردوس وقيل الجنة واحدة والأسماء المتقدمة صادقة عليها والحق الذى يجب الإيمان به أن الجنة هى دار الثواب التى وعدها الله عباده الصالحين .

أما أنها واحدة أو أكثر فهذا بحث لايترتب عليه كبير فائدة ولم يرد فى ذلك نص صريح أو مستند صحيح .

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الجنة بقوله :

(تجرى من تحتها الأنهار) .

ويتحدث عن النعيم الذى يلاقيه أهلها بقوله :

« على سرر موضونة » .

« متكئين عليها متقابلين » .

« يطوف عليهم ولدان مخلدون » .

« بأكواب وأباريق وكأس من معين » .

« لا يصدعون عنها ولا ينزفون » .

« وفاكهة مما يتخيرون » .

« ولحم طير مما يشتهون » .

« وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » .

. . . . .

« جزاء بما كانوا يعملون »

« لايسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما » .

ويتحدث عنهم أيضا بقوله :

« في سدر مخضود »

« وطلح منضود »

« وماء مسكوب »

« وفاكهة كثيرة »

« لامقطوعة ولاممنوعة »

« وفرش مرفوعة »

« إنا أنشأناهن إنشاء »

« فجعلناهن ابكاراً »

« عربا أترابا »

« لأصحاب اليمين »

حقيقة جهنم :

ولقد أخبر سبحانه أنه أعد المنافقين والمشركين جهنم لتكون لهم دار عذاب مقيم خالدين فيها وسماه هذا العقاب جزاء لهم لسوء صنيعهم وساءت جهنم لهم مصيراً .

وجهنم إسم من أسماء النار الأخروية وتسمى أيضا سعيرا وتسمى لظى وتسمى سقر، وتسمى الهاوية وتسمى الجحيم ، وتسمى الحطمة .

وقيل أن هذه أسماء لطبقات متفاوته في النار لكل طبقة طائفة خاصة ، وليس لهذا القول مستند في اختصاص كل اسم بطبقة معينة ، ولافي اختصاص كل طبقة بطائفة وكونها درجات متفاوتة في أنواع العذاب لايستلزم أن هذه أسماء لطبقات مختلفة .

فالواجب اعتقاده أن الله تعالى دار عقاب أعدها للمنافقين والمشركين ليخلدوا فيها وسيعذب بها من شاء من عصاة المؤمنين قبل أن يدخلهم الجنة .

وقد صرح القرآن الكريم أن للنار سبعة أبواب لكل باب طائفة خاصة من العصاه (وأن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم .

• • • • • •

وقد عين لوم لكل باب فريقا من العصاة يدخلون منه، ولا سبيل إلى القطع فاً مثل ذلك.

وجود الجنة والنار :

وقد ذهب الجمهور إلى أن الجنة والنار موجودتان الآن لأن هذا هو المتبادر من قوله تعالى فى صفة النار :

« وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا »

« واتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » .

وقوله تعالى فى صفة الجنة :

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ».

« سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله » .

حيث عبر فى جميعها بالماضى وهو «أعدت» وقوله تعالى :

«النار يعرضون عليها غدوا وعشيا، ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب».

وقوله تعالى عن الرسول ﷺ :

« ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى » .

ولا مقتضى للعدول عن هذا الظاهر ويرى بعض المعتزلة أن الجنة والنار سيوجدان يوم الجزاء ولا وجود لهما الآن وقد افترقت مسالك هذا الفريق فى الاستدلال فنهم سلك مسلكا عقليا محتجا بأن الجنة والنار دارا جزاء والجزاء إنما يكون فى الدار الآخرة بعد البعث فالحكمة تقتضى إيجادهما يومئذ ، أما إيجادهما الآن فهو خال عن الحكمة فيكون عبثا والله تعالى منزه عن العبث فى أفعاله والجواب أن الحكمة فى إيجادهما الآن لا تنحصر فى الجزاء فيجوز أن يكون لإيجادهما الآن حكمة لا نعلمها كما هو الشأن فى كثير من أفعاله تعالى يعجز العقل عن إدراك حكمته وعدم الإطلاع على الحكمة لا يقتضى عدمها فيجب التسليم بما ورد فى الآثار ومن هذا الفريق من سلك طريق النقل محتجا بقوله تعالى :

« كل شىء هالك إلا وجهه » .

فلو كانت الجنة والنار موجودتين الآن للحقهما الهلاك وقد ضمن لهما عز وجل البقاء والخلود وقال فى وصف الجنة :

. . . .

« أكلها دائم وظلها » وهذا الدوام ينافى طرء العدم عليها فوجب ألا توجد الجنة والنار إلا بعد البعث حتى لا يعتريها الفناء ويجاب بأن المراد بالهلاك فى قوله تعالى :

« كل شيء هالك إلا وجهه » .

الهلاك الحكمى بمعنى أن الممكن لما كان وجوده ضعيفا بالنسبة إلى واجب الوجود جل شأنه لاستفادة وجود الممكن من غيره كان فى حكم الهالك المعدوم وهذا أولى من الأجوبة الأخرى مثل : المراد بالهلاك ، الهلاك الصورى الذى هو تفرق الأجزاء لحظة وهو لا ينافى دوام الذات ومثل قولهم :

المراد بدوام أكل الجنة الدوام البدلى لإستحالة دوام مأكول بعينه .

ولا أدرى كيف تمسك هذا الفريق من المعتزلة بهذه الآية مع إمكان تأويلها وتمشيها مع الآيات الأخرى والأحاديث الكثيرة .

ولو تأمل المنكرون وجود الجنة والنار قليلا وأنصفوا فى حكمهم وقرأوا السنة بإمعان لوجدوا فى كثير من الأحاديث الصحيحة التصريح بوجودهما الآن ، ولاعترفوا بانه ليس هناك ما ينافيه عقلا ، أو لم يسمعوا قوله ﷺ فى حديث الإسراء الذى أخرجه البخارى وغيره :

« ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبائل اللؤلؤ وإذا ترابها المسك » .

ومن أخلاقهم : اتخاذ المؤذن في سفرهم كإقامتهم ولو كان عبداً حبشياً

بل هو مستحب فإن بلال مؤذن رسول الله ﷺ كان حبشياً ، وبلغنا أنه كان يقول

ومما يروى في جهاد سيدنا بلال بن رباح رضي الله عنه في سبيل الدعوة الآتي :

أخرج الإمام أحمد وابن ماجه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعمار وأمه سمية ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد — رضي الله عنهم .

فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه ، وأما أبو بكر منعه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس ، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهم على ما أرادوا إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه ، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول : أحد أحد — أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الذهبي صحيح وأخرجه أبو نعيم في الحلية وابن عبد البر في الإستيعاب من حديث ابن مسعود بمثله .

وأخرج الزبير بن بكار عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال : كان بلال لجارية من بني جمح وكانوا يعذبونه برمضاء مكة يلصقون ظهره بالرمضاء لكي يشرك ، فيقول : أحد أحد ، فيمر به ورقة — وهو على تلك الحال — فيقول : أحد أحد يا بلال ! والله ! لئن قتلتموه لا تخذنه حنانا .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن هشام ابن عروة عن أبيه قال : كان ورقة بن نوفل يمر ببلال وهو يعذب ، وهو يقول : أحد أحد ، فيقول : أحد أحد ، الله يا بلال ! ثم يقبل ورقة بن نوفل على أمية بن خلف وهو يصنع ذلك ببلال فيقول : أحلف بالله عز وجل ! لئن قتلتموه على هذا لاتخذنه حناناً ، حتى مر به أبو بكر الصديق يوماً وهم يصنعون ذلك فقال لأمية : ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى قال: أنت أفسدته فانقذه مما ترى . فقال أبو بكر : أفعل ، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيكه به. قال : قد قبلت ، قال : هو لك . فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك ، وأخذ بلالا فأعتقه : ثم أعتق معه على الإسلام — قبل أن يهاجر من مكة — ست رقاب ، بلال سابعهم .

وذكر أبو نعيم في الحلية عن ابن إسحاق: كان أمية يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له :

أشهد أن لا إله إلا الله بالسين المهملة فقال له رسول الله ﷺ : (سينك عند الله شين[1]) .

لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى. وهو يقول ـ فى ذلك البلاء ـ أحد ، أحد . قال عمار بن ياسر ـ وهو يذكر بلالا وأصحابه وما كانوا فيه من البلاء وإعتاق أبى بكر إياه ، وكان إسم أبى بكر عتيقا رضى الله عنه : ـ

جزى الله خيرا عن بلال وصحبه عتيقاً وأخزى فاكها وأباجهل
عشية هما فى بلال بسوءة ولم يحذرا مايحذر المرء ذو العقل
بتوحيده رب الأنام وقوله شهدت بأن الله ربى على مهل
فإن يقتلونى يقتلونى فلم الحمد لأشرك بالرحمن من خيفة القتل
فيارب إبراهيم والعبد يونس وموسى وعيسى نجنى ثم لاتبتل
لمن ظل يهوى الغى من آل غالب على غير بركان منه ولا عدل

(١) وقد ورد ذكر لقمان فى القرآن الكريم يقول الله تعالى : (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد . وإذ قال لقمان لإبنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . . .) إلى آخر الآيات التى وردت عنه فى سورة لقمان .

أما قول الله تعالى : ولقد آتينا لقمان الحكمة) ففيها قولان : أحدهما : الفهم والعقل، قاله الجمهور والثانى : النبوة . وقد اختلف فى نبوته على قولين : أحدهما : أنه كان حكيما ولم يكن نبيا ، قاله سعيد بن المسيب ومجاهد وقتادة .

والثانى :

والثانى : أنه كان نبياً ، قاله الشعبى ، وعكرمة ، والسدى، هكذا حكاه عنهم الواحدى، والقول الأول أصح .

وفى صناعته ثلاثة أقوال :

أحدها : عن سعيد بن المسيب أنه كان خياطاً .

والثانى : عن ابن زيد أنه كان راعياً .

والثالث : عن خالد الربعى أنه كان نجاراً :

وأما صفته : فقد قال بن عباس أنه كان عبداً حبشياً . وقال سعيد بن المسيب : كان

وفى حديث الطبرانى مرفوعا (اتخذوا السودان فإن فيهم ثلاثة من سادات أهل الجنة لقمان الحكيم والنجاشى [1] وبلال المؤذن) انتهى .

قال الطبرانى : المراد بالسودان الحبش .

وفى حديث أبى هريرة من رواية الترمذى ، ورفعه بعضهم (الملك فى قريش ، والقضاء فى الأنصار ، والأذان فى الحبشة) انتهى .

واستدل به الشيخ أبو اسحاق الشيرازى فى المهذب على استحباب كون المؤذن حبشيا ، وأقره النووى فى شرحه .

وفى رواية لعبد الله بن الإمام أحمد رضى الله عنه مرفوعا (الخلافه فى قريش ، والحكم فى الأنصار ، والدعوة فى الحبشة) والدعوه هى الأذان .

لقمان أسود من سودان مصر . وقال مجاهد : كان غليظ الشفتين مشقق القدمين ، وكان قاضياً على بنى إسرائيل .

(١) ويمكن تلخيص قصة النجاشى مع الرسول ﷺ من الرسالة التى بعث بها إليه رسول الله ﷺ وإجابة النجاشى عليها نقول :

اخرج البيهقى عن إبن إسحاق قال : بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى رضى الله عنه إلى النجاشى فى شأن جعفر ابن أبى طالب وأصحابه رضى الله عنهم وكتب معه كتاباً :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة ! سلام عليك ! فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة .

فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى فتؤمن بى وبالذى جاءنى فإنى رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمى جعفراً ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءوك فاقرهم ودع التجبر فانى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وبلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى . والسلام على من اتبع الهدى » :

فإن قيل كيف نقضتم هذا الحديث ، فقلتم بوجوب كون الإمام قرشيا ، وباستحباب كونه مؤذنا ، فهلا قلتم بوجوب كل منهما أو ندبه فالجواب من عشرة أوجه أحسنها : أن النبي ﷺ أقام في الأذان غير الحبشه ، فدل على أن الحديث في الندب ، وأما الخليفه ، فإنه قائم ، مقام رسول الله ﷺ في تدبير أمور المسلمين ، فوجب أن يكون من أقاربه ، وما روى من قوله ﷺ لأبي ذر أسمع وأطع ولو لعبد حبشي كأن رأسه (   )[1] المراد منه أن الإمام يكون عبدا حبشيا ، وإنما المراد منه مبعوثه من عبيده قال الرافعي هو من باب المبالغة .

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره عن علي في قول الله تعالى (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك[2]) قال : فمما لم يقصص الله على نبيه ﷺ أن الله تعالى بعث عبدا حبشيا نبيا أبدا ، وفي رواية أخرى لابن أبي حاتم (بعث الله تعالى نبيا من الحبش ، فهو ممن لم يقصصه على نبينا ﷺ) قال أبو عبيد : وجد الحبشة أسمه أرفده بفتح الهمزة ، وسكون الراء ، وفتح الفاء وكسرها أشهر ، ولما لعب الحبشة بين يدي رسول الله ﷺ في المسجد ، فزجرهم عمر قال رسول الله ﷺ : (دعهم أمنا بني أرفده منا) يعني من الأمن أي العبوا عليكم الأمان منا .

فاعلم ذلك يا أخي واتبع سنه نبيك ﷺ في سائر الأحوال تفلح والحمد لله رب العالمين .

فكتب النجاشي إلى رسول الله ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم ابن أبجر ! سلام عليك يا نبي الله من الله ! ورحمة الله وبركاته . لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام . فقد بلغني كتابك يارسول فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت . وقد عرفنا ما بعثت به إلينا وقرينا ابن عمك وأصحابه فاشهد أنك رسول الله صادقاً ومصدقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين . وقد بعثت إليك يانبي الله بابنى أرها بن الأصحم بن أبجر ، فإني لا أملك إلا نفسي وإن شئت آتيك فعلت يارسول الله ، فإني أشهد أن ما تقول حق .

(١) مطموس من الأصل .

(٢) سورة غافر آية : ٧٨

ومن أخلاقهم : إرشادهم إخوانهم من الولاة إلى العمل بشروط الولاية

لينصلح حالهم فيها إذا كان أحدهم معوجا أو يدوم فيها إذا كان مستقيما ، وهى شروط عزيزة قل أن يعمل بها أحد من فقراء الزمان فضلا عن غيرهم ، ومن عمل بها صارت ميزان ولايته معتدلة كالميزان التى تكون بيد البهلوان إذا مشى على الحبل .

وقد تلقيت هذه الشروط عن سيدى على الخواص عن سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه عن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ من طريق كشفه ، وروحانيته ، وقد علمها سيدى ابراهيم للسلطان قايتباى فدامت ولايته تسعا وعشرين سنه ، وكذلك علمتها أنا لبعض الولاة من الوزراء ، والأمراء ، فدامت ولايته ، حتى مات ، فإن أدعى أحد أنه عمل بها ، وعزل من ولايته ، فهو غير صادق لأن من عمل بها صار عدلا مرضيا ، والعدل لا يعزل ، وإنما يعزل بالموت مثل ما وقع لأبى بكر وعمر وعثمان وعلى .

وقد قال بعض المحققين : إنه لايلزم من السبق لولاية أحد من الأئمة أن يكون أفضل ممن تأخر قطعا ، لأن رسول الله ﷺ أفضل من سائر المرسلين ، وقد تأخرت رسالته ، حتى كان خاتم النبيين ، ولكن لما سبق فى علم الله تعالى أنه لابد لكل من الخلفاء الأربعه أن يلى الخلافه بعد رسول الله ﷺ كانت ولايتهم على حسب أعمارهم ، فإن كل واحد منهم عدل مرضى بالإجماع ، وإذا تولى لايصح عزله ، فلو قدمت ولاية عمر مثلا على أبى بكر لكان لايعزل إلا بالموت وكان أبو بكر يخرج من الدنيا من غير ولاية وكذلك القول فى عثمان وعلى فإن كلا منهما لزم أن يخرج الآخر من الدنيا من غير ولاية ، ويتبدل ماسبق به العلم الإلهى وذلك محال ، ولم يأت نص صريح لنا بالترتيب فى الفضل .

قال : وإنما أخذ العلماء ذلك من ظواهر الأدلة وقرائن الأحوال ، فالمقلد للأئمة يلزمه اعتقاد تفضيلهم على الترتيب ، وغير المقلد يفوض الأمر إلى الله تعالى العالم بمراتبهم ، فكل له عنده فضل وحرمة انتهى .

قلت : وهذا القول وإن مال إلى الأدب فى نفس الأمر لـكن اعتقاد ما عليه الأئمة فى ترتيبهم فى الفضل أولى لئلا يتمسك بذلك الروافض بغير علم والله سبحانه أعلم .

إذا علمت ذلك فأقول وبالله تعالى التوفيق شروط دوام الولاية :

أن يحرر صاحبها نيته ، ويقوم فيها بنية نفع العباد لابنية نفع نفسه ، وهو بالثواب الأخروى أو الدنيوى ، فيقف فى ولايته بنية نفع العباد أولا ، ويجعل نفع نفسه بحكم التبعية لا بالقصد الأول فإن كل من قام فى نفع العباد كان الوجود كله يمده بالقوة والنصر والدوام .

ومنها أن لايخون من ولاه ، وهو الله تعالى بحكم الأصالة ، ثم السلطان أو الوزير مثلا ، فلا يعصى ربه لاسرا ولاجهرا ، ولا يعصى إمامه كذلك سرا ، ولا جهرا ، فإن من عصى إمامه انقطعت وصلته به ، وانقطع استمداده من الله تعالى لانه سند متصل إلى حضرة الله تعالى ، فما دام لم يخن فحبل استمداده متصلا يمده بالتأييد .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : متى خان الأمير من ولاه بأخذ مال من رعيته مثلا بغير حق بحيث لو عرضه على السلطان لتـكدر منه ، ولم يسمح له به وعزله ، فقد استحق العزل ، وصار كالعمود الذى تزلزلت قاعدته ، وصار يرتج ، فلا بد أن يقع ، ولو على طول .

ومنها أن لاينفذ غضبه فى عدوه إذا قدر عليه بل يعفو عنه ، ويصفح ، فإن كل من نفذ غضبه فى عدوه ذهبت حماية الحق تعالى له واستحق أن يسلط عليه من هو أقوى منه فيعزله ويشومه شوم الهوان .

وسمعت سيدى محمد المنير رحمه الله يقول : حكم من نفذ غضبه فى عدوه حكم من أخذ فأسا ، وصار يهد بها جدار نفسه ، حتى يرميه إلى الأرض وأصلح حكم من صار يلطخ جدار نفسه كل قليل بالجبس ، حتى يصير متين بايان نفسه ومنها أن يحسن إلى حاشيته وحاشية من كان قبله فى بلده فإنه إذا أحسن إليهم صاروا من جنده

ولا يباطنوا عليه فإن غالب الخلق الآن عبيد من أحسن إليهم فإذا لم يكرم حاشية من كان قبله عملوا له المكايد ، والحيل عند من ولاه ، وكشفوا له أمورا فى الولاية تضر المتولى حين أيسوا من إحسانه إليهم كما جرب فإذا أحسن إليهم ، ولو بلقمة كانوا كالدعائم لجداره إمال وإذا أمى عليهم كانوا لجداره كالفأس التى يعرقبون بها جداره .

ومنها أن لا يغفل عن كف الظالم من رعيته عن المظلوم ، فلا يدع أحدا يسعى عنده إلى أخذه وظيفة أخيه ، ولا يقبل على ذلك رشوة ، وهذا الشرط من أعظم الشروط ، فإن به درء الفساد عن العالم ، وذلك هو المقصود الاعظم بالولايات ، ومتى ترك الامير الناس يسعى بعضهم على وظائف بعض ، فقد تسبب فى وقوع الفساد فى العالم ، واستحق من الله تعالى المقت ، والعزل ، وخراب الديار ، كما هو مشاهد فيمن أدركناهم من المفتشين ، والقضاه .

ومنها أن يكون تائبا إلى الله تعالى من سائر الذنوب ، فلا يقع فى شرب خمر ، ولا لواط ، ولا زنا ، ولا غير ذلك من الفواحش ، ومتى وقع فى شيء من ذلك فهو عدو لله تعالى وعدو الله تعالى لا يكون إماما على المسلمين ، ولا حاكما بينهم ، وقد بلغنى عن شخص أنه يأتى الفواحش فى الموضع الذى يحكم فيه ، فمشيت إليه ، وعرضت ببعض ماهو مرتكبه ، فلم يسمع ، فحصل له جنون ، وطلع عليه الحب الفرنجى ، حتى أرمى ذكره ، وأنفه ، وعزل ، وصار عبره للناس ، فأنزلوه البيمارستان ، فكان يقول : إحملونى إلى فلان ، فكان يسألنى الخلاص مما هو فيه ، فأقول له سهم الله نفذ فى العبد فما بقى فيه رجوع ، ثم مات على سوء حال ، وكذلك وقع لى مع بعض الدفاتر ، فالعاقل من اعتبر بغيره والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم: أن لا يتكدروا من الولاة إذا أخذوا أحدا من زاويتهم ممن لهم عليه تبعة واحتمى بهم

لأن الفقراء، ولو ارتفعت درجة أحدهم، فهو معدود من جملة الرعيه لولاة الأمور، وعليه السمع والطاعة لهم سواء ولاة السياسة، أو ولاة الشريعة، وليس للفقير أن يتكدر من مثل ذلك ولا يظن أن فى هذا بهدلة للفقراء وخرقا لناموس الخرقة، فإن ناموس ( )[1] الدار أعظم من ناموس الفقير فيها ولكن إن كان ولابد له من التكدر فليتخذ طريقة الطاعة لله تعالى ظاهرا وباطنا بحيث لا يبقى له حال فى باطنه فضلا عن ظاهره إلا ويوجهه لحماية ذلك الفقير وربه يحميه إن شاء إما بواسطة الحال المؤثر فى الولاة من عزل ومرض وحبس بول، ونفخ ونحو ذلك وإما بكفهم عنه وعن جماعته، فلاشيء من ذلك فإن من أطاع الله تعالى أطاع له الخلق من الإناس والجن والوحوش، ومن يطلب الحماية من الله تعالى، وعليه ذنب من الذنوب، فقد رام المحال.

وقد خطف تمساح صبيا فى بلد سيدى ابراهيم الدسوقى، فجاءته أمه وقالت: يا سيدى ابراهيم أخذ التمساح ولدى، فأرسل معها النقيب ينادى على شاطىء البحر بأعلى صوته معاشر التماسيح حسب مارسم سيدى ابراهيم أن كل تمساح ابتلع صبيا فليطلع به، فطلع تمساح عظيم ومشى مع النقيب إلى باب مقام سيدى ابراهيم، فأمره الشيخ بأن يلفظه من بطنه، فأخرجه حيا سليما.

ثم قال للتمساح: مت بإذن الله تعالى، فمات ودفنوه تحت عتبة مقام سيدى ابراهيم.

وكذلك حكى لى خادم الفرغلى بن أحمد أن التمساح أخذ أخته، فأتى إلى الفرغلى، وأخبره بذلك، فقال ناد فى الموردة معاشر التماسيح كل تمساح أخذ أخت نقيب الفرغلى، فليأت بها فطلع تمساح أبيض كبير فهاجت الناس والأطفال منه، ومشى، حتى وقف

---

(١) مطموس من الأصل.

على باب زاوية الفرغل ولفظ الصبية سالمة ، فأمر الشيخ بقلع أنيابه ، فقلعها الحداد كلها ، وهو صابر له ، ودموعه تفرفر من عينيه ، ثم قال له : امض إلى البحر ولا تؤذ أحدا ، ففعل .

فانظر يا أخى كيف أطاع الحق تعالى لأوليائه وحوش البحر لما أطاعوه وطهروا سرائرهم وأعلم يا أخى أن لله عبادا اعطاهم التصريف فى الولاه وغيرهم ، وتركوا التصريف فيهم لما جبلهم الله تعالى عليه من الرحمة ، وبعضهم تصرف فى الظلمة بالاذن ، فلا يلزم من مسك الولاة أحدا من زاوية الشيخ نقص مقام ذلك الشيخ بل الواجب عليه تقديم ناموس السلطنة على ناموس نفسه .

وقد كان سيدى محمد بن عنان من أكابر الأولياء ، ورأيت السلطان الغورى أرسل الوالى فحبس زاويته وأخذ منها بعض فقراء الشيخ .

وممن كان يتصرف فى الولاة بالحال سيدى ابراهيم الجعبرى[1] وسيدى ابراهيم المتبولى، وسيدى محمد الحنفى ، فقتل كل واحد بالحال بإذن الله ما لا يحصى من الظلمة ، فكانوا آلة لموت الظلمة عند انتهاء آجالهم لا أنهم قتلوهم قبل انتهاء آجالهم بغير إرادة الله تعالى ، فافهم .

وممن كان يحبس بول الظالم ، حتى يقاسى الشدة العظيمة ، ثم يفرج عنه سيدى محمد

---

(١) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الشيخ إبراهيم الجعبرى رضى الله عنه بن معضاد بن شداد الزاهد العابد ذو الأحوال الغريبة والمكاشفات العجيبة وكان مجلس وعظه يطرب السامعين ويستجلب العاصين أخبر بموته قبل وفاته ونظر إلى موضع قبره وقال ياقبير جاءك دبير وكان يضحك أهل مجلسه اذا شاء فى حال بكائهم ويبكيهم اذا شاء فى وسط ضحكهم وكان يعظ وهو يمشى بين أهل مجلسه يسدى وينير وكان رضى الله عنه ناراً موقدة على الظلمة والولاة أماراً بالمعروف وله نظم وسجع كثير وتصوف مات سنة سبع وثمانين وستمائة ودفن بزاويته خارج باب النصر .

الخنق ، وحبس بول السلطان شعبان ابن السلطان حسن كذا كذا مرة ، ثم يرسل له رغيفا بزيت ويأمره بأكله ، فيفرج عنه .

وكان سيدى ابراهيم الجعبرى يفعل بالأمراء والملوك كذلك ولكن يرسل لأحدهم إبريقا يستنجى منه ، فينطلق بوله .

فالولاة عند كل الفقراء ، كالأطفال فى يد مربيهم يؤدبونهم كما يرونه يردهم عن أذى الناس .

ولما عمر سيدى أحمد الزاهد جامعه بخط المقسم أخذ الجمالى حمير التراب الذى عند سيدى أحمد ينقل له التراب الذى بمدرسته التى برأس الركن المخلق أرسل له سيدى أحمد ، فقال كلاهما مسجد الله تعالى ، ولم يرسل له حمير التراب ، فتوجه سيدى أحمد إلى الله تعالى ، فنقم السلطان على الجمالى فى ذلك اليوم ، وحبسه ، وبطلت العمارة مدة تسعة أشهر ، حتى فرغ سيدى أحمد من نقل التراب ، وقال : قد استحق جمال الدين الاطلاق ، فأطلقه السلطان ذلك اليوم .

فإن كان لك يا أخى حال فاحم نفسك ، وإخوانك ، وإلا فاسكت فإن اللسان والتوسل بأمير آخر فى الحماية لا يكفى عند الفقراء إنما ذلك من شأن العوام .

وقد كان سيدى ابراهيم المتبولى رحمه الله يقول الفقرا لا يعمل إلا بقلبه وأما يده ، ولسانه فأمرهما سهل .

وقد ذكرنا فى كتاب العهود المحمدية عدد من سلبهم الفرغل من العلماء ، ومن عزلهم من الأمراء ، فراجعه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم: إذا ولى السلطان على بلادهم ناسا من أمير أوقاض أن يتوجهوا إلى الله تعالى فى هضم نفسه ولين كلمته للرعيه رحمة به وبالرعية

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول: لابد لكل أمير أوقاض ولى من بلاد الروم على مصر أن يخرج إليه أصحاب التصريف بمصر إلى ناحية العريش فى طريق الشام لانه أول درك فقراء مصر، فإن جاء من البحر تلقوه من اسكندريه، فيهضموا نفسه، ويميلوا قلبه إلى الرحمة بالخلق والرعيه قياسا على ما ذكره أهل الكشف من أن الأمر الإلهى إذا نزل بالهلاك يمكث نازلا ثلاث سنين فلا يصل إلى أهل الأرض إلا بعد انسحاق صولته فى السموات وما بينهما إلى الأرض.

قالوا: ولولا ذلك ما أطاق أحد من الخلق حمله لشدة قبوله الخطاب بالأمر الالهى انتهى.

وكذلك القول فيما خرج من حضرة السلطان سليمان ابن عثمان مثلا له صولة عظيمة لأنه برز من حضرة من حكمه الحق تعالى فى بعض أقاليم الأرض، فيتوجه أولياء مصر فى بطو ذلك الباشاه أو ذلك القاضى أو ذلك الدفتر دار فى الطريق، فلا يصل إلا بعد شهرين أو أكثر، ويصير العوام يستبطونه، ولا يعلمون أن ذلك رحمة لهم.

فاعلموا ذلك أيها الأخوان ولوذوا بأولياء عصركم إذا خفتم من ظلمة ولا تكم والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم : أن يرشدوا من يطلب منهم قضاء حاجة من الولاة والقضاه وغيرهم

ويقولوا لهم لا نعرف قضا الحاجة الفلانيه إلا منكم إلى صحة الالتجاء بهم ، وعدم الإشراك بهم فلا يشرك أحدا من الخلق الفقراء الأحياء أو الأموات لأن الأمر مبنى على التوحيد لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا كما هو مبسوط فى كتب أصول الدين فى برهان التمانع ، وقد حققت أنا هذا الباب ، وخبرته كل الخبر مع الولاة الذين يترددون إلى من الكشاف ومشايخ العرب ، فلم أقدر أخذ بيد أحد منهم فى شدة، وهو يشرك معى غيرى .

وكذلك الحكم فى غيرى من الفقراء لو استند أحد إليه مع استناده إلى لا يقدر يأخذ بيده كذلك ، وما رأيت فى الولاة الذين يترددون على أحد راعى هذا الأمر معى مثل مراعاة شيخ العرب عيسى أمير الحاج فى سنة ثلاث وستين وتسعمائة ، فإنه إذا اعتقد شيخا لا يكاد يشرك معه أحدا ، ويصير يتخيله بين عينيه إذا مشى ، وإذا جلس ، وإذا نام ، ولما دعاه الباشاه اسكندر ، وجاء إلى مصر من بلاده سمعه شخص من الناس ، وهو يقول عند ركوبه من المعديه : يا بركتك يا فلان ، وأنا غايب وبينى وبينه نحو فرسخ ، ثم إن هذا الأمر الاعتقاد فى الولى الصالح فى نفس الأمر بل هو عام فى كل من اعتقده ذلك المكروب ولو (   )[1] يعتقد فاعلموا ذلك واعملوا عليه والحمد لله رب العالمين .

---

(١) مطموس من الأصل .

ومن أخلاقهم : أن يسوسوا الولاة بالترغيب تارة والترهيب أخرى بحكم الإقتداء بالرسول ﷺ

فإنه كان يدعوا أمته تارة بالترغيب وتارة بالترهيب .

فإن رأى الفقير الأمير مثلا متخوفا من العزل وشرع فى خراب البلاد ، وقال لا أعمرها لغيرى وعده بدوام الولاية وقال بكذب من قال إنك معزول ، وإذا رآه آمنا من العزل ، ومديده فى الظلم هدده بالعزل .

وقد وقع لى ذلك مع بعض الولاة ، فشرع فى خراب البلاد لما أشاع الناس أن الباشاه وعد غيره بالولاية بعد عزله هو ، فقلت له : إن بعض الفقراء قال لى : إنه كشف له عن دوام ولايتك ثلاث سنين ، لأنه الحد الذى يكشف لأولياء الدائرة الصغرى عنه ، وإذا مضت الثلاث سنين إن شاء الله تعالى ترى آخر ولايتك ثلاث سنين أخرى ، وهكذا ، فرجع عن ظلمه ، فلما ركن واطمأن رجع إلى الظلم ثانيا ، فقلت له : إن ذلك الفقير قال لى : أنا كنت أكلت تلك الليلة طعاما حجبنى عن الكشف الصحيح ، فشك وتردد ، ووقف عن الظلم ، وبالجملة فالفقير مع الولاة الآن كالحاوى مع الحيات لايكاد الأمير يسمع نصح الفقير ابدا ، والفقير قد كلف بالنصح للامير ، فيحتاج إلى سياسة تامة ، وعفة زائدة عن هداياه ، وطعامه .

فالعاقل من أتى البيوت من أبوابها والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم إظهار الكرامات إلا لغرض شرعي

كما جرى عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم ، وكم أعطى الحق سبحانه الكمل من الكرامات ، وكتموها ، وذلك لضيق هذه الدار عن أن تسع كراماتهم فادخروا ذلك للدار الآخرة لوسعها وبقائها .

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله يقول : لو أظهر العارف كراماته لخيف عليه أن يعبد من دون الله تعالى .

وسمعت سيدي محمد المنير بن عنان رحمه الله يقول : إنما يكتمون كراماتهم غالباً لأنهم يدعون الناس إلى شرع مقرر واضح كالشمس بخلاف الأنبياء يؤمرون بإظهار المعجزات لأنهم يدعون إلى شرع جديد ناسخ لشريعة من تقدم ، فاحتاج أحدهم إلى إظهار المعجزة لينقاد له من في قلبه مرض لما جبل الله تعالى الأنبياء عليه من كثرة الشفقة ، والرحمة علي قومهم فهم يودون لكل واحد من قومهم الهداية بأي وجه كان كما سأل السيد صالح عليه الصلاة والسلام ربه أن يخرج الناقة من الجبل حين طلب قومه معجزة ، ووعدوه بالطاعة إن أخرج لهم ناقة بالوصف الذى طلبوه ، انتهى .

وكان الشيخ محي الدين بن عربي رضي الله عنه يقول : نحن لا نشترط المعجزة فى حق النبي لأن من أجاب للدعوة إنما أجاب لما كان متوفراً عنده من الإيمان ، ولولا ذلك التوفر لم يستجب لرسوله بالمعجزات ، ولا غيرها كما وقع لأبي جهل ، وأبى لهب وغيرهما ، انتهى .

فا كتم يا أخي ما أعطاك الله تعالى من الكرامات جهدك فإن عند الحنفية قول بأن إظهار الكرامات لايجوز للاولياء والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : تحرير النية الصالحة فى سفر الحج أو زيارة الأولياء الذين فى بلدهم أو فى بلاد الريف أو البرارى ونحوها

وذلك بأن يكون الباعث للعبد على السفر ، والزيارة إمتثال أمـر الله تعالى ، والاشتياق إلى شعائر الله من رؤية البيت الحرام ، والمقام أو رؤية قبر النبي ﷺ ، أو رؤية ذلك الولى من حيث خصوص النسبة الخاصة إلى الله تعالى لامن حيث رؤية الأماكن على سبيل التفرج عليها ، وعلى حسن صنعتها أو بنائها ، ولا من حيث رؤية الجبال والبرارى والقفار كما عليه طائفة السواح .

وقد وقع أن عابداً من عباد بنى إسرائيل مر فى سياحته على مرج أخضر ، فأعجبه فقال فى نفسه : أصلى فى هذا الموضع ركعتين فصلاهما فأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام ياداود قل لفلان العابد إنى لم أتقبل منك هاتين الركعتين اللتين صليتهما فى المرج الأخضر لانك أشركت معى نزهة نفسك حين كنت فى المرج وأنا أغنى الشركاء عن الشرك ، انتهى .

ثم مما يخفى على العبد خفة سفر الحج أو الزيارة مثلا عليه لاجل سفر صديق معه تلك السنة ، وإذا رجع عن سفره معه تلك السنة ثقل عليه ذلك ، فمثل ذلك كالشرك الخفى فى العبادة ولا يشعر به كل أحد .

ولما حججت أنا وصديقى سيدى محمد الحنفى الشاذلى نفعنا الله ببركاته قلت له لما قرب السفر إيش حالك فى همة السفر فقال : أنا معك إن حججت حججت معك ، وإن تركت السفر تركته ، فنظرت أنا الآخر فى نفسى فوجدت نفسى كذلك ، فقلت له : ياسيدى إن حججنا شبه حج الاطفال وربما أطلع الحق تعالى على نيتنا فوجد الباعث لنا على الحج هو صحبة كل منا بالآخر ، فلم يقبل لنا حجاً لاننا لم نخلص النية له ثم ما خلصت النية فى حج السنة لاجل الله تعالى إلا بعد مجاهدة طويلة فإن من شرط الذهاب للحج أن يصير كل واحد يخف عليه الحج ولو ترك صاحبه الحج ، فليتنبه الفقير لمثل ذلك .

ونظيره المواظبة على صلاة الجماعة فى صلاة الصبح ، والعصر وغيرهما لاجل التحدث مع الأصحاب الذين يحضرون فى المسجد قبل الصلاة .

وكذلك زيارة مثل قبر الإمام الشافعى رضى الله عنه ، فقد يكون الباعث عليها تفرج النفس على الناس المجتمعين ، أو على الانس الذى يجدونه فى قبته ، ولولا ذلك لثقل عليه الزيارة ، فليفرض الزائر أن لو هدمت القبة ذلك الولى . وصار فى خرابه ولا أحد يزوره هل كانت نفسه تخف عليها الزيارة مثل ماهو الآن أم لا يعرف حال نفسه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة تعظيمهم لإخوانهم المسلمين

لاسيما العلماء والصلحاء فلا يمر أحدهم راكباً على إخوانه إلا لعذر ، وإذا سافر إلى بلاد الريف ، ومر على بلد ينزل عن دابته ، ويسوقها أمامه حتى يجاوز البلد ، وإن لم يكن أحد من أهل البلد جالساً في ناديها ، كما يفعل أهل الذمة إذا مروا على المسلمين كل ذلك أدباً مع أهل البلد ، وإكراماً لهم ، فقل بلد من بلاد المسلمين تسلم من ولي أو أولياء فيها .

وقد كان الشبلي رحمه الله يقول : ذلي عطل ذل اليهود — يعني — أنه بلغ من الذلة في نفسه أكثر من الذل الواقع من اليهود ، لأن ذل الذليل يكون على قدر معرفته بعظمة من ذل له ، ولا شك أن الشبلي أعرف بعظمة الله تعالى ، وبعظمة المسلمين من معرفة اليهود .

قلت : وما رأيت في عصري أحداً يراعي هذا الامر كمراعاة سيدي على البحيري رحمه الله تعالى كان ينزل عن دابته ، ويسوقها أمامه ، كلما مر على ناس يتحدثون ، وكان إذا سافر ، ومر على رعاة الغنم ، والبقر ، والجاموس ، ولو أطفالا ينزل لهم ، وإن كانوا لايعتقدون لما يفعل ولا يعرفون تعظيماً .

ويقول : نراعيهم من حيث أرواحهم الشريفة التي لم تتدنس بالمعاصي ، انتهى .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به يرفع الله قدركم في الدنيا والآخرة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن يكون مطمح بصرهم ببادى الرأى إلى أن الحق
تعالى هو الذى يولى ويعزل بواسطة خلقه وبلا واسطة

وإذا سألوا السلطان فمن دونه فى حاجة ولم يقضها لم يتسكدروا منه بل يراهون قضاء الله ويلتزمون الحكمة فى تغييرها أو عدم قضائها أصلا .

ثم لا يخفى عليك يا أخى أن أصحاب المراتب يجب عليهم مراعاة خاطر بعضهم ورد الأمور إلى بعضهم بعضا كما نرى نحن المراسيم التى تبرز من باب السلطان ابن عثمان إلى نحو مصر والشام مثلا فإنهم يولون الإنسان فى الوظيفة ، أو يعطوه جوالى ، ويردون الأمر بعد ذلك إلى نائبهم فى تلك المدينه ، أو ذلك الاقليم .

وكذلك أصحاب التصريف من الأوليا بالروم يردون الأمر إلى أصحاب التصريف بمصر ، فإن الحاضر يرى مالا يرى الغائب ، ولو كان الغائب من أهل الكشف ، فافهم فالعاقل من طلب حاجته قضا من باب الولاه وأصحاب التصريف معادون أحدها .

وقد راسلت أنا أصحاب التصريف بالروم فى شمول الأمير جانم الحزاوى بمصر بنظرهم حين نقم عليه السلطان ، وظن بنفسه الهلاك بكتابة ورقة بخط لايعرفه إلا أهل الكشف فأرسل الشيخ محيس البرلسى يقول لى ؟ وكان من أصحاب النوبة : أما كان من الأدب أن تشاوروا أصحاب النوبه بمصر قبل أن ترسل السؤال إلى أولياء الروم ، فمن ذلك اليوم ما كاتبت أولياء الروم ، حتى استأذن أولياء مصر ، وببركة استئذان أولياء مصر قضيت حاجته ورجع إلى مصر ، سالما ، ووصلت تلك الورقة إلى السلطان سليمان ، فقبلها ، ووضعها فى عمامته فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن لا يزاحموا على صحبة الولاة إلا لأجل منافع الناس مع العفه عن أموالهم جملة واحدة

وما نهى السلف الصالح عن المزاحمة على صحبة الولاة إلا إذا كانت الاغراض فاسدة فاتنة يتولد من المزاحمة البغضاء والشحناء ضرورة ، ويود كل واحد أن تكون هدايا ذلك الامير ، وعطاياه له وحده دون غيره .

وأما من يصحب الامير لله تعالى ، فلا حرج عليه بل ربما كان ذلك واجبا على الفقراء فى بعض الأوقات لأن القاعدة أن كلما يتوصل به إلى الواجب ، فهو واجب ، وكلما يتوصل به إلى المستحب فهو مستحب ، فإياك يا أخى أن تعتقد فى فقراء بلدك إذا زاحموا على الامراء أنهم يفعلون ذلك لحظ نفس بل إحملهم على محامل صحيحة وفوض الامر فى ذلك الذى رأيته إلى الله تعالى إلا إذا ظهرت منهم أفعال تفصح عما فى بواطنهم كأن يخوض أحدهم فى عرض أحد ويذكره بالنقائص عندالامير أوعند من يبلغه ذلك فإن مثل ذلك يوجب على الفقير الخالى من صحبة ذلك الامير أن ينكر على أولئك الفقراء الذين يمزقون عرض بعضهم بعضا لأجل ذلك الامير تقبيحا لفعلهم .

وهذه ميزان تطيش بالذر فإذا رأيت يا أخى طائفة العلماء أو الصلحاء مزدحمين على صحبة أمير ، وكل واحد يعظم الآخر فى غيبه ، وحضورا فاعلم بأنهم صحبوا الله تعالى أو للدار الآخرة . فلا يجوز لك الطعن عليهم ، وحكم الضد بالضد .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : إذا رأيتم أحدا من أخوانكم صحب أميرا ، وهو يعتقد فيه الصلاح جزما ، فلا يزاحموه عليه لانه يكفيه فى صحة إستفادة النية فى قضاء حوائجه عند الله تعالى .

وإن رأيتموه غير جازم فيه بالصلاح ، فلكم صحبته ، لأنه لايكفيه ، ولا يقدر على تمشية الشفاعات فى الناس عنده .

ولما صحبت محمد بن الأمير حجازى بن بغداد بلغنى أنه يقول : إن كان لله تعالى قطب على وجه الارض الآن ، فهو الشيخ الفلانى ، فحسنت اعتقاده فيه ، وتركت الإكباب على صحبته ، فلما وقع محمد فى شدة ، ولم يجر الله تعالى على يديه تفريجا له ترك صحبته ، ورجع إلي ، فصحبته ، وكذلك وقع لاخيه الامير عبد الله مع شخص آخر لما صحبه ، فتركته له ، فلما مسك عبد الله ، وأودعوه فى البرج ، ورلوا غيره ، ولم يجد من ذلك الشخص تفريجا رجع إلي ، فصحبته .

وكذلك ينبغى لى إذا تغير اعتقاده فى واعتقد غيرى أن لا أتكدر ، فإن تكدرت ، فهو دليل صريح على أن صحبتى كانت لغير الله تعالى .

ثم من علامة الاعتقاد الجازم ، للامير فى الفقير أن تصير كل شعرة فى الامير تعتقد أن الله تعالى لا يرد لذلك الفقير دعاء فى شىء يسأل ربه فيه ، ومتى كان عند الامير شك فى ذلك ، فهو غير جازم ، ولا تقضى له على يديه حاجة فاعلم ذلك واعمل به يا أخى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن يتوجهوا إلى الله تعالى فى صحبة الامراء

فلا يركنوا إلى الامراء ويعتقدوا دوام الصحبة وأنها تنفعهم فربما يتشكاب الفقير على الأمير ، ثم لا يزداد الأمير منه الا نفرة لاسيما إن جرحه أحد من الاعداء عند الأمير بخلاف من يهضم نفسه ، ولا يزكيها ، فإنه يزداد فيه اعتقادا .

ومن حين فوضت أمرى إلى الله تعالى وما جرحنى قط أحد عند أمير صحبته إلا ، وألقى الله تعالى فى قلب ذلك الأمير النفرة منه ، وقيض له من يجرحه عنده حتى كخرقه الحيض .

ومما جربته أنا أنه ما ذكر أحد من أقرانى عند أمير صحبته إلا ، وبجلت به ، وعظمته عنده ، فأخرج من صحبته سليما مستور العورة جزاء وفاقا .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لا يزور أحدهم أخاه إلا إذا وجد عنده داعيه لذلك والداعية هي رؤيه الزائر نفسه بعين الحقارة ، والذل ، والنقص ، وكثرة المعاصى الظاهرة ، والباطنه ، ورؤية للمزور بعين الكمال ، والعز ، والطهارة من سائر المعاصى ، وطلب الإمداد منه ، ومن هنا قالوا :

إذا قل رأس مالك فزر أخوانك .

فإن لم ير الزائر نفسه كما ذكرنا ، والمزور كذلك فالزيارة تكلف ، ونفاق ، ثم لا يقابله المزور الا على صورة نيته وما شاكلها .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : مابقى عند غالب الزائرين عقيده فيمن يزورونه ، ولا عند المزور مدد يفيض منه إلى غيره ، فزيارة غالب الناس اليوم عناء ، وتعب من غير ثمرة إذ الثمرة إنما تكون فى الأعمال الخالية من العلل فحرر يا أخى نيتك (وزر أخاك غبا تزدد حبا) كما ورد .

ثم لا فرق فى هذا الحكم بين زيارة الأحياء ، والأموات ، فإن الميت يقابل زائره كذلك بشاكله حاله ، ونيته ، فاخرج يا أخى من زيارة العادة إلى زيارة العبادة ولا تكن من الغافلين فإن لم يظهر لأخيك الحى أو الميت كمال عندك ، فلا تزره وإن ظهر لك كماله ، فإياك أن تحتقر غيره ، فربما ذلك الأخ الخفى أعلا مقاما ومرتبه من ذلك المشهور بالصلاح والدين .

وقد بلغنا أن شخصا نام عند قبر الإمام الليث بن سعد رضى الله عنه ، فطرقه البول ، فبعد عن قبر الإمام الليث بن سعد إكراما له وجلس بجنب جدار يبول ، فسمع صوتا من تحت الحائط يقول إن هذا الذى تبول عليه أعظم مقاما عند الله من الإمام الليث ، فغشى على ذلك الشخص من ذلك الصوت ، وقبض على فرجه ، وصار حايرا محصورا فى غاية الضيق انتهى .

فخفف يا أخى الأكل والشرب إذا طلبت زيارة القرافه لئلا تحتاج إلى البول أو غيره ، واعتقد فى إخوانك المسلمين الصلاح أحياء ، وأمواتا ، وكل سرائرهم إلى الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم: أن لا يشكروا أحدا بين الناس إلا إن كانت صفاته المحمودة تغلب على المذمومة

فإن تساوت صفاته المحمودة ، والمذمومة وقفوا عن الشكر لئلا يدخل أحدهم في تزكية من لم يزكه الشارع ﷺ ، إذ لا يُزكّى إلا من فاضت صفاته المحموده ، حتى لا يكاد يظهر المذمومة عين .

وقد قال أئمتنا : إن العدل في الشهادة هو من غلبت طاعاته على معاصيه .

وقالوا : لا تكره إمامة من تكرهه الناس إلا إن كان من يكرهه أكثر ممن يحبه هذا كان في حق من كرهه الناس بغير حق أما من كرهوه بحق ، فإمامته مكروهة على أن كلامنا في حق عامة الناس دون الولاة ، فإن من يمدحهم إلى الإثم أقرب ، وإذا كان الناس كلهم يذمونهم ، ولا يرجعون عن الظلم ، فكيف فيمن مدح ظالما غش نفسه ، وغش الأمير ، وغش الناس .

وما أقبح فقيرا يقبل من مشايخ العرب ، والكشاف الهدايا ، والصدقات ، ويصير يمدحهم في المجالس ، حتى ربما رفع مقامهم على مقام بعض العلماء ، والصالحين كما سمعت ذلك عن بعضهم في حق شيخ العرب عيسى ، وفي حق محمد بن داود بن عمر ، ففتشنا عن سبب ذلك ، فوجدت سببه أنهما رتبا له كل سنة شيئا من القمح ، والعسل ، والأرز .

فالعاقل لا يمدح أحدا إلا إن قال الحق تعالى له : صدقت ، وتعرف ذلك بموافقة المدح لقواعد الشريعة .

فاعلم ذلك يا أخي ونزه نفسك عن الإفراط في المدح كما تنزهها عن الذم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن لا يركنوا قط للولاة ولا يثقوا بدوام صحبة أحد منهم فإنهم يظنون أن العقيدة فى الفقراء تقتضى البقاء على صحبتهم لا أنهم هم المحتاجون لهذه الصحبة بينهم وبين الفقراء وقد تلمذ عليّ أمير منهم وفى يوم آخر تركنى وأصبح يتلمذ لفقير آخر فى يوم انتقد على ، فاعتقاده وانتقاده لهوى .

وقد صحبنى شخص من الأكابر ، وعرض علي مالا جزيلا ، فرددته ، فأنكر على أشد الإنكار ، وأصبح هذا شخص جاهل بالشريعة لا يعرف شروط الوضوء ، ولا يراه أحد يصلى ، فاتخذه شيخا ، وصار يتردد إليه ، وتركنى ، كأنه لم يعرفنى ، وصار يقول عن ذلك الشخص : إنه يصلى بمكة ، ولعمرى إن صحة العقيدة فى شخص إنما يكون متبعا للشارع ﷺ ، فمن أظهر لنا اتباعه الشريعة أتبعناه ، ومن تظاهر لنا بمخالفة أحكامها وآدابها أنكرنا عليه ثم الأنكار غيرة على شريعة سيدنا ومولانا محمد ﷺ أن ينصر من خالفها ، أو يعتقد ولم ينقل لنا عن أحد من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم أنه كان يتظاهر بترك الصلاة ، ويقول إنما صلى بمكة أبداً .

فالعاقل من اتهم سلفه فى الدين ، وأظهر عقيدته للعلماء والصالحين ، ليردوه إلى طريق الصواب ، ويخرجوه عن الخطأ .

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل إمام السنة رضى الله عنه يقول : كل من رأيتموه يسارر الناس بأمر فاعلموا أن عقيدته فيها دغل وليست العقيدة الصحيحة إلا ما أظهر بها صاحبها على رءوس الأشهاد .

فاعلموا ذلك أيها الأخوان ، وافرحوا إذا أنكر عليكم الأمراء ، وتعاطوا أسباب التنفير عنكم ، ولا تقربوا ممن يتزاحم عليهم من متصوفة زمانكم ، فعن قريب يندموا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن يحذروا أخوانهم الذين أقاموهم فى جمع الدنيا وإنفاقها على الفقراء من الطمع

ومن ترجيح نفوسهم بشىء على الإخوان إلا بقدر ما يعينه لهم الشيخ لاغير ، ومتى تخصص أحد منهم بشىء عن إخوانه ، فقد خان الله تعالى ، ورسوله ، والشيخ ، والفقراء ونفسه .

ولولا أن للدنيا قدرا فى قلوب غالب الناس ما حذر رسول الله ﷺ منها ، وقد أقمت عندى فى الزاوية شخصا لشئون الدنيا فلم يتورع حتى عزلته ووليت غيره فاحذروا أيها الإخوان ، ولا تخونوا ، فترتفع البركة ، واحذروا من التخصيص بشىء لو عرضتموه على الشيخ ، والفقراء لم يسمحوا لكم به ، وإياكم والاعتذار بأن لكم أولادا وعيالا ، فإن ذلك عذر غير مقبول عند الله تعالى ولم يأمركم الله تعالى أن تطعموا عيالكم حراما ، فخذوا ما حل لكم ، وأعملوا لكم حرفة ، أو خيروهم بين الإقامة معكم على الضيق ، أو الفراق كما خير رسول الله ﷺ نساءه ، حين ضاقت عليهم الدنيا ، ثم إن فى تخصيص النقيب غاية الفضيحة له إذا تخاصم مع أحد من الفقراء ، وقاموا عليه ، وقالوا له : احلف لنا بالطلاق أنك ما تخصصت عنا قط بشى كما وقع ذلك ، لخدام بعض المشايخ حين قام عليهم أهل الزاوية ، وأخرجوهم ، وعزلوهم فما قدر أحد يحلف منهم ، فافتضحوا فى الدنيا قبل الآخرة أكبر فضيحة ، لكونها على رؤس الأولين والآخرين .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان النقباء ولا تغتروا بحكم الله تعالى عليكم ، وتخونوا فإن الله تعالى قال : (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين[1]) والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٤٧

ومن أخلاقهم : أن يعاملوا أخوانهم بكثرة الإيثار إذا سافروا إلى الحجاز زيادة على إيثارهم الذى كانوا عليه فى الحضر أدبا مع الله تعالى ، فإنه مصاحبهم فى السفر صحبة خاصة قال ﷺ (اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل) .

وليحذر الفقير كل الحذر من أن يكون عنده فى طريق الحج عجب بشىء من أحواله، أو كبر على أحد من أخوانه خوفا أن يرجع من الحج ممقوتا وقد يطرق الإنسان من استحسان حاله إذا حج ، وظن أن الله تعالى غفر له ذنوبه ، فإن ذنب العجب والكبر هما اللذين أخرج لأجلهما إبليس من الحضرة ، ولعن ، وطرد حين قال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين[1]) .

ومن علامات عدم الكبر :

أن تفرض على نفسك أنها تتلمذ لأقرانها من مشايخ العصر الذين يحجون تلك السنة وتلقن عليهم الذكر ، وتصير تخدم أحدهم ، وتوضيه ، وتمشى فى ركابه إن استطعت حتى تنسلخ من إسم المشيخة ، وتصير معدودا من جملة خدام ذلك الشيخ لا يرفعك الناس عن ذلك ، فإن انشرحت نفسك ، لذلك ، فأنت متواضع تستحق نزول الرحمة عليك ، وإلا فأنت متكبر تستحق نزول المقت عليك هذا فى حق المشايخ الذين يربون الناس ، ويأخذون عليهم العهود ، فما بالك بأخذ المريدين .

وقد طلب شخص من إخوانى الحج فى سنة كان شيخ العرب عيسى أمير الحاج فقلت له : إنى أخاف عليك المقت برؤيتك نفسك على أحد من عباد الله تعالى فى تلك المواقف الشريفه فقال : أنا بحمد الله تعالى نفسى تراب فقلت له : لا تكون نفسك ترابا ، حتى تخدم الشيخ الفلانى ، وعينت له شخصا من المشايخ الذين حجوا فى تلك السنه ، وتبالغ فى خدمته بحيث تنسلخ عن كونك من أصحابى ، ويصير الناس يقولون عنك : إنك من أصحاب ذلك الشيخ ، فقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هذا أمر

(١) سورة الأعراف آية : ١٢

لا يقدر على فعله أشياخ الطريق الذين يسافرون فى هذه السنة ، فكيف أقدر أنا على ذلك ، فقلت له : إن حضرة الحق تعالى يحرم دخولها على من فى قلبه كبر على أحد من المسلمين فقال لا أقدر على نفسي تنكيس لخدمة ذلك الشيخ، فقلت له: أمكث فى مصر فإنه أولى بك خوفا من حصول المقت ، فإنك إذا كانت نفسك تنفر من خدمة من أشهرهم الله بالصلاح ، واعتقدهم الأمراء ، وترى نفسك عليهم ، فكيف بالعوام الذين لا يؤبه لهم .

وهذه مصيبة يبتلى بها غالب المتصوفة ، وطلبة العلم فضلا عن غيرهم ، فلا تكاد تجد شيخا يرى نفسه دون شيخ آخر إلا نادرا بل كل واحد يقول : أنا صاحب المقام وفلان هو المتطفل فى المشيخة وإن شككت فى قولى فاعرض ما قلته لك على مشايخ عصرك تعرف صدقى .

وقد كان الفضيل بن عياض مع سفيان الثورى بعرفة .

فقال له سفيان الثورى كيف ترى الموقف فقال له الفضيل : ما أجله لو لم يكن مثلي ومثلك فيه وأخذا يبكيان حتى بلا الثرى .

فإن كنت يا أخى وإخوانك الذين حجوا على هذا القدم ، فهى سنة مباركة بحجكم فيها ، وإلا فربما كان سببا لنزول البلا على الناس ، وما رأيت فى العلماء بمصر فى هذا العصر أكثر تواضعا من الشيخ ناصر الدين الطبلاوى ، والخطيب الشربينى ، وبقى جماعة لم يتمكنوا فى مقام التواضع ، فخفت عليهم العجب إذا عندتهم .

وقد طلعت مرة مع الشيخ ناصر الدين الطبلاوى للباشاه اسكندر ، حين كان بمصر فعمل نقيبا ، وأمرنى بالسكوت ، وصار ينصح الباشاه ، ويعظه ، ويخوفه ويقول : سيدى الشيخ هذا يقول لك : كذا وكذا ، وعجزت أنى أظهر مقامه للباشاه ، فأقسم على بالله تعالى أن لا أفعل ، وكان سبب طلوعى معه للباشاه المذكور أنه أرسل يستأذن فى أن ينزل للزيارة ، فخفت أن ينزل فيترتب على ذلك حقوقا لا نقدر على القيام بها ،

فرأينا طلوعنا له أخف من نزوله ، ومع ذلك لاث الناس بنا ، ووقعوا فى عرضنا ، وقالوا : هؤلاء يتحشرون فى الولاة ، فالله تعالى يغفر لهم ماجنوه آمين .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : لا يبلغ العبد مقام التواضع الكامل ، حتى يرى أن جميع إخوانه العصاة أحسن حالا منه ، فيرى أن الله تعالى يؤاخذه ، ويغفر لهم جميع ذنوبهم .

فاعلم ذلك يا أخى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن لا يبادر أحدهم إلى الأكل من طعام إخوانه
المشهورين بالصلاح فى عصره حتى يفتش ذلك الطعام ينظر
من أى طريق وصل إلى ذلك الصالح

هل هو من كسبه الشرعى ، أو من غيره أمن هدايا الولاة ، أو غيرهم ، فإن رآه من الكسب المذموم امتنع ، وإن رآه من الكسب المحمود أكل .

ولا ينبغى لفقير فى هذا الزمان أن يأكل من طعام أحد من أهل زمانه من غير تفتيش ، فربما كان يأكل بدينه ، وزهده ، وصلاحه ، أو ربما كان يقبل هدايا العمال ، وولاة الجور ، أو ربما كان يبيع على المكاسين ، وأكلة الرشا ، ويقول : هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا كما عليه بعض المتصوفة فى هذا الزمان .

وقد دخلت على شخص منهم له عمامة صوف وعذبة وله شهرة بالصلاح عند الأمراء نقدم لى دجاجة فأكلت منها ، فرأيت أمارة الحرام فأقيتها من بطنى على باب ذلك الشخص ، فقد تقدم إلى أنه لا يرد شيئا يأتيه من الولاة يقول : إنه قد أتى من عند الله تعالى[1] فعلمت أنه لم يشم من طريق الشريعة شمة ، فإن المالك الحقيقى سبحانه هو الذى حرم عليه ذلك الطعام ، فنعوذ بالله من هذا المذهب الذى يهدم أركان الشريعة .

وقد ذكرنا للأصحاب مرارا أن من علامات الحرام إذا أكله العبد أن تلعب نفسه فيلقيه من ساعته كما هو شأن من طهرهم الله تعالى من أن يستقر فى بطنهم طعام حرام .

ومن علاماته أيضاً حصول الثقل فى المعدة والظلمة فى البصيرة والقساوة فى القلب ، حتى لا يكاد تدمع له عين ولا يحن إلى موعظة .

ومن علاماته أيضاً أن يقوم من النوم كالمدهوش مخبط العقل ، فلا يصحوا إلا بعد ساعة .

فإن أخذ لك يا أخى معرفة الحرام بالميزان الشرعى قبل أكله فلا تخطئك العلامات

بعد أكله ، فعلم أن من الواجب على الفقير فى هذا الزمان أن لا يأكل إلا عند الاضطرار إن أراد أن يستبرئ لدينه لأنه إذا كان صلحاء الزمان لا يتورعون فكيف بغيرهم ، وهذا أمر قد يخفى على كثير ممن يعتقد الفقرا بحسن الظن من غير دليل ، وربما يشبع من طعامهم الحرام أو الشبهات ، ويقول : طعام الفقرا شفاء ، وغاب عنه أنه سم قاتل .

وقد كان الإمام سفيان الثورى إذا دعاه من لا يتورع إلى طعامه يأخذ معه رغيفا فى كمه ، ويأكل منه فليحذر العبد من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كتمان أحوالهم وكذا لا تهم إلا لمصلحة شرعية

فلا ينبغي لأحدهم أن يقول : دخل علينا البارحة فلان بعد أن فرغنا مجلس الذكر أو ونحن نسقي مع الفقراء القمح ، أو ونحن نغلي للصبيان ثيابهم أو ونحن نجمع للفقراء الوقيد ، ونحو ذلك ، لأن في مثل ذلك إظهار أنه يخدم الفقراء أو أنه له مجلس الذكر ، فيخبر بذلك من لا يعرفه بل يذكر الحكاية التي يحكيها من غير ذكر أمارة الذكر أو تنقية القمح ، ونحو ذلك .

وهذا الخلق يقع في خيانته كثير من الفقراء الذين يحبون الظهور في هذه الدار ، فليحذر الفقير من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا سافروا إلى الحجاز للحج فدوا أمير الحاج بأرواحهم فيحوطوه ويحوطوا ركبه من ويحرسونه ويحافظون عليه من كل سوء فإنه إذا هلك هلك الركب كله :

فلا أحد أتعب فيه القلب من الفقير الصادق إذا سافر إلى الحجاز لأنه يرى كل آفة نزلت فى الحج بسبب ذنوبه أو تفريطه فى تحويطهم بالآيات والأذكار التى وردت فى مثل ذلك ، ويرى أنه مؤاخذ يوم القيامة بكل من سرق جمله أو متاعه أو رقد من التعب وكذلك يرى أنه مؤاخذ بكل من سأله شيئاً من الطعام أو الماء أو المال الذى هو فى غنى عنه حال ذلك السؤال ، ويرى أنه لا يجوز له ادخار شىء عن المحتاج إليه ، ولو احتاج هو إليه فى المستقبل ، ويرى أيضاً أن من الواجب عليه إيثار الإخوان على نفسه فى إركابهم دابته ويمشى هو .

وهذه الأمور قليل من الفقراء من يقوم بها فى طريق الحج ، وما رأيت ولا سمعت أحدا من أمراء الحاج قام بهذه الأمور إلا الأمير عيسى بالبحيرة ، حين سافر أميرا بالركب المصرى ، والرومى ، فكان لا يتقدم الركب ليلا ولا نهارا . بل هو مقيم بالساقة يحمل العميان ، ويسقى العطشان ، يحمل العجوز على بغلته ، ويمشى ، وما يأتى المنزلة التى يحط بها الحجاج إلى نصف الليل بعد أن نزل الناس ، واستراحوا وأكلوا وشربوا ، وربما وصل إلى المحطة فقالوا له : إن فى ذروة الجبل الفلانى أو الشجرة الفلانية جماعة منقطعين فيأخذ الجمال والماء ، ويرجع إليهم ثانياً فلا يصل إلى المحطة إلا وقد سار الحج ، فيدوم على السير من غير استراحة رضى الله تعالى عنه ، وذلك فى سنة ثلاث وستين وتسعمائة .

وقد كنت بحمد الله تعالى أحوطه وأحوط الركب فى كل مرحلة أول ما يسير الركب بقولى ألف مرة وأنا أحلق بإصبعى على الركب كله : (بسم الله الرحمن الرحيم وآية الكرسى ، ثم أقول : اللهم إنى أسألك بك أن تصلى وتسلم على سيدنا ومولانا

محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين وأن تقوى هذه الجمال والدواب على حمل أثقالها ، وأن تحفظها وأصحابها من الآفات ، حتى تدخل إلى أوطانها إنك على كل شيء قدير) ألف مرة كذلك بتوجه تام بحسب المقام فلا أفرغ من الألف إلا وجسمي ذايب من شدة التعب ، فكنت أتعب بدنا من الماشي ، وواسيت المحتاجين بجميع ما كان معي من الثياب ، والعمايم ، حتى لبست ثوب العيال بقلنسوة من غير عمامة ، وقطعت الخيمة ، وفرقتها على المحتاجين ، ليستدفوا بها حين فنى ما كان معي من المال ، والثياب ، ثم لما كسانى الله تعالى العمامة والثياب فى الطريق ثانيا ، وثالثاً أعطيتها للسائل ، فبذلتها ثلاث مرات فى الطريق ، وكان آخر عمامة أعطيتها للسائل من حين ، ودعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألنى فقير شيئاً يتقوت به وأنا خارج من باب السلام ، فأعطيته العمامة كلها دون أن أقطع له منها قطعة كما هو شأنى دائماً تعظيما لجناب سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقربى منه فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا دخلوا مضيقا أو نزلوا فى المحطة أن يقدموا جمال جارهم على جمالهم

ويتخلفوا إلى ساقته ويدخلوا جمال جارهم وأمتعته إلى داخل الركب ويجعلوا جمالهم وأمتعتهم إلى خارج جمال الجار ، وأمتعته كالسور عليه ، والوقاية له ، ولا يقولون : إبدأ بنفسك فى الحفظ على الوجه الذى يتبادر إلى الفهم بل يرون أن بدأتهم بحفظ نفوسهم ، وأمتعتهم هى بإيثارهم الغير على أنفسهم من حيث أن الله تعالى يجازيهم على حفظهم لأمتعة جارهم ، ويحفظهم كذلك ، ويرسل لهم ملائكة يحفظونه من سائر الآفات كما شاهدنا ذلك فى منزلة بندر الازلم ، فخرجت بجمالى ، وجعلت جمال جارى سيدى محمد الحنفى داخل جمالى ، فرأيت تلك الليلة الملائكة ، وهى محيطة بجمالى تحفظها من السارق ، وجاء شخص من العرب ، ليسرق من جوارنا ، فقطعت رأسه .

وهذا الخلق قل من يتخلق به من الفقراء بل رأيت بعضهم يدفع جمال جاره إلى الوقوع فى الوادى ، ويحمى جمال نفسه ويزاحم جاره الداخل ليجعله خارجا وجمال نفسه داخلا ، وربما تخاصما ، وذلك مخالف لأخلاق الفقراء ، فليحذر الفقير المتشبه بالفقراء من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن يخففوا عن الجمال أثقالها

سواء أكانت الجمال ملكا لهم أم كانت عارية ، وذلك بأن نحمل ركوة الماء التى يشرب منها ويعلقها فى رجل الجمل نحو رطل أو رطلين من الماء ولا يحمل فى الأسقية من الماء إلا بقدر الحاجة الشرعية ، وإذا أشرف على منهل الماء ، ورآه بالعين ، فمن المعروف أن يسقى ذلك الماء الذى فى الأسقية للحيوانات أو يصبه فى الأرض تخفيفا عن الجمال إن لم يجد من يشربه ، ولا ينبغى أن يحمل الجمال فوق ما يحتاج من المنهل الأول إلى الثالث إذا ما كان منهل الثانى مالحا بل يخفف عن الجمال ، ويشرب من المالح كما يفعله المترفهون ، فيحملون ماء بحر النيل من مصر إلى العقبة أو من العقبة إلى بركة الحاج لأجل ملوحة ماء عجرود ، ونخل ، وكان الأولى لهم أن يحملوا الجمال من الماء بقدر ما يكفيهم إلى الماء المالح فقط ، ووالله إنى كنت أطعم الجمل الذى كنت راكبه السكر ، والكعك ، وأوثره على نفسى ، وكنت أقبل رجله كلما أردت ركوبه أو النزول عنه ، وأقول له : جزاك الله عنى خيرا فى حملك لهذه الجثة القذرة ، فإن الدواب تفهم ما يقال لها ، ولكنها عاجزة عن النطق كما يعرف ذلك أهل الكشف ، وكان لى قمقمة أشرب منها وأعلقها فى قتب الجمل تسع نحو رطل من الماء فقط ، وكان صاحب الجمل يقول لى : مع الأخ الإذن فى تعليق القلص الذى يسع عشرة أرطال ، فلا أطيعه ، فكنت أنا أشفق على الجمل من صاحبه ، وكنت أرى أن الكرا الذى أعطيته له فى الذهاب والإياب لا يجى كرا جمل مرحلة واحدة ، وكثيرا ما كنت أقول له : ذلك فيفرح ويصير يخدمنى أشد الخدمة عكس من كان يقول له : يا أخى ما حملتنا بلا شىء ، وإنما حملتنا بأجرتك وليس لك علينا جميلة ، فإنه يقسى قلبه عليه ، أو يصير يخدمه كرها عليه .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان ، واعملوا به تجنوا ثمرته ، ولا تخالفوا تتعبوا وتندموا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن يتفقدوا إخوانهم فى بندر الأزلم والعقبة إذا وصلت إليهم هدية من مصر من جبن وعسل وفول وغير ذلك

فإن نفوس الاخوان الذين لم يرسل أحد إليهم شيئا يستند إلى التطلع ، لمثل ذلك أكثر مما تتطلع إليه فى الحضر إذ الحلاوة ، أو البطيخ مثلا مفقود فى غالب طريق الحجاز ، وهذا من محاسن الأخلاق ، فليتنبه الفقير له ولا يأكل الهدية وحده ، فيسقط من عين رعاية الاخوان ، والجيران ومن شك فليجرب ، ولما وصل إليّ ملاقاة الأزلم فرقتها على الاخوان ، والجيران من دراهم ، ودقيق ، وفول ، وبصل ، وجبن ، وغير ذلك ، فصرت بينهم كالأمير ، وكأنى ألبستهم خلعة سابقة بعد أن كنت مكشوف العورة حافيا مكشوف الرأس ، وصار الاخوان يغدون إلى بالود زيادة على ما كنت عليه قبل ذلك .

وقد شاهدت شخصاً يدفع جملي إلى المضيق قبل ذلك ، فلما أطعمته ، صار يقدم جملي فى المضيق ، ويؤخر جمله هذا أمر شهدته أنا منه .

فاعمل يا أخى بهذا الخلق تفلح والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا وصلوا إلى مكة المشرفة أن لا يغفلوا عن الدعاء فى مواطن الإجابة لأنفسهم وإخوانهم

وهم فى تقديم نفوسهم ، وإخوانهم على مشهدين أو مشاهد ، فتارة يقدمون نفوسهم فى الدعاء إذا شهدوا أنهم أكثر خطايا من غيرهم ، وتارة يؤخرونها إيثارا لاخوانهم بقطع النظر عن كثرة خطايا الناس ، وتارة يقدمون الغير على نفوسهم رجاء الاجابة ويؤخرون نفوسهم ليغفر لهم بحكم التبعية لهم ، وتارة يستحيون من الله تعالى أن يتلفظوا بسؤال المغفرة لاستلزامها استحضار تلك الذنوب القذرة فى تلك الحضرة الشريفة ، وتارة يقولون : اللهم اغفر لجميع هذا الجمع ، ولا تردهم من أجلنا ، وتارة يقول أحدهم : اللهم إنى قد دنست هذا الجمع بدخولى بينهم ، فاغفر لى ، حتى لا يتدنسوا بى صدقة من صدقاتك على يا أرحم الراحمين ، وكان هذا دعاى فى أكثر طواف بعد الأذكار الواردة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : كل من كان أكثر ذلا فى أيام الحج كان أكثر مغفرة ، وربما شفعه الله تعالى تلك السنة فى جميع أهل الموقف انتهى .

قلت : وقد جمعنى بعض العارفين فى سنة ثلاث وستين وتسعمائة على الثلاثة الذين شفعهم الله تعالى تلك السنة فى أهل الموقف ، وكانوا زمناء واحد منهم يمشى بعصاتين من تحت إبطه ، والآخران يزحفان على الأرض ، والثلاثة من أهل اليمن ، وكسوت واحدا منهم قميصا فقبله منى ودعا لى الله تعالى فانظر يا أخى كيف شفع الله تعالى هؤلاء الزمنا الثلاثه فى أهل الموقف وفى المتكبرين ، وأهل الدعاوى حين نزلوا بنفوسهم إلى العجز الشديد رضى الله عنهم .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا على تحصيله والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا سافروا إلى الحج وحفظ الركب تلك السنة من قطاع الطريق ومن الغلا وموت الجمال

بدعائهم ، وتحويطهم ، الركب أن لا يصغوا لقول بعض الناس ، وكيف لا تكون هذه السنة مباركة ، وفيها سيدى الشيخ فلان ، فمن صغى لمثل ذلك بال الشيطان فى أذنه ، وربما أدركه العجب ، والكبر ، فهلك مع الهالكين .

فيكون على علم الإخوان أن الله تعالى يقيم كل سنة رجالا عليهم درك الحج ذهابا وإيابا لا يكاد أحد يعرفهم ، وأما الفقراء الظاهرون فربما كان أحدهم عبد بطنه ، وفرجه ، ومثل ذلك لا يحفظ الله تعالى به الركب فإياكم والغلط .

واعلموا أن من شرط الفقراء الصادقين : أن يروا كل خير حصل للناس من الله تعالى لا بواسطتهم ، ويروا كل بلاء نزل على الناس بواسطتهم .

ولو تأمل الفقير الصادق فى هذا الزمان لوجد نفسه قد استحقت الخسف بها لولا عفو الله تعالى ، فكيف يكون مثله سببا لجلب خير إلى أحد من العباد هذا مادرج عليه الخاصة من أولياء الله تعالى ، فالحاذق من تبعهم على ذلك ولو تقليدا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : الاعتنا بمن تغير عليهم من الأصحاب وجفاهم بعد المحبة والقرب منهم ويجعلون اللوم علي أنفسهم فى ذلك

ولا يقولون إن فلانا ليس له عندنا حق ، حتى يتغير علينا لأجله إنما ذلك حسد منه ، فإن ذلك ليس من أخلاق الفقراء ، ومن سلك هذا المسلك كثر أعداؤه .

وقد كان ﷺ يتفقد من انقطع عن مجلسه من أصحابه ، ويسأل عن سبب تخلفه ، وكثيرا ما كان يذهب إلى الرجل ويقول : يا أخي لعل أحدا أبلغك شيئا تكرهه) انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من شرط الكامل أن يقدر على سياسة الوجود كله والأخذ بخواطر جميع الناس ، ولا يتساهل فى قلة سياسة أحد منهم فتفوته هدايتهم وهو مطالب بهداية جميع العالم بحسب الإرث المقام المحمدى .

قال بعضهم : ومما وقع لى أن بعض الأقران هجرنى نحو سبعة عشر سنة ، وأنا غير مكترث به ، وأقول ليس له عندى حق شرعى تصح له المطالبة به فى الدنيا والآخرة .

قال : ثم تأملت فإذا فى قلبى له نوع من البغضا . والشحنا وأردت أجعله كمن يحبنى ، ويوادنى ، فما قدرت .

قال : فلو أنى كنت سارعت لإزالة ما عنده منى أوائل الهجر لما تربى له فى قلبى بغضا ، ولا حقد قال تعالى (واهجرهم هجرا جميلا)[1] ، والجميل هو الذى لا حقد فيه فإياك يا أخى ، والتساهل فى سياسة الناس ، فيتربى فى باطنك الحقد ، والعداوة ، وخالط الناس الذين يؤذونك ، ويكرهونك ، وإذا بلغك كراهة أحد منهم لك فقل للناس : أنا ما رأيت من فلان الاخيرا ، ويظهر لى منه المحبة ، فجزاه الله تعالى عنى خيرا ، فإذا بلغه عنك ذلك ترك عداوتك ، وأظهر المحبة ، والسكوت عن ذكرك بالنقائص ، ثم

---

(١) سورة المزمل آية : ١٠ .

إذا مست من هجرك بغير حق ، وتوقف الأمر على الذهاب إلى داره ، وتقبيل يده ، ورجله ، فافعل ، ولا تطلب منه أنه يذهب إليك أو يقبل يدك ، فإنه فى حجاب عن ذلك لما هو عليه من الرعونة ، وغلبة نفسه عليه[١] .

فالله الله أيها الاخوان فى العمل بهذا الخلق العظيم والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الإمام الطوسى فى كتابه اللمع : باب فى ذكر آدابهم فى الصداقة والمودة :

قال الشيخ رحمه الله تعالى : قال ذو النون رحمه الله تعالى :

ما بعد الطريق إلى صديق ، ولا ضاق مكان من حبيب . وسمعت أبا عمرو إسماعيل بن نجيد يقول : سمعت أبا عثمان يقول : لا تثق بمودة من لا يحبك إلا معصوما .

وفيما حكى جعفر الخلدى عن ابن السماك رحمه الله تعالى ، أنه قال له صديق : الميعاد بينى وبينك غداً نتعاتب ، فقال له ابن السماك رحمه الله تعالى : بل بينى وبينك غداً نتغافر ، ويقال : إن كل مودة يزداد فيها باللقاء فهى مدخولة فى المودات .

وسئل عن حقيقة المودة فقال : هى التى لا تزداد بالبر ولا تنقص بالجفاء . وهذه الحكاية عن يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله تعالى . وقال بعضهم : الإعراض عن الصديق إبقاء على المودة .

قال أبو العباس بن مسروق رحمه الله تعالى ، فيما بلغنى : وفى هذا سنة عن الرسول ﷺ قوله لأبى هريرة رضى الله عنه : زرغبا تزدد حبا وقيل ليحيى بن معاذ رحمه الله تعالى : كيف حالك فقال : كيف حالك من يكون عدوه داؤه وصديقه بلاؤه ؟

وقال الجنيد رحمه الله تعالى : لقد كنت أرى أقواما تجرى منهم النظرة فهى زادى من الجمعة إلى الجمعة .

وقال بعض المشايخ : إذا صح لى مودة أخ فلا أبالى متى لقيته .

وعن النورى ، رحمه الله تعالى ، أنه قال : الصديق لا يحاسب بشىء ، والعدو لا يحسب له شىء .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إذا كان لك صديق فلا تسؤه فيك بما يكرهه .

وعن جعفر الخلدى قال : سمعت أبا محمد المنازلى رحمه الله تعالى يقول : من أراد أن تدوم له المودة فليحفظ مودة إخوانه القدماء .

ومن أخلاقهم : أخلاص العمل لله عز وجل لا لثواب فى الآخرة

كما عليه أصحاب الهمم المنحطه عن همم الرجال ، ثم إن قصرت هممهم عن العمل لله تعالى ، وعملوا لثواب الآخرة لا يكون مقصودهم بثواب الآخرة إلا مشاهدة الحق سبحانه ، ومجالسته فى تلك الدار لاغير ذلك، ومتى كانت همتهم التمتع بالحور ، والأكل ، والشرب ، وطيب الروايح ، فليس هم من فحول الرجال أصحاب الهمم لقربهم من صفات النساء ، وأصحاب الحجاب بمحبة الدنيا ، وشهواتها ، وإن كانت الآخرة ليست بدار حجاب كان من طلبها لغير مشاهدة الحق تعالى فيها محجوب عن الله تعالى بذلك الغير [1] .

وكان سيدى على بن وفا رضى الله عنه يقول: من طلب الجنة لهوى النفس وشهوتها من الشرب والجماع ، فهو امرأة وأما من عمل لغير الله تعالى فعمله جاحد من أصله لا يصل إلى الدار الآخرة منه شيء ، ليثاب عليه أو يعطى منه أصحاب الحقوق التى للخلق عليه بل يفنى بفناء الدار الدنيا .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول مرارا : من عمل عملا من الأعمال ، وأراد به صرف وجوه الناس إليه ، والاصغاء إلى محدثهم له عليه ، فعمله حابط يفنى تبعا للدار التى عمل فيها عكس من عمل للدار الآخرة، فإن من لازمه البقاء ، والاخلاص والوصول إلى الدار الآخرة ، ليثاب عليه ، ويعطى منه أصحاب الحقوق انتهى .

---

(١) وأنشد الشبلى ليلة أن مات قائلا :

كل بيــت أنت ساكنه ... غــير محتاج إلى السرج

وجهــك المأمــول حجتنا ... يــوم يأتى النــاس بالحجج

وروى أبا على الروذبارى رحمه الله : دخلت مصر ، فرأيت الناس مجتمعين ، فقالوا: كنا فى جنازة فتى سمع قائلا يقول :

كبرت همة عبد . . طمعت فى أن يراكا

فشهق شهقة فمات .

فياخسارة من عمل عملا لغير وجه الله تعالى لأنه إما يحبط عمله بالكلية ، وإما ينقص ثوابه .

فعلم أن كل عمل دخله الرياء فليس هو من أعمال أهل الله تعالى ، ولا الدار الآخرة ، وإنما ذاك من أعمال أبناء الدنيا الذين قصروا بصرهم عليها ، وحجبوا عن معاملة الله عز وجل ، والدار الآخرة .

وسمعت سيدى محمد المغربى الشاذلى رضى الله عنه يقول : لايصح للعبد الاخلاص فى العمل إلا بعد زهده فى نعيم الدارين ، وهنا يعمل لوجه الله تعالى خالصا ، وهناك يصطفيه الله تعالى ، ويحبه لأنه خرج عن العلل انتهى .

وبالجملة ، فالكامل من يقلب الأعمال الدنيوية عدة بالنية إلى العمل لوجه الله تعالى ، ويعطى كل ذى حق حقه على الكشف ، والشهود ، ولا يحجب بذلك عن الله تعالى كما أوضحناه فى كتاب العهود والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : العمل على تحصيل معرفة الله تعالى المعرفة المعروفة بين القوم

وهو قدر زائد على المعرفة عند علماء الكلام ، فإن المعرفة عند هؤلاء تتزلزل بالأدلة المتجددة لهم مع الأنات ، ولا هكذا معرفة العارفين بالله عز وجل ، فإن ماعرفوه به فى دار الدنيا لا يتغير ، ولا يتبدل فعين ما عرفوه به فى الدنيا هو عين ما يكون لهم فى الآخرة ، فكما يكونون معه فى الدنيا كذلك يكونون معه فى الآخرة كل ذلك بحسب الارث لرسول الله ﷺ ، فإنه لما أسرى به ورأى من آيات ربه الآية الكبرى لم يزدد علما عما كان عليه فى الأرض بل رأى عين ما كان يعرفه ، وكذلك السيد موسى عليه الصلاة والسلام قيل له كيف رأيت ربك قال : رأيت فى التجلى ما كنت أراه قبل ذلك فكنت أراه ولا أعلم أنه هو ، فلما تجلى على التجلى العام علمته فى كل شىء ، ومع كل شىء ، كالسلطان إذا خرج بين قومه متنكرا ، ومشى بينهم ، فقد رأوه ، وما رأوه لأنهم لم يعلموا أنه هو السلطان انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من علامة الكامل فى المعرفة أنه يفهم مشكلات الكتاب والسنة ، ويحل معضلاتها ، ويفتح مغاليقها ، ولا يحتاج إلى نظر فى كلام أحد من العلماء ، فمن أدعى كمال المعرفة ، وهو يجهل شيئاً من فروع الشريعة ، فهو مفتر كذاب فى دعواه ، وربما يبدو له آخر النهار دليلا خلاف ما كان عليه آخر أول النهار ، فيحكم على نفسه بالخطأ فى الاعتقاد الأول وقد قال تعالى : (قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى)(١) فلم يحكم بالبصيرة إلا لمن صح له قدم الاتباع ، وكل من تزلزل بالأدلة ، فما هو على بصيره من أمر ربه ، فإن البصيرة لأهل الله تعالى ، كالضروريات لأهل العقول فافهم ، وأكثر من ذكر الله تعالى بشروطه على يد شيخ صادق ، حتى يرق حجابك ، وتنكشف لك الحجب وإلا خيف عليك أن تموت على شك فى الله تعالى نسأل الله العافيه والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة يوسف آية : ١٠٨ .

ومن أخلاقهم : فرحهم بالبلاء إذا نزل بهم وحزنهم إذا نزل بالعامة

خوفا عليهم من الوقوع فى السخط على مقدورات الله عز وجل عليهم ، وإنما كانوا يفرحون بالبلا إذا نزل عليهم مسارعة إلى مايكون به محبة الله عزوجل لهم عملا بحديث : (إذا أحب الله عبدا ابتلاه) ، وإن وقع أن أحدا من العارفين حزن إذا نزل عليه بلاء ، فإنما ذلك خوفا أن يقع منه ضجر أو سخط حين تتخلف عنه عناية الله عز وجل كما يقع للعامة .

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول : ماثم ، ولى حق له قدم الولاية إلا بعد وقوع الابتلاء والامتحان .

فلا بد للولى من بلا فى جسده أو فى ماله أو أولاده أو أصحابه أوفى عرضه فإذا صبر ورضى فيه نقله الله تعالى إلى مقام المحبوبين ورجع عن أن ينزل بهم البلا إذ العبد يبتلي من حيث كونه محبا ، ويتنعم من حيث كونه محبوبا كما أنه لابد له من التألم بالبلا ، ثم التنعم به ليحوز الرضى كما هو شأن كل العبيد .

وقد كان من سرة الشيخ أبى الحسن الشاذلى إلى ركبته سبعة عشر مرضا منها الفتاق ، وحصر البول ، والحصاه ، والباسور ، والناصور ، والقولنج ، وكان إذا داوى مرضا بشىء تحرك منه المرض الآخر ، واشتد ألمه ، وكان يقول : الحمد لله على ذلك فإن فيه عدم الغفلة عن الله عزوجل وبيان عجز العبد ، وافتقاره إلى ربه ، ولولا المرض لكنا كالبهائم السائحة .

وقد قال ﷺ يوما لأصحابه : (أيكم يحب أن لا يمرض .

فقالوا : يارسول الله كلنا نحب ذلك .

فقال ﷺ : أتحبون أن تكونوا كالحمر انتهى .

وكان الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه يقول : ما من ولي حق له قدم الولاية المحمدية إلا بعد أن ابتلاه الله في جسمه وضنك في معيشته ثم بأن يرضوا وبالبلاء وضيق المعيشة إلا حبا لله عز وجل ، ومتى لم يزدد محبة بذلك ، فقد عزل عن الولاية ، فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا على تحصيله والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إرشاد الناس إلى طرق التصبر والصبر

فإن لم يتصبروا ولم يصبروا ، وأرادوا دفع البلاء عنهم فالبأمرهم بأن يرسلوا مناديا ينادى فى الناس : معاشر الناس إن أردتم أن لا ينزل عليكم بلا ، فتوبوا إلى الله تعالى عن كل معصية ظاهرة ، أو باطنه ، والبلاء يرتفع عنكم لاسيما البلايا النازلة على أهل النصف الثانى من القرن العاشر ، فإنها تترادف جدا على الناس ، ولا يهتدى غالبهم لسد الباب الذى وصل منه تلك البلايا .

وقد كان سيدى عبد القادر الجيلى رضى الله عنه يقول : من أراد رفع البلا عن أهل زمانه ، فلينادى فيهم أن توبوا إلى الله تعالى ، ولا تتعدوا حدوده فإنهم إذا فعلوا ذلك ارتفع البلاء ضرورة قال الله تعالى : (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون[1]) وأما طلب رفع البلاء مع تمادى الخلق فى الذنوب والخطايا فإن ذلك لا يحدث رفعه على يد ولى ، ولو كان القطب نفسه وكان ذلك كإتيان الأمور من غير أبوابها انتهى .

فإن من يذنب ومع ذلك يطلب رفع البلا عنه كمن زرع شوكا ، ويريد أن يثمر له رطبا ، أو كمن يزرع الحنظل ، ويريد أن يثمر له عسلا ، وفى ذلك طلب قلب الحكمة الالهية أيضاً وهو محال .

وسمعت سيدى عبد القادر الدشطوطى رحمه الله يقول : كيف يقدر ولى فى هذا الزمان على رفع البلا عن الناس ، وهو يرى كثرة المنكرات ، وتعدى حدود الله تعالى فى زمان ، صار فيه الإسلام غريبا ، وذهبت فيه الأخيار ، وغلبت فيه الأشرار ، وصار المؤمن فيه كالشاة الضعيفة ، وقد تقادم عصر النبوة ، واقتربت الساعة ، وقد قال أرباب البصائر : لاينقضى عصر إلا وينقضى إيمان أهل العصر الذى بعده ويقينهم وورعهم، وزهدهم وخوفهم من الله تعالى وخشيتهم منه بحكم الوعد السابق من رسول الله ﷺ فى نحو قوله : (لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس) فكيف يصح من ولى

---

(١) سورة الأنفال آية : ٣٣ .

معارضة الشارع باطنا ، فيما أخبر ، وإنما ينهى الناس بالقال قياما بحق الشريعة مع علمه بالأمر عليه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمة الله عليه يقول : ما ضل من ضل من أهل زماننا إلا بدعواهم العلم ، والصلاح بغير حق ، فعاقبهم الله تعالى بالجهل ، وحرمان الوصول إلى شيء من مقامات الصادقين عقوبة لهم ، وصارت أعمالهم تكذب دعاويهم ، فيتكلم أحدهم فى الورع ، وهو يأكل الحرام ، ويتكلم فى الزهد ، وهو يجمع الحطام ، ويتكلم فى قيام الليل ، وهو ينام ، ولو أنه عكس الأمر ، ولم يدع شيئا من المقامات ، لربما ستره الله تعالى ، ولم ينكشف عيبه للناس .

وسمعته مرة أخرى يقول : من علامة الولى كثرة ذكر الله تعالى بالغداة والعشى وخفة مؤنته على الناس ، وشهود ثقل مؤنته هو عليهم ، وحفظه حدود الله تعالى ، والإخلاص فى العمل ، وعدم رؤيته به عن الناس أو شهود أن له مقاما عند الله العظيم لعلمه بأن الله تعالى غنى عن عباده الأنبياء ، والصالحين المخلصين ، فكيف لا يكون غنيا عن عباده المخلصين انتهى .

وسمعته أيضاً يقول لا يصدنكم عن الولى إنكار بعض الناس عليه فذلك حال الأوليا فى كل زمان غيرة من من الحق تعالى عليهم أن يلحقهم عجب من تواضع الناس لهم ، واعتقادهم ، فيكون الإنكار عليهم كالمدح فى حقهم وما بعث الله تعالى نبيا إلا وجعل له عدوا من الجن والإنس يبعد أتباعه عنه ويكرههم فيه ، ويصد الناس عنه (١) .

---

(١) وقد حدث ذلك لسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ وسلم فكان من شبه المشركين عليه ﷺ ما أخبر به الله سبحانه وتعالى بقوله : (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا ، إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) تبين لنا هذه الآية مدى غرور المشركين واستكبارهم ، فإن جميع الحجج التى ذكروها من قبل سقطت وتهافتت ، ولكنهم أصروا على طغيانهم ، فاستعملوا طريقة الاستهزاء بشخص الرسول

• • • • • •

ﷺ وهذه الطريقة فى الجدل لا تستعمل إلا بعد فقدان الحجة ، وضعف المنطق ، وهذا يدل على مقدار المناعات التى وقع فيها المشركون فهم يعلمون أن رسول الله ﷺ كان أحسنهم خلقاً وخلقاً ، وأوسطهم نسباً ، ويعلمون مقدار عناية الله سبحانه وتعالى به ، منذ مولده ، حتى بدء دعوته ، ومظاهر الخصوصية التى أحاطت به فى تلك الفترة ، بل إن أكبر المظاهر التى تدل على بطلان منطقهم قولهم : (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) فهذا القول يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن ماجاء به سيدنا رسول الله ﷺ هو الحق ، الذى لامراء فيه وأن ماهم عليه هو الباطل ، وأنهم ما كان لهم قبل بمناقشة الحجج القوية ، التى أتى بها الإسلام على لسان رسوله ﷺ ، ونشارك فى ذلك ذلك رأى الفخر الرازى حيث يقول :

إنهم سموا ذلك إضلالا ، وذلك يدل على أنهم كانوا مبالغين فى تعظيم آلهتهم ، وفى استعظام صنيعه ﷺ فى صرفهم عنه ، وذلك يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن هذا هو الحق ، فمن هذا الوجه يبطل قول أصحاب المعارف ، فى أنه لا يكفر إلا من يعرف الدلائل لأنهم جهلوه ثم نسبهم الله تعالى إلى الكفر والضلال ، وقولهم لولا أن صبرنا عليها : يدل أيضا على ذلك ، ويدل هذا القول منهم على جد رسول الله ﷺ ، واجتهاده فى صرفهم عن عبادة الأوثان ولولا ذلك لما قالوا : (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) وهكذا كان عليه السلام،فإنه فى أول الأمر بالغ فى إيراد الدلائل ، والجواب عن الشبهات ، وتحمل ما كانوا يفعلونه : من أنواع السفاهة ، وسوء الأدب

والثالث : أن هذا يدل على اعتراف القوم بأنهم لم يعترضوا البتة على دلائل نبوة الرسول ﷺ ، وما عارضوها إلا بمحض الجحود والتقليد .

الرابع : الآية تدل على أن القوم صاروا فى ظهور حجته عليه السلام ، كالمجانين ، لأنهم استهزؤا به أولا ، ثم وصفوه بأنه كاد يضلنا عن آلهتنا ، لولا أن قابلناه بالجحود والإصرار ، فهذا الكلام الأخير يدل على أن القوم سلموا قوة الحجة ، وكمال العقل اهـ .
وبما أن القوم وصل بهم الأمر إلى الاستهزاء بشخص الرسول ﷺ فلاينفع معهم إلا الرد بأسلوب معاملة الأسافل من الناس وهو أسلوب القوة ، لقد حاول الرسول ﷺ معهم

وكذلك ما أظهر الله وليا بحجته فى عصر من الأعصار إلا وجعل له منافقا يكذبه فيما يدعيه ويؤذيه بغير حق[1]

بقوة العقل، وبإقناع الدليل فلم يجدى معهم ، ذلك شيئا فكان الرد القرآنى فى هذا المجال هو أبلغ رد وأحسنه : (وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ، أرأيت من اتخذ إلاهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا) .

(١) ولعل من الأمثلة البارزة على ذلك ماحدث للإمام أبى الحسن الشاذلى يقول الدكتور عبدالحليم محمود فى كتابه المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلى : لقد أمر أبو الحسن بالدعوة وبمجرد أن دخل تونس التف حوله مباشرة جماعة من الفضلاء منهم الشيخ أبوالحسن على ابن مخلوف الصقلى، وأبو عبدالله الصابونى ، وأبو محمد عبدالعزيز الزيتونى ، وأبو عبدالله البجائى الخياط ، وأبو عبدالله الجارحى كلهم أصحاب كرامات على حد تعبير صاحب درة الأسرار . وكان بينهم الشيخ الصالح أبو العزائم ماضى تلميذ الشيخ وخادمه .

ثم كثر المريدون ، وأخذوا يزدادون يوما عن يوم « إلى أن اجتمع عليه خلق كثير » .

ثم بدأت الغيرة تدب فى قلب ابن البراء ، قاضى القضاة ، وكلما ازداد إقبال الناس على أبى الحسن كلما اشتدت الغيرة فى قلب هذا الرجل إلى أن أصبحت تنهشه نهشا ، فضعف أمامها ، وأعلن الحرب على أبى الحسن .

كان ابن البراء فقيها وكان إذ ذاك « قاضى الجماعة » وكان يعد نفسه الزعيم غير منازع ، وكان منصبه الرسمى يعلن أنه الزعيم الدينى الأكبر ، وكان ينعم بهذه الزعامة التى أتته عن طريق الدين ، والتى كانت فى حقيقة الأمر زعامة أشبه بالدنيوية منها بالدينية وكان ابن البراء يتخيل أو يتوهم أن له شعبية مع ماله من منصب رسمى ، فلما رأى التفاف الناس بأبى الحسن صور له خياله أن الشاذلى انتزع منه الزعامة الشعبية ، ولما كان الشاذلى من العلماء فى الفقه والتفسير والحديث، ولما كان يفتى ويشرح ويفسر فقد خيل إلى ابن البراء أن ليس هناك مايمنع من ناحية الشخصية أو من ناحية العلم من أن يتولى ابوالحسن منصب « قاضى الجماعة » . وما المانع ؟ وماالذى يحول دون ذلك !

وكذلك الحكم فى آحاد المؤمنين المتقين لابد ، لأحدهم من مؤمن آخر يحسده ، وينقصه بين الناس ابتلاء له كما سبق فى علم الله تعالى .

فاعلموا ذلك والحمد لله رب العالمين .

وأخذ الوسواس مأخذه ، وسولت النفس الأمارة بالسوء ماسولت ، فأعلن ابن البراء الحرب على أبى الحسن .

ولم تتخذ الحرب سبيلا شريفا فإن ابن البراء حينما رأى أنه لايمكنه القضاء على أبى الحسن علميا أخذ يدس له عند السلطان ! لقد صور للسلطان أنه فى طريقه إلى أن يصبح زعيما شعبيا خطيرا، والأمر ليس إلا أمر زمن فكلما مر الزمن ازداد تمكنا وشعبية!

« إنه يدعى الشرف ، وقد اجتمع عليه خلق كثير ، ويدعى أنه الفاطمى ، ويشوش عليك بلادك » .

ومعنى هذا أن الملك فى خطر .

وهذه الفكرة : « الملك فى خطر » تفعل فعل السحر فى نفوس الملوك ، إنها تقيمهم وتقعدهم وتجعلهم لايتورعون عن أى عمل .

بيد أن أبا زكريا ، وهو السلطان إذ ذاك ، يرد أن يتعجل وأراد أن يرى قبل أن يحكم وينفذ .

يقول صاحب درة الأسرار : وكان إذ ذاك السلطان أبو زكرياء رحمه الله ، فجمع ابن البراء جماعة من الفقهاء فى القصبة ، وجلس السلطان خلف حجاب ، وحضر الشيخ رضى الله عنه .

وسألوه عن نسبه مرارا ، والشيخ يجيبهم عليه ، والسلطان يسمع ، وتحدثوا معه فى كل العلوم ، فأفاض عليهم بعلوم أسكتهم بها ، وما استطاعوا أن يجاوبوه عليها من العلوم الموهوبة ، والشيخ يتكلم معهم فى العلوم المكتسبة ويشاركهم فيها .

لقد سمع السلطان الشيخ يتكلم ، لقد سمع هذا النوع من الحديث الذى يقول فيه — فيما بعد — إمام المسلمين فى مصر العز بن عبد السلام « اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله » .

ورأى السلطان شيخا مهيبا ، وإن كان مازال فى سن الفتوة ، ورأى السلطان نضجا فى العلم ، ونضجا فى التفكير ، وروحانية فى الحديث ، وشفافية فى البصيرة . .

. . . .

فقال لابن البراء :

هذا الرجل من أكابر الأولياء ، ومالك به طاقة ولوح ابن البراء مرة أخرى بالملك وأنه فى خطر ، وأنه يعاديه لحبه الملك ولإخلاصه له ولحرصه على بقاء العرش ، وقال للسلطان :

والله لأن خرج الشيخ فى هذه الساعة ليدخلن عليك أهل تونس ، ويخرجونك من بين أظهرهم : فإنهم مجتمعون على بابك .

وأثر تلويح ابن البراء ، أو تصريحه ، تأثيره فى نفس السلطان ، فأذن للفقهاء بالخروج وأمر الشيخ بالجلوس والبقاء ،

وجلس الشيخ هادئاً ، ساكن النفس ، مطمئن القلب وطلب ماء وسجادة فتوضأ وأخذ الصلاة .

وهم أن يدعو على السلطان فنودى فى سره :

إن الله لايرضى لك أن تدعو بالجزع من مخلوق : وبدل الدعاء ألهمه الله أن يقول :

« يامن وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ، أسألك الإيمان بحفظك إيماناً يسكن به قلبى من هم الرزق ، وخوف الخلق : وأقرب منى بقدرتك قرباً تمحق به عنى كل حجاب محقته عن أبراهيم خليلك فلم يحتج لجبريل رسولك ، ولا لسؤاله منك وحجبته بذلك من نار عدوك ، وكيف لايحجب عن مضرة الأعداء من غيبته عن منفعة الأحباء ، كلا ، إنى أسألك أن تغيبنى بقربك منى حتى لا أرى ولا أحس بقرب شىء ولا ببعده عنى ، إنك على كل شىء قدير ... » اهـ

هذه الكلمات الإلهامية دخلت ، فيما بعد ، فى بعض أحزابه . ها هو الشيخ يصلى ويدعو ، ويلجأ إلى مولاه طالباً الرضا والقرب وأن يغيبه بالقرب فى القرب ... وبينما هو مستغرق فى دعائه وتبتله إذا بالمقادير ترتب الأمر على وضع غير متوقع .

هل فى العالم مصادفات ؟

أيحدث فى الكون أمر من الأمور اتفاقاً واعتباطاً ؟ . لقد كان عند السلطان فى ذلك الحين جارية عزيزة عليه أحبها فملكت عليه جميع أقطاره ، وفى لحظات مرت سراعاً أصابها وجع ، فنامت ، واستنامت ولم تمهلها الأقدار ، فماتت فى حينها ، وما من شك فى أن

. . . . .

أجلها كان قد انتهى وأن هذه اللحظة كانت مقدرة فى علم الله من الأزل ؛ نعم لاريب فى ذلك ولكنه لاريب أيضاً فى أن المقادير رتبت ساعة أن منع الشيخ من الخروج ، فجاء موتها وكأنه عقاب للسلطان على منعه الشيخ من الخروج .

أهى كرامة ؟ وماذا تكون الكرامة غير ترتيب مقادير ، أو تصرف مقادير ، أو تدبير مقادير ؟

« إنا كل شىء خلقناه بقدر » أترى المصادفة دخل مع هذه الآية العامة .

لقد جاء أجل الجارية ، فماتت فى حينها ؛ فأصيب من أجلها ، فنسلت فى بيت سكناه ، واشتغلوا بغسلها وتكفينها ؟ وأخرجوها الصلاة .

واغفلوا بجمراً فى البيت

لقد كان تدبيراً منذ الأزل أيضاً ، حدث فى اللحظة التى قدرتها العناية الإلهية ، وكانت هذه اللحظة هى التى يجلس فيها الشيخ مصلياً متبتلا وكأنه ، بحسب الظاهر فى سجن ولكن كان فى قصر الملك

يقول صاحب درة الأسرار :

« وأغفلوا بجمراً فى البيت : فالتهبت النار ، فلم يشعروا حتى احترق كل مافى البيت من الفرش والثياب وغير ذلك من الذخائر .

فعلم السلطان أنه أصيب من قبل هذا الولى » اهـ

وكان للسلطان أخ عاقل صالح متدين يحب أولياء الله ويسعى إليهم ؛ وكان يحب الشيخ، ويتبرك به ، ويزوره مسترشداً ، ومستنصحا ، وكان فى هذا اليوم فى خارج المدينة : يتفقد بساتينه ، ويتنزه فيها ، فبلغه خبر ماجرى فى قصر السلطان من مناقشات ومن حوادث ، فحضر مسرعا والتقى باخيه وقال له :

« ماهذا الأمر الذى أوقعك فيه أبن البراء ، أوقعك والله فى الهلاك أنت وكل من معك »

ثم دخل على الشيخ وأخذ يعتذر إليه ويترضاه : فأعلن الشيخ موقفه من مثل هذه

. . . . .

الأمور ، وبين لأخى السلطان أن الكون ومافيه ومن فيه فى قبضة الله الكبير المتعال وقال له :

« والله ما يملك أخوك لنفسه نفعا ولاضرا ولا موتا ولاحياة ولانشورا ، فكيف يملكها لغيره كان ذلك فى الكتاب مسطورا » .

وخرج الشيخ إلى داره فى اليوم نفسه ، واستمر كعادته فى الإرشاد والنصح والتدريس.

ولكن ابن البراء لم يكف عن الإيذاء فكان الشيخ يقابله دائما بما جبله الله عليه من التسامح .

وكان يلقى عليه السلام إذا صادفه فى مكان ما .

فلا يرد ابن البراء عليه السلام .

وعزم الشيخ على الحج فأمر أصحابه بالنفقة إلى المشرق قبل موعد الحج بزمن طويل . وذلك ليمكث بمصر فترة من الزمن قبل الذهاب إلى الديار المقدسة .

وبدء الركب يتحرك ،ونهضت تونس مودعة ، وكانت حركة ، وكان ضجيجا،وعلمت تونس كلها أن أبا الحسن راحل ، وعلم السلطان فيمن علم ، وظن أن أبا الحسن يريد الخروج نهائيا من تونس فوقع الرعب فى قلبه وأسرع بتوجيه وفد يرجوه فى العودة ، فقال الشيخ :

« ماخرجت إلابنية الحج إن شاء الله تعالى، ولكن إذا قضى الله حاجتى أعود إن شاء الله » .

يقول صاحب درة الأسرار :

« فلما توجهنا إلى المشرق ، ودخلنا الإسكندرية ، عمل ابن البراء عقداً بالشهادة أن هذا الواصل إليكم شوش علينا بلادنا وكذلك بلادكم » .

فأمر السلطان أن يعتقل بالإسكندرية .

فأقنا بها أياما .

وكان السلطان رمى رمية على أشياخ فى البلاد يقال لهم القبائل : فلما سمعوا بالشيخ أتوا إليه يطلبونه فى الدعاء فقال لهم :

غداً أن شاء الله نسافر إلى القاهرة وتتحدث مع السلطان فيكم .

. . . . . .

قال : فسافرنا ، وخرجنا من باب السدرة والجنادة فيه والولى ، ولايدخل أحد ولايخرج حتى يفتش ، فما كلمنا أحد ولاعلم بنا .

فلما وصلنا القاهرة أتينا القلعة فأستأذن على السلطان

قال كيف وقد أمرنا أن يعتقل بالإسكندرية :

فأدخل على السلطان والقضاة والأمراء ، فجلس معهم ونحن ننظر إليه .

قال له الملك :

ماتقول أيها الشيخ :

فقال له :

جئت أشفع إليك فى القبائل .

فقال له :

أشفع فى نفسك ، هذا عقد بالشهادة فيك ، وجهه ابن البراء من تونس بملامته فيه ثم ناوله إياه .

فقال له الشيخ :

أنا وأنت والقبائل فى قبضة الله .

وقام الشيخ .

فلما مشى قدر العشرين خطوة حركو السلطان فلم يتحرك ولم ينطق ، فبادروا إلى الشيخ وجعلوا يقبلون يديه ويرغبونه فى الرجوع إليه ، قال : نرجع إليه ، وحرك بيده فتحرك ، ونزل عن سريره ، يستحله ويرغب منه فى الدعاء .

ثم كتب إلى الوالى بالإسكندرية أن يرفع الطلب عن القبائل ويرد جميع ماأخذه منهم وأقنا عنده فى القلعة أياما .

واهتزت بنا الديار المصرية ، إلى أن طلعنا إلى الحج ورجعنا إلى مدينة تونس » .

ومن أخلاقهم : تجوعهم أوائل دخولهم الطريق مع وجود الطعام مجاهدة لنفوسهم ثم جوعهم حال كما لهم إذا فقدوا الطعام ، فلا يجوعون مع وجود الطعام أبدا لأنهم مطالبون بإعطاء كل ذى حق حقه من جوارحهم ويؤاخذون على ظلمهم لنفوسهم فى مرضاة الله تعالى عكس ما كانوا عليه فى بداية أمرهم .

ومن هنا قالوا : جوع الأكابر اضطرار لا اختيار بخلافهم فى بدايتهم يجوعون اختيارا مع وجود الطعام تهذيبا لنفوسهم ، تنقاد لهم إذا دعوها ، لمرضاة الله عز وجل لأنها قبل الرياضة تشبه الدابة الحرون أو كالعجل الذى يعلمونه الطحين فى الطاحون ، فتراهم يجوعونه ، ويغمون عينيه بخرقه ، ويدورونه بالضرب فى الطاحون أو غيرها على الفارغ ، فلا يزال كذلك ، حتى يظهر لهم منه كمال الانقياد ، فهناك يطعمونه ، ويمسكون الغماعن عينيه ، ويدورونه على الطحين ، ثم يصبرون عليه مدة ، وهو يدوس القمح ، وينثره يمينا ، وشمالا ، حتى يطمئن .

وقد قالوا فى المثل السائر لمن لا إخلاص له : يا هذا إن عملك كطحين المجول لا بركة ولا زكاة ، ولا نعومة انتهى .

وقد ورد أن الله تعالى لما خلق النفس أوقفها بين يديه وقال لها : من أنا ؟ فقالت له : من أنا ؟ فغمسها فى بحر الجوع خمسة آلاف سنة ، ثم قال لها : من أنا ؟ فقالت : أنت الله : الذى لا إله إلا هو .

وفى بعض الكتب : أبى الله عز وجل أن يعطى الفهم فى كتابه لمن شبع من الطعام أو أعطى النفس حظا انتهى .

فليس للنفس فى بداية أمرها شىء أسرع لانقيادها من الجوع أبدا لأنه يذل الملوك فكيف بالنفس وهن طريقه أعرف مراتب الكمل من الناقصين والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عملهم على مناجاة ربهم فى كل وقت وحين

فالله عز وجل أقرب إلى الشخص من جاره وأخيه وصديقه فإنه أقرب إلينا من حبل الوريد ، وحينئذ يعطى الحق تعالى والخلق كلهم حقهم من الحياء ، والأدب ، والإيثار ، والصدق ، والتواضع ، وغير ذلك عكس من غلظ حجابه ، وكثف طبعه ، فتراه يقل أدبه وحياه مع الحق تعالى ومع الخلق ويؤثر حظ نفسه على جناب الحق تعالى ، وعلى أخيه المسلم ، ويكذب عليه ويراعى الخلق غفلة عن الله عز وجل ، ولو أنه عمل على رقة الحجاب لانقلبت صفاته السيئة حسنة ، وكان يجد الحق تعالى أقرب إليه من الخلق ، فكان يراعى له ، ويثاب على ذلك ، لأنه امتثل أمر الشارع فى حديث (أروا الله من أنفسكم خيرا) انتهى .

وصاحب هذا المشهد يناجى الحق تعالى فى هيا كل الخلق من حيث أن سره تعالى هو القائم بهم ، ولولا إمداده لهم بالقوة والبقاء لاضمحلوا فى لمح البصر .

وقد كان سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله يقول : لى منذ ثلاثين سنة أكلم الله تعالى ، والناس يظنون أنى أكلمهم .

فاعمل يا أخى بهذا الخلق تفز بخير الدارين والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن لا يأكلوا من هدايا الفلاحين الزارعين فى طين
تحت نظرهم إذا قدموا من سفر الحجاز مثلا

لأن هدايا الفلاحين المذكورين من هدايا العمال ، فهى حرام ، ولو طابت بها نفس المهدى بدليل أن أحدهم لو عزل من النظر على ذلك الوقف لم يهد أحد من أولئك الفلاحين إليه شيئا ، (وقد قال بعض العمال : يارسول الله : إن بعض الناس يهدى إلينا شيئا بطيبة نفس أفنأكل منه فقال : لا فقال : يارسول الله : إن نفسه بذلك طيبة فقال : إن ذلك غلول ، فردد عليه الكلام ثالثا فقال ﷺ : هلا جلس أحدكم فى بيته بلا عمالة لينظر من يهدى إليه ، فرجع ذلك الصحابى ، وقال : استغفر لى يا رسول الله ، فقال غفر الله لك) انتهى .

وقد أوضحنا الكلام على مثل ذلك فى خلق شياخة الأوقاف ، فإن قال لنا ناظر : إن رسول الله ﷺ كان يقبل الهدية قلنا له : كان يقبلها ، وكان يكافى عليها فكافىء يا أخى على الهديه ، ثم خذها إن شئت .

فحافظ يا أخى على هذا الخلق ، فإنه خلق غريب لا أظن أحدا تخلق به فى هذا الزمان إلا الكمل من الرجال والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : العمل على تحصيل الصفا وزوال الجفا حتى لا يصير
أحدهم يكره أحدا من خلق الله تعالى بحظ نفس

بل يذهب الحقد والشحناء من العبد جملة واحدة ما عدا الجزء البشرى ، وهناك يكتفى أحدهم بالاجتماع القلبي بأخيه ، فربما لم يجتمع أحدهم بأخيه بالجسم السنة وأكثر ، وربما مرق تحت زاويته ، ولا يطلع له ، فيظن بعضهم أن بينهما عداوة ، فيقع في حقهما ، والحال أنهما متحابان وروح أحدهما ملتفة بالأخرى ، وربما زار أحدهما أخاه في الأسحار ، وربما اكتفى أحدهم في زيارة أخيه كلما اجتمع هو ، وإياه في حضرة الله تعالى في الصلوات الخمس ، وغيرها فإياك والمبادرة إلى الطعن في فقراء عصرك إذا لم تر أحدهم يجتمع بالآخر ظاهرا للناس فتقع في الاثم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم: أن يفرحوا إذا ولد لهم مولود من حيث كونه رحمة من الله تعالى عليهم

لكن ينبغي أن كما يفرحوا به كذلك يحزنوا من حيث كونه فتنة ، ويكون حزنهم أشد وذلك لأن عصيان الولد أكثر من طاعته لله تعالى عادة ، وقد حذرنا الله تعالى من فتنة الأولاد في عدة آيات ، وكذلك الشارع ﷺ في عدة أحاديث نحو حديث (الولد مبخلة مجبنة) .

ومن فتنته أيضاً الميل إليه بالطبع دون تحبيب الله تعالى له فيه ، ومما يحزن الوالد العاقل أيضاً وجوب مراعاة الولد ليمشي على الصراط المستقيم ، ثم لأخذ بيده في أهوال يوم القيامة ، حتى يجاوز الصراط كما يلاحظ الشيخ المريد ، وكذلك إلى دخول الجنة بل الولد بذلك أولى ، وكما يلاحظ الأمير ، أو القاضي نائبه إذا ولاه نائبا عنه ، حتى لا يزيغ عن الشريعة ، فيلاحظه في أهوال يوم القيامة إلى أن يجاوز الصراط .

وذلك لأن جميع ما يقع من الفرع أصله من الأصل ، فهو متشعب منه ، ومعدود من جملة كسبه ، حتى كان بعضهم يقول : الولد حسنة من حسنات والده ، أو سيئة من سيئاته انتهى .

فمن فهم ما ذكرناه هرب من الأولاد ، ومن تولية أحد من النواب ومن أخذ العهد على مريد ، وحزن ، لذلك لما في ذلك من شدة التعب ، ومن فعل ما ذكرناه ، وقال : ليس على من وزرهم شيء خرج عن طريق أهل المرءآت ، وقد جاءني قاض يطلب نيابة عند قاضي الخانقاه فأبيت أن أكاتب القاضي عليه ، فشق على وجوه الناس ، فكتبت للقاضي كتابا من جملته إن كان مولانا يعرف من نفسه القدرة يأخذ بيده في الدنيا والآخرة إذا زاغ عن الشريعة أو تحمل عنه أوزاره ، والا فالأمر راجع إلى الله ، ثم إلى مولانا ، وقلت له : لاتفتح الكتاب ، فخالف ، وقرأ ما فيه ، وجاء به

لى بعض فقراء الزاوية ، وقال له : قل لعبد الوهاب : ما لفلان خلاص بهذا الكتاب انتهى ، ولعمرى أن فيه خلاصه ، ولكن لا يشعر .

فهذا كان شأن الأولياء ، والأمرا ، والقضاة ، الذين مضوا كانوا لا يتولون على أحد أو يولونه إلا إن رأوا طريق الخلاص لهم ، ولله فى ذلك رضى الله عنهم أجمعين والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : العمل على تحصيل مقام الحضور مع الله تعالى فى كل عبادة حتى لا يكون عند أحدهم ترجيح الاشتغال بعباده دون أخرى بل كل عبادة يفعلونها يدخلون بها حضرة الله تعالى ، ومن تحقق بهذا المقام تساوى عنده الاشتغال بالعلم والذكر، وتلاوة القرآن، والاشتغال بقراءة النحو والمنطق على حد سواء ، لأن صاحب هذا المقام يشهد الحق تعالى غير متحيز فى جهة ذاتا ، وصفة ، ويعلم أنه بين يدى الله تعالى فى كل مكان ، وعند كل فعل ، أو قول ، أو خاطر بخلاف من لم يتحقق بهذا المقام ، فإنه يلحقه ضيق ، وحصر فى قراءة علم النحو مثلا لا سيما إن كان ذلك عقب مجلس ذكر حصل فيه حضور ، وسكر ، فليسع صاحب هذا الحال وجوبا فى الترقى إلى التحقق بالمقام ، حتى يصير يحضر مع الله تعالى فى كل شىء قرأه من علوم الشريعة ، وآلاتها وتوابعها ، فإنها كلها مطلوبة شرعا .

وقد كان سيدى عبد القادر الجيلى رضى الله تعالى عنه يدرس فى علوم الشريعة من فقه ، وحديث ، وأصول ، ونحو ، ومعانى ، والقراءات السبع ، وهو قطب الوجود إلى يوم وفاته رضى الله تعالى عنه ، وتبعه على ذلك الكمل من أهل الطريق .

فإن من شرط الشيخ أن يكفى تلامذته فى كل علم قرأوا عليه فيه ولو صاروا من مشايخ الإسلام ، وأما من يقول لمريده : إقرأ على غيرى مالى فراغ إلى الاشتغال بما تقرؤه على ، فهو ناقص لا يصلح للتعبد .

فاعلم ذلك واعمل على تحصيله والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن يتوقفوا أن يجيبوا أحدا إلى خطبه كريمتهم إلا بعد أن أطلعهم الله أن الله تعالى قد قسم تزويجها لذلك الخاطب

فإن لم يطلعهم الله تعالى على ذلك توقفوا فى إجابتهم للخاطب ، حتى تحتاج كريمتهم إلى التزويج بالطريق الشرعى كل ذلك خوفا منهم أن يخطبها أحد ، ولم تقسم له ، ثم يخطبها آخر ، فتقسم له ، فتحكم الشريعة بالإثم على من خطب ثانيا ، وعلى من زوج بعد خطبة الأول .

وهذا الأمر يقع كثيراً من بعض الناس والأخذ بالاحتياط فى الدين أولى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : شدة حذرهم من سحر الدنيا لقلوبهم

كما يحذرون من ضرر سحر من جربوا صحة سحره بل أشد لأن غاية سحر الساحر إن يفرق بين الإنسان ، وأشكاله ، بخلاف سحر الدنيا للقلوب ، فإنها تفرق بين العبد وبين شهود ربه .

وقد قال الفضيل بن عياض ، لسفيان الثورى : يا سفيان إياك أن تميل إلى الدنيا فإنها تميل تسحر قلوب العلماء ، وانظر يا سفيان إلى النسر عزيز فى مطاره لا يصل إليه أكبر ملوك الدنيا ، فإذا أراد الله أن يذله نصب الناس له رمة فى الأرض من لحم الميتة ، فانقض إليها من جو السماء ، فيصل إليه أصغر الأطفال ، ويقبض عليه ، وينتف ريشه ، وتصير الأطفال يلعبون به لا يقدر على الطيران إلى المحل الذى كان فيه ، ولا يقدر يمنع نفسه منهم بالعدو ، فكذلك حكم العالم إذا مال بقلبه إلى الدنيا إن فى ذلك ، لعبرة لأولى الأبصار .

وهذا الخلق قد صار غالب الناس لا يقدر على التخلق به ، وربما فعل الدنيا كل مرصد ، وجمع من المال ما لاحاجة له به ، ثم يبسط فى مأكل وملبسه ، وإذا لامه إنسان على ذلك قال : إنما فعلت ذلك إظهارا لنعمة الله تعالى ، ويدعى أن ذلك المال حرام من حيث النصب على الناس لأنه ، لو كان حلالا من أصله ، فهو حرام من جهة إظهاره النسك ، والعبادة ، ، والزهد ، حتى أعطوه له ، ولو أنه كتم عباداته ، لربما كان الناس لا يعطونه شيئاً من ذلك .

وقد كان الفضيل بن عياض رضى الله عنه يقول : لأن آكل الدنيا بالطبل ، والمزمار أحب إلى من أن آكلها بديني ، فاعلم ذلك يا أخي والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : شدة تواضعهم لأقرانهم بطريقة الشرعى

فلا يبالغ أحدهم فى التواضع لهم ، ويرفعهم إلى مقام ليس هو لهم فيغترون بذلك ويترفعون عليه ، ويضر نفسه بل يحتاط فى تواضعه غاية الاحتياط لا سيما إذا نالهم شىء من الإعجاب ، والكبر بسبب ذلك ، كما هو الغالب على بعض فقراء هذا الزمان ، فإنه يهلكه .

وقد دخلت مرة على نية زيارة شيخ منهم ، فدخل عليه أمير كان يزورنى ، ويعتقدنى غاية الاعتقاد فقلت فى نفسى : أقبل رجل هذا الشيخ ، لأقوى اعتقاد الأمير فيه ، فقبلتها فسقطت من عين ذلك الأمير من ذلك الوقت ، وانقطع عن زيارتى ، وصار يرد شفاعاتى ، فلا ذلك الشيخ قام مقامى فى الشفاعة عنده ، ولا أنا دامت لى شفاعة ، فكان عدم تقبيلى رجله أولى ، لما ترتب على ذلك من فوات زوال تلك المظالم ، وتفريج الكروب ، ولا ينبغى لأمثالنا أن يتشبه بأرباب الأحوال الذين يقبلون نعال أقرانهم ، وحرمتهم وتعظيمهم باق فى القلوب ، لضعف مثلنا عن حفظ حرمتنا فى القلوب إذا قبل رجل أحد من أقرانهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا كثرت تبعات الخلايق عليهم يقينا أو شكوا في ذلك أن يتوجهوا إلى الله تعالى في تمكين أصحاب الحقوق منهم في الدنيا ليصلوا إلى نظير حقوقهم في المال والعرض

أما المال فبالمسامحة لهم أو الغصب أو السرقة ، كما هو مقرر في مسئلة الظفر .

وأما العرض ، فبتسليط صاحب الحق أو غيره عليهم ، فيقطع في أعراضهم في المجالس .

ومن علامة صدقهم أن لا ينتصر لهم أحد ، ولا يرد عن عرضهم ، وأن يتكدروا ممن يرد عنهم ، لأن من رد عنهم ، كأنه يقول : دعوا التبعات عليهم من غير وفاء ، أو من غير مقابلة إلى يوم القيامة ، حتى يصلوا إلى محل تشح فيه النفوس على والديها وولدها وتعز أصحابها ، وهذا يقع فيه بعض من لا قدم له في كمال الإيمان بيوم الحساب وربما يفرح أحدهم بمن يرد عنه ، ويجد لذلك راحة .

وقد سمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : كل من لم ينشرح صدره بكلام الأعداء فيه ، ويحصل له السرور الكامل بذلك ، فهو ناقص الإيمان ، والواجب عليه العمل على تحصيل مقام كمال الإيمان بأحوال يوم القيامة ، حتى يشاهدها رأى عين فإن الدين كله مبنى على كمال الإيمان فإن دخل إيمان العبد ضعف أن ثلمه دخل له الشك في أحوال يوم القيامة .

وقد كان السلف الصالح يتهمون أنفسهم في كمال إيمانهم وينفون عن أنفسهم الإيمان الكامل لهم ، حتى كان الحسن البصري رضي الله تعالى عنه يقول : لمن قال عنه : إن أعمال الحسن أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب .

فقلت له : صدقت لا تكفر عن يمينك انتهى .

وأحسن ما قالوا في كمال الإيمان : أن يكون الغايب عنده ، كالشاهد على حد سواء

من غير فرق فى جزاء المأمورات والمنهيات ، حتى لا يتخلف عن مأمور ، ولا يقع فى محظور إلا من حيث عدم القسمة ، فهو يود أن ذلك يقسم له ، حتى يفعله ، ومثل هذا يرجى بخلاف من ترك ذلك لعدم الداعية الإيمانية .

وسمعت سيدى محمد المنير رحمه الله يقول : من تهاون بهدم مقدار لبنة واحدة من بناء إيمانه تبعها لبنة بعد لبنة ، حتى يتهدم إيمانه كله ، ولو على طول .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان ، واصبروا على من يؤذيكم إن لم تنشرحوا لذلك ، ولا تقابلوه قط بنظير فعله ، تصيروا مثله فى البذاءة ، والفحش ، فإن من يؤذيكم لا يخلوا إما أن يكون له حق عليكم ، فيستوفيه منكم ، أو لا حق له ، فيكفر عنكم من سيئاتكم ، ويعطيكم حسناته يوم القيامة ، وما تكدر من كلام قيل فيه إلا جاهل أحمق قليل الايمان بيوم الجزاء ، فإياكم ثم إياكم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا طلب أحد من العلماء أن ينظر فى رسائلهم أن لا يجيبوه
إلى ذلك حتى يتوجهوا إلى الله تعالى بأن يزيل ما فى قلب
ذلك العالم من الحسد والكبر والدعاوى والعجب

فإن من أعطى فقيها من أقرانه شيئاً من كلام القوم عرضه للمقت إلا أن يشق برياضة نفسه بالمجاهدة أو بالفطرة ، فإن من لازم أصحاب الرعونات عدم الانتفاع بكلام أحد من أهل الطريق لما عندهم من الكبر ، ومن شك من الفقراء فى ذلك ، فليأمر الفقيه الذى طلب أن يطالع فى رسالته مثلا أن يتصدق بعمامته ، أو ينزل لفقير عن وظيفته فإن أجابه بانشراح صدر إلى ذلك ، فهو ينتفع بكلامه .

فإن آداب الفقراء كلها ترجع إلى الزهد فى الدنيا ، ومخالفة هوى النفوس ، فاعلموا ذلك أيها الاخوان ، ولا تعطوا رسالة شيخكم بعد موته لأحد من أصحاب الدعاوى إلا بعد الإمتحان والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : العمل على زوال الظن من قلب أحدهم وذلك إذا لاحظ الشرفية فإن مذهب أهل السنة والجماعة أن أدنى المؤمنين من خلط فى أعماله فعمل صالحاً تارة وعمل سوءاً تارة أخرى .

وقد رأيت فى كلام بعض العلماء أن مذهب أهل السنة والجماعة أن من يجتمع فيه الخير والشر فى وقت واحد ، فيكون ولياً لله تعالى من وجه كما أنه عدو لله تعالى من وجه آخر .

قال : وهذا هو الحق الواضح الذى شواهده كثيرة من الكتاب والسنة بخلاف من قال بالإحباط ، وكفر المؤمنين بالمعاصى ، والذنوب كما فعلت الخوارج ، وغيرهم من أهل الأهواء .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : الانسان جامع لصفات الملائكة ، وصفات الشياطين ، وصفات البهائم ، وصفات الجمادات ، فإذا كان فى أعمال خالصة ، فهو فى حضرة الملائكة وإذا كان فى أعمال طالحة فهو فى حضرة الشياطين ، وإذا كان غافلا فى أعمال الدنيا ، فهو فى حضرة البهائم وإذا كان فارغا من أعمال الدارين ، فهو فى حضرة الجمادات انتهى .

فاعلم ذلك يا أخى واعمل على تحصيل أعمال الملائكة فقط ، أو صفة الجمادات فقط من حيث ترك التدبير مع الله تعالى ، والتسليم له والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : العمل على تحصيل مقام الصبر والتقوى معا ولا يقنعون بحصول أحدهما دون الآخر ، وذلك لأن الله تعالى جمعهما فى القرآن فى آيات كثيرة نحو قوله . (بلى إن تصبروا وتتقوا[١]) (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً)[٢] (وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) وقال السيد يوسف عليه الصلاة والسلام (إنه من يتق ويصبر[٣] . . الآية .

فالتقوى والصبر ملاك الأمر كله لأن الصابر إذا لم يلزم طريق التقوى ، فقد يكون حاله مثل حال كثير من جهال أهل الجبال والقرى الذين يصبرون على المصايب والعقوبات ، ويسلخ الوالى جلد أحدهم فى غير طاعة الله تعالى ، فلا يقول آه اظهاراً ، الشجاعة والتجلد ، والتفاخر لا رضى بقضاء الله تعالى ، ونظير هؤلاء فى الصبر المذكور الرهبان ، وعباد أهل الملل كالخوارج الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أحدهم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، وقراته مع قراتهم وأنهم يتلون القران ، لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم ، فاقتلوهم، فإن فى قتلهم أجرا عند الله تعالى لمن قتلهم يوم القيامة لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد ، وثمود ، فقتلهم الامام علي بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا أربعة آلاف فى غداة واحدة .

فعلم أن الصبر إذا وجد بلا تقوى كان حال صاحبه كحال هؤلاء الخوارج ، والرهبان ، وأما التقوى بلا صبر ، فتوجد كثيراً فى ضعاف الناس ، كالذى له صبر على العلم ، وليس له صبر على العمل به مع أنه لا يستقيم أحدهما إلا بالآخر ، فاعلم يا أخى ذلك واعمل على تحصيله والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٢٥ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١٢٠
(٣) سورة يوسف آية : ٩٠

ومن أخلاقهم: شدة التباعد عن الوقوع في مظالم العباد مطلقا

فإن للمظالم ثلاثة دواوين:

ديوان لا يغفره الله تعالى، وهو الشرك، ثم هو قد يرجع إلى ظلم النفس التي هي من جملة العباد

وديوان لا يتركه الله تعالى، وهو مظالم العباد من مال، وعرض.

وديوان لا يعبأ الحق به شيئاً وهو ظلم العبد لنفسه بارتكاب المعاصي دون الشرك بالله تعالى الذي يغفره الله تعالى بالتوبة.

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول: مظالم العباد ثلاثة قسم يتعلق بالنفوس، وقسم يتعلق بالأموال، وقسم يتعلق بالأعراض:

فأما النفوس فلها أحكام عديدة في مثل قتل العمد، والخطاء. ووجوب القود، والدية والكفارة، وغير ذلك، مما هو مذكور في كتب الفقه

وأما الأموال. فإنه لا بد من ردها إلى المظلوم، أو وارثه، وإن تعذر ذلك لم يبق غير التصدق بها عن صاحبها على مذهب من يرى ذلك، فإن عجز عن رد المظالم، فليستكثر من الحسنات التي يوفى منها الغرما عند الميزان، وإلا فليتأهب لتحمل أثقال المظلوم وأوزاره يوم القيامة كما ورد في الصحيح إن من كانت له حسنات أخذ من حسناته، وأعطى المظلوم، ومن لم يكن له حسنات طرح عليه من سيئات المظلوم، وكتب له كتاب إلى النار.

وأما الأعراض فقد ذكر بعض محقق الأئمة فيها تفصيلا حسنا لعله أحوط الوجوه في هذا الباب وهو أن تلك المظلمة وإن كانت غيبة أو نميمة أو نحوهما فلا يخلوا الأمر من حالين إما أن يكون قد بلغت المظلوم أو لم تبلغه فإن تكن قد بلغت فإن الطريق هو التحلل منها وإن لم تبلغه كان تبليغها له أذا جديدا ويؤدي إلى الخصام، وانقطاع

المودة ونحو ذلك ما هو أصعب من تلك المظلمة ، فالطريق فى ذلك كثرة الاستغفار له دون تبليغه ، وطلب التحلل منه .

ثم لا يخفى عليك يا أخى أن من الذنوب ما يشتبه أمره على صاحبه من جهة كونه من مظالم النفس ومظالم العباد ، كالزنا والتلوط مثلا ، فإن الأمر فى ذلك يحتاج إلى تفصيل ، ليظهر بواسطته وجه الصواب ، وهو أن يقال : إن كان المفعول به مبذولا كانت تلك المعصية من مظالم النفس ، وإن كان الفاعل قد راوده ، وعاوده ، واستنزله كان ذلك من مظالم العباد الصعبة ، لأنه أذى تلك الصورة ، وقهرها ، وجرأها على المعصية ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ، وأيضاً فإنه هتك عرضها وأذى أهلها بحلول العار ، وأوجب لهم الحرص على استيفاء الثار بقتله ، ولو بعد مدة طويلة مع ما فى ذلك من تورث الأحقاد ، والضغائن فى النفوس بسبب ذلك الفعل ، ولو بالإشاعة ، وقد وقع فى الوجود من أمثال ذلك ما لا يحصى كثرة ، وهو من أعظم المظالم المؤثرة فى النفوس ، فيجب إخراج فاعل ذلك من الحارة ، والمكان الذى هو مسكنه خوفا أن يقتله أهل ذلك المفعول به من امرأة أو غلام ، لأن غالب الناس لا يملك نفسه أن يردها عن قتل من رآه يفسق فى ولده أو كريمته أو زوجته — بل بعضهم قتل من رآه نزل داره فقط من غير فسق فى أحد بل ينبغى لصاحب تلك الفعلة أن يرحل هو حياءه من أهل حارته ، ولا يرجع إليهم ، فإن قلت : فهل يغفر الحج مظالم العباد ؟ فالجواب لا تغفر مظالم العباد بذلك بل ، ولا يغفرها الجهاد الذى هو أعظم من الحج ، وقد ثبت فى الصحيح (أن رجلا قال : يارسول الله أرأيت إن قتلت فى سبيل الله هل يغفر لى كل شىء فقال له : إن قتلت فى سبيل الله مقبلا غير مدبر وأنت صابر محتسب غفر لك كل شىء ثم ذهب الرجل ، ونزل الوحى ، فلما سرى عنه صلى الله عليه وسلم جىء به ، وأعاد الكلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال صلى الله عليه وسلم : غفر لك كل شىء إلا الدين بهذا جاءنى جبريل وهذا يعلم به فضل جلس الجهاد على جلس الحج قوله تعالى : (أجعلتم سقاية

الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون)[1] .

وقد تمسك طائفة من الناس فى هذا الباب بحديث لم تثبت صحته عند الحفاظ

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : حقوق الله تعالى تغفر بالتوبة بحكم الوعد منه تعالى إن الله لا يخلف الميعاد ، وأما حقوق العباد ، فإن فيها حقا للحق وحقا للخلق ، فبالتوبة يغفر حق الحق منها ويبقى حق المظلوم إلى أن يستوفى ، أو يزول بطريقة الشرعى انتهى .

وسمعت سيدى عليا المرصفى رحمه الله يقول : الوصول إلى مقامات اليقين التسعة واجبة على المكلفين إلا الرضى ، فإنه مستحب عند أكثر العلماء ، وليس بواجب .

فقلت : وما هى التسعة ؟

فقال : الصبر والتوبة والشكر والرجاء ، والخوف ، والزهد ، والرضى ، والتوكل ، والمحبة .

فقلت له : أن الرضى أفضل من الصبر ، وأعلا وأشرف ، فكيف يكون الفاضل مستحبا ، والمفضول واجبا مع أن فى الحديث الصحيح (ما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم) .

فقال رحمه الله تعالى : إن الله خفف عن عوام هذه الأمة أمورا منها الرضى فجعله مستحبا ، لعجز أكثر الخلق عن الوصول إلى مقامه إذ هو موهبة من الله تعالى يقذفه فى قلب من يشاء من عباده بخلاف الصبر ، فإنه يجب على النفوس التصبر ، ثم الصبر

(١) سورة التوبة آية : ١٩ .

مع الكراهة فى مقامات الصبر الثلاثة ، وهو الصبر على الطاعات ، حتى تؤدى ، وعن المعاصى ، حتى تترك ، وعلى المصايب عند نزولها ، ثم إن النفس إذا اطمأنت ، فإن الحال يتغير عليها فى ذلك ، حتى كان بعضهم يقول : ما زلت أسوق نفسى إلى الله تعالى ، وهى تبكى ، حتى صارت ، لتسوقنى ، وهى تضحك ، ومن هنا يتمكن العبد فى مقام الرضى المشار إليه بحديث أنس بن مالك : (خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى أف يوماً قط ، ولا قال ، لشىء لم أفعله هل لافعلته ، وكان إذا عتبنى بعض أهله يعاتبنى يقول : ذروه ما قدر شىء لكان انتهى فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أنهم لا يشعرون أن لهم فضلا مع أحدهم إذا أحسنوا إليه بل يفعلون الخير له ولا يطلبون عليه جزاء ، ولا شكورا ، وميزان التحقيق بذلك أن لا يكون لهم إذلال على من أحسنوا إليه ، ومتى كان عندهم إذلال عليه ، فإحسانهم معلول ، وصاحب العمل المعلول لا حرمة . له به عند الله تعالى لإحباطه بتلك العلة ، وربما رأى له بذلك منة على الفقير ، فعطبه الفقير بعزل أو مرض .

وقد وقع أن الشيخ عبد القادر المغازلى بنى لشيخ شيخنا زاوية ، وعمل له فيها ضريحاً ، ودفن الشيخ فيه ، ثم إن ولده العزيز عنده مات ، فدفنه ، بجنب الشيخ فما فرغ من دفنه ، حتى جاءت لمن ألحده لطمة غاب عقله منها ، فطلعوه من قبر الشيخ محمولا ، فبقى تسعه أشهر ضعيفا يبول ، ويتغوط على نفسه ، حتى قذرته نفوس أهله ، فلوموه فى محل المزابل ، فأتاه الشيخ ، وقال : تب إلى الله تعالى إنك ما عدت تدخل أحداً على فقير فى القبر ، وأنت تطيب من هذا المرض ، فتاب إلى الله تعالى ، وطاب من وقته انتهى .

فينبغى لمن بنى لشيخ ضريحا أن يوصى أهله بأن لا يدفنوه إذا مات إلا بعيداً عنه مع استئذان الشيخ أيضاً ، فيقولون له : دستور ياسيدى ندفن بجنبك فلانا ، فإنه يسمع فى القبر ، وقد أوصيت أنا أصحابى إذا أنامت أن لا يدفنونى بجانب قبر الشيخ نور الدين الشونى إلا بعد استئذانه ، ولو كنت أنا الذى دفنته عندى ابتداء ، لأنى لم أر لى فضلا عليه بذلك بل الفضل له الذى أجاب الدفن عندى لما سألته فى مرض موته .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تعظيم حرمات الله تعالى والتباعد عن تعدى حدوده

ثم إن أحدهم إذا وقع فى أصغر الذنوب عادة فى رأى الدين رأى ذلك الذنب من الكبائر بجامع المخالفة ، والعلم بأن الله تعالى نهى عن ذلك ، وقد يسامح الحق تعالى فى الذنب الكبير ، ويؤاخذ بالصغير عند فاعله كل ذلك إجلالا لله تعالى ، فلا يزال أحدهم كذلك ، حتى يرى الغفلة عن الله لحظة أشد عليه من كل بلاء ويقع له من الخوف بسبب ذلك أشد من الخوف الواقع عليه من أكبر البلايا ، وذلك من علامات الكمال فى مقام الإجلال وقد تخلقت بذلك ولله الحمد ، ثم رجعت إلى الكمل من ذلك وهو تعظيم حدود الله تعالى على حسب ماوردت بحكم التبعية للشارع فى ذلك، فأعظم الكبيرة على الصغيرة ، والصغيرة على المكروه ، والمكروه على خلاف الأولى ، فإن العبد تابع ما هو مشروع ، وما بين الشارع مراتب الحدود إلا ليعلمنا بتفاوتها لنعظمها بحسب مراتبها ، وكذلك القول فى قسم المأمورات فنعظم فعل الواجب أكثر من المندوب ، ونعظم المندوب أكثر من الأدب ، وننمدم على ترك كل واحد بحسب تأكيد الشارع عليه ، فرجع حال السالك فى حال نهايته إلى صورة بدايته .

والقصد تختلف من حيث تفاوت المأمورات ، والمنهيات فى الدرجة ، وكانت مساواة الأوامر والنواهى فى التوسط للسالك من شدة تعظيمه لله تعالى ، فاستعظم مأموراته ، ومنهياته جملة خوفا من الله تعالى ، وهذا نباب المخالفة بقطع النظر عن مشاهدة حكمة تفاوتها كما ورد عن الشارع .

وثم مقام رفيع ومقام أرفع وعلى ما قررناه يحمل قول الجنيد (ما ثم عندى ذنبا أعظم من الغفلة عن الله عز وجل) ، وأنه قال ذلك حال توسطه فى الطريق ، فإن الشرك ، وقتل النفس أعظم من الغفلة عن الله عز وجل ، كما قال المسيح عليه الصلاة والسلام فى حب الدنيا (إنه رأس كل خطيئة) انتهى أى محبة شهواتها مع الغفلة عن الله عز وجل ، فإنه لولا شهوة القتل للنفس مع الغفلة عن الله تعالى ما قتل ، ولولا شهوة الزنا مازنى ، ولولا شهوة شرب الخمر ما شرب وهكذا ، فاعلم ذلك ، وتقيد بالشريعة فى كل فعل وترك واعتقاد والحمد لله رب العالمين .

فهرس محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

صفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الباب السادس فى جملة أخرى من الأخلاق

صفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

صفحة

الصفحة

تم الجزء الثانى بعون الله وتوفيقه وعنايته
ويليه الجزء الثالث إن شاء الله تعالى

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب هاديا لكل مؤمن إلى طريق الهدى والرشاد والفلاح إنه نعم المولى ونعم النصير

وبالله التوفيق ؟

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٣٦٨ لسنة ١٩٧٥

مطبعة حسان

١٢٤ شارع الجيش . ت ٨٢٣٥٤٠ القاهرة